ألبير كامو



الطاعون

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

دار الآداب

البير كامو

الطاعون

نقله الى العربية

الدكتور سهيل ادريس

دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى
ايلول (سبتمبر) ١٩٨١

١

وقعت الاحداث الغريبة ، التي هي موضوع هذه القصة ، عام (...) ١٩٤ في وهران . ولما كانت خارجة بعض الشيء عن المألوف ، فانها في رأي الناس عامة ، كانت في غير محلها . والواقع أن وهران هي للنظرة الأولى، مدينة عادية ، ليست أكثر من مقاطعة فرنسية على الشاطىء الجزائري.

وينبغي الاعتراف بأن المدينة نفسها قبيحة. ولما كانت هادئة المظهر، فلا بد من بعض الوقت للملاحظة ما يجعلها مختلفة عن كثير من المدن التجارية، على جميع المستويات . فكيف السبيل مثلاً إلى تصوّر مدينة بغير حمام ولا أشجار ولا حدائق ، حيث لا خفقات أجنحة ولا حفيف أوراق ، كيف السبيل إلى تصوّر مكان محايد بكلمة واحدة ؟ إن السماء وحدها هي التي تنبىء بتغير الفصول . ولا يؤذن بالربيع هناك إلا نوع الهواء الرخيّ أو سلال الزهور التي يعود بها الباعة الصغار من الضواحي ، إنه ربيع يباع في الأسواق . وفي أثناء الصيف ، تحرق الشمس البيوت المفرطة الجفاف ، وتغطي الجدران برماد أشهب ، فلا يمكن العيش إذ ذاك إلا في ظلّ المصاريع المغلقة . وأما في الخريف ، فهناك على النقيض ، فيض من الوحل . وإنما تحلّ الأيام الجميلة في الشتاء فحسب .

هناك طريقة يسيرة للتعرّف على مدينة ما : هي أن نعرف كيف يشتغل

فيها سكانها وكيف يحبون وكيف يموتون . وفي مدينتنا الصغيرة ، كلّ ذلك يحدث معاً ، بصورة واحدة ، مسعورة غائبة ، ولعلّ ذلك من تأثير الإقليم. أي أن الناس فيها يضجرون ويجدّون في اكتساب العادات . ومواطنونا يعملون كثيراً ، وإنما من أجل الاثراء دائماً . وهم يهتمون خاصة بالتجارة، ويوجهون عنايتهم قبل كل شيء،حسب تعبيرهم، إلى تدبير الأشغال . على أنهم يتذوقون بالطبع هذه المسرّات البسيطة ، فهم يحبون النساء والسينما والاستحمام في البحر. ولكنهم،بكل تعقل،يحتفظون بلذائذهم هذه إلى مساء السبت والأحد ، فيما هم يحاولون في سائر أيام الاسبوع كسب كثير من المال . وهم حين يغادرون مكاتبهم مساء يجتمعون في المقاهي ، في ساعات معينة ، أو يتنزهون على الجادة عينها أو يجلسون على شرفاتهم . وان رغبات الشبان فيهم عنيفة وعابرة ، في حين أنّ عيوب من يكبرونهم في السنّ لا تتجاوز جمعيات لاعبي الكرة ومآدب اجتماعات الاصدقاء والنوادي التي يقامرون فيها وفق مصادفات الورق .

ولا ريب في أن قائلاً سيقول إن هذا ليس خاصاً بمدينتنا ، وأن معاصرينا جميعاً هم كذلك بالاجمال . صحيح أنه ليس ما هو طبيعي اليوم أكثر من رؤية الناس يعملون من الصباح حتى المساء ، ثم يختارون – لانفاق الوقت الذي يبقى لهم في الحياة – إما اللعب بالورق أو المقهى أو الثرثرة : ولكنّ هناك مدناً وبلداناً يهتمّ فيها الناس بين الحين والحين بوساوس أخرى .وهذا بالاجمال لا يغيرّ حياتهم . غير أنه كان ثمة هذا الوسواس ، وهذا شيء جديد . أما وهران فهي في الظاهر على العكس ، مدينة لا ظلال فيها ، أي أنها مدينة عصرية تماماً . وعلى ذلك،فليس من الضروري توضيح الطريقة التي يتبادل فيها مواطنونا الحب . فالرجال والنساء إما أن يلتهم بعضهم بعضاً بسرعة في ما يدعونه عمل الحب ، وإما أن ينخرطوا في عادة ثنائية طويلة . وغالباً ما لا يقوم بين هذين الحدّين المتطرّفين وسط . وهذا أيضاً ليس هو

بالشيء المبتكر. ففي وهران، كما في المدن الأخرى، يضطر الناس، بسبب من ضيق الوقت والتفكير، إلى أن يتحابّوا على غير علم منهم.

على أن ما هو أكثر جدّة وطرافة في مدينتنا، إنما هي الصعوبة التي يمكن أن يلقاها الناس بأن يموتوا. وكلمة صعوبة ليست هي الكلمة الصالحة، ولعلّ من الأدقّ أن نتكلم عن انعدام الراحة. فليس من العذوبة في شيء أن يمرض أحدنا. ولكن هناك مدناً وبلداناً تنجدك وتعاضدك في المرض، فتستطيع بعض الشيء أن تستسلم للقدر. إن المريض بحاجة إلى رقة، وهو يحبّ أن يعتمد على شيء، وهذا طبيعي جداً. أما في وهران، فإن قسوة المُناخ، وأهمية الاشغال، وتفاهة المناظر، وسرعة الشفق، ومزيّة اللذائذ، كل ذلك يتطلب الصحة الجيدة. فالمريض يشعر فيها بالوحدة شعوراً عميقاً، فما بالك بشخص يشرف على الموت، بعد أن وقع في الشرك خلف مئات الجدران الملتهبة حرارة، بينما ينهمك شعب بأكمله في المقاهي أو على التلفون، يتناقش في السندات وتذاكر الشحن والحسم؟ إن من اليسير إذ ذاك فهم ما قد يكون مزعجاً في الموت حين يوافي صاحبه هكذا في مكان جاف، حتى ولو كان موتاً عصرياً.

لعلّ هذه الاشارات تعطي فكرة كافية عن مدينتنا. ولكن ينبغي مع ذلك ألا نبالغ في شيء. ما كان يجب أن نشير اليه، هو ما في مظهر المدينة والحياة من تفاهة. ولكن ما أن يكتسب المرء عاداته حتى يقضي أيامه من غير صعوبة. وما دام للعادات في مدينتنا حظوة، فبوسعنا القول إن الأمور فيها على خير ما يُرام. ولا ريب في أن الحياة، من هذه الزاوية، لا تستهوي كثيراً. فالبلبلة عندنا ليست معروفة، وأهل مدينتنا يثيرون دائماً بصراحتهم وودهم وحيويتهم احتراماً معقولاً، وهذه المدينة الخالية من أي مظهر متميز ومن كل نبات وروح، توحي آخر الأمر بأنها مريحة، فيستنيم اليها الناس.

ولكن يجدر أن نضيف بأنها ملتقحة بمشهد لا مثيل له ، وسط نجد قاحل تكتنفه التلال المشرقة ، أمام خليج مكتمل الخطوط . على أن بالامكان أن يأسف المرء أنها بنت نفسها وهي تولي هذا الخليج ظهرها ، فتعذّرت من جرّاء ذلك رؤية البحر الذي لابدّ دائماً لادراكه من الذهاب اليه .

إلى هنا ، ومن اليسير الاقرار بأنه لم يكن ثمة شيء يدفع مواطنينا إلى ترقب الأحداث التي وقعت في ربيع ذلك العام ، والتي كانت كما أدركنا فيما بعد ، النذر الأولى للوقائع الخطيرة المرويّة هنا . وستبدو هذه الأحداث طبيعية في نظر البعض ، وعلى العكس ، غير محتملة الوقوع في نظر البعض الآخر . ولكن الراوي في آخر المطاف ،لا يستطيع أن يهتم بهذه المتناقضات . فان مهمته أن يقول فحسب : « هذا ما حدث » حين يعرف أن هذا قد حدث حقاً ، وأن هذا قد عنى حياة شعب بكامله ، وإذن فان هناك ألوفاً من الشهود الذين يقدرون في قلوبهم حقيقة ما يقوله .

ثم إن الراوي الذي سيُعرف متى حان أوان ذلك، ما كان له أن يدّعي فضلاً في مشروع من هذا النوع لو لم تتح له المصادفة أن يلتقط عدداً من الشهادات ولو لم تشدّه قوّة الأشياء إلى كل ما يسجله . وهذا ما يسمح له بأن يقوم بعمل مؤرّخ . ومفهوم أن مؤرخاً ما ،حتى ولو كان هاوياً ،يملك دائماً وثائق ، ولذلك فان راوي هذه القصة يملك وثائقه : شهادته أولاً ،وشهادة الآخرين ثانياً ، مادام دوره قد هيأه لالتقاط اعترافات جميع أشخاص هذه القصة ، وأخيراً النصوص التي وقعت بين يديه . وهو سيستمد منها كلما وجد من الخير أن يفعل ، ويستعملها كما يروق له . ثم إنه ... ولكن لعله قد آن الأوان لترك التعليقات واحتراسات اللغة، والدخول في صلب القصة. وإن وصف الأيام الأولى يقتضي شيئاً من الدقة .

خرج الدكتور برنار ريو صباح ١٦ نيسان من عيادته فعثر بجرذ ميت في وسط سطيحة الدرج . فأزاحه على التوّ من غير أن يكترث له ، وهبط السلم. ولكنه إذ بلغ الشارع وقر في ذهنه أن هذا الجرذ لم يكن في محلّه ، فعاد أدراجه لينبىء البوّاب . وازاء ردّ فعل السيد ميشال العجوز ، زاد شعوره بما كان في اكتشافه من غرابة . فبينما بدا له ظهور هذا الجرذ الميت أمراً غريباً فقط ، فقد كان يشكّل للبواب فضيحة . والحقّ أن موقف هذا الأخير كان حاسماً : فانه لم يكن في البيت جرذان . وعبثاً حاول الطبيب التأكيد له أن ثمة جرذاً على سطيحة درج الطابق الأول ، وهو ميت على الأرجح ، فقد ظلّ اقتناع السيد ميشال لا يتزعزع . لم يكن في البيت جرذان ، ولا بدّ أن يكون هذا الجرذ قد نُقل من الخارج . وبالاختصار ، فانها قضية مزاح أو دعابة .

وفي المساء نفسه ، كان برنار ريو واقفاً في ممرّ البناية يأخذ مفاتيحه قبل أن يصعد إلى منزله ، فرأى جرذاً كبيراً يطفر من جوف الممر المظلم ، بمشية متردّدة وشعر مبتلّ . ثم توقف ، وبدا أنه يلتمس التوازن ، ثم مضى نحو الطبيب ، وتوقف مرة أخرى ، ثم استدار على نفسه بصيحة قصيرة وسقط أخيراً وهو يُرسل الدم من شفتيه المفتوحتين . وتأمله الطبيب هنيهة ثم صعد إلى منزله .

ولم يكن تفكيره بالجرذ . كان هذا الدم المبصوق يردّه إلى ما كان يشغل فكره . كان مقرراً أن تتجه امرأته المريضة منذ عام إلى محطة جبلية في اليوم

التالي . وقد وجدها مستلقية في غرفتهما كما طلب اليها أن تفعل . وهكذا كانت تتهيأ لتعب الانتقال . وكانت تبتسم حين قالت له :

ــ أشعر بأني على خير ما يرام .

كان الطبيب ينظر إلى الوجه الملتفت نحوه في ضوء مصباح السرير . لقد كان هذا الوجه الذي هو في الثلاثين ، ورغم آثار المرض ، وجه الشباب دائماً في نظر ريو ، ولعلّ ذلك بسبب هذه البسمة الذي تطغى على كل شيء . وقال لها :

ــ نامي إذا كنت تستطيعين . ستأتي الممرضة عند الساعة الحادية عشرة ، فأصطحبك إلى قطار الظهر .

وقبّل جبيناً نديّاً بعض النداوة ، فصحبته البسمة حتّى الباب .

وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ، ١٧ نيسان ، استوقف البواب الطبيب عند مروره ، واتّهم بالمزاح الثقيل أشخاصاً وضعوا في وسط الممر ثلاثة جرذان ميتة ، ولا بدّ أنها قد أخذت في مصائد كبيرة ، فانها كانت مضرّجة بالدم . وكان البواب قد وقف ردحاً من الزمن على عتبة الباب ، حاملاً الجرذان من أرجلها ، مترقباً أن يكشف المذنبون عن أنفسهم ببعض المظاهر الساخرة . ولكن لم يأت أحد ، فقال السيد ميشال :

ــ آه هؤلاء ... لابدّ من أن أقبض عليهم !

وقلق ريو ، فعزم على أن يبدأ جولته في الأحياء الخارجية التي يسكنها أفقر زبائنه . وكان جمع الأقذار في تلك الأحياء يتمّ في وقت متأخر ، وكانت السيارة التي تجتاز طرقها المستقيمة المغبرة تلامس علب النفايات المتروكة على حافة الرصيف . وفي أحد الشوارع التي كان الطبيب يحاذيها على هذا النحو ، أحصى دزينة من الجرذان رميت على بقايا الخضار والخرق القذرة .

ووجد مريضه الأول في السرير ، في غرفة تطل على الشارع وتستعمل للنوم وللطعام في وقت واحد . وكان المريض شيخاً إسبانياً ذا وجه قاسي الملامح مخدَّد . وكان أمامه على الغطاء قدران مملوءتان بالحمّص . وإذ دخل الطبيب كان المريض مستوياً نصف استواء في سريره ، فانقلب إلى الوراء محاولاً استعادة أنفاسه الثقيلة كالحصى ، أنفاس شيخ مبهور[1] . وحملت له امرأته طستاً .

وقال بينما كان الطبيب يحقنه :

– أترى يا دكتور ... إنها تخرج ؟

فقالت المرأة – نعم . لقد التقط جارنا ثلاثة منها .

وكان الشيخ يفرك يديه :

– إنها تخرج ... وهي تُرى في جميع الصناديق . إنه الجوع !

ولم يجد ريو بعد ذلك مشقّة في أن يلاحظ أن الحيّ كله كان يتحدث عن الجرذان . وحين أنهى زياراته ، عاد إلى بيته ، فلقيه السيد ميشال وقال له :

– إن لك عندي برقية .

وسأله الطبيب عما إذا رأى جرذاناً أخرى ، فأجابه البواب :

– كلا . انني أترصّد ... فلا يجرؤ أولئك الخنازير .

وكانت البرقية تؤذن ريو بوصول أمه في اليوم التالي.وكانت قادمة للعناية ببيت ابنها في اثناء غياب المريضة . وحين دخل الطبيب منزله ، كانت

---

(١) مصاب بالربو .

الممرضة قد وصلت . ورأى ريو زوجته واقفة مرتدية ثيابها ، متخذة زينتها ، فابتسم لها وقال :

ــ هذا حسن ، حسن جداً .

وفي المحطة ، أدخلها « القاطرة ــ السرير » ، فأجالت فيها نظرها وقالت :

ــ إن أجرها مرتفع جداً بالنسبة الينا . أليس كذلك ؟

فقال ريو : ــ إنها ضرورية .

ــ ما قصة تلك الجرذان ؟

ــ لا أدري . إن هذا لغريب . ولكن الأمر لن يطول .

ثم سارع يستميحها العذر . فقد كان عليه أن يسهر عليها ، ولكنه أهملها كثيراً، فهزت برأسها كما لو أنها تطلب اليه أن يصمت، ولكنه أضاف :

ــ سيجري كل شيء خيراً مما كان إذ تعودين ، وسنبدأ من جديد .
فالتمعت عيناها وقالت : ــ أجل ، سنبدأ من جديد .

وبعد لحظة ، كانت توليه ظهرها ناظرة عبر الزجاج . وكان الناس على المحطة يتزاحمون ويتصادمون . وكان نعيق المحرّك يبلغ اسماعهم . ونادى زوجته باسمها الأول ، حتّى إذا التفتت اليه ، رأى أن وجهها قد كسته الدموع . وقال بلطف :

ــ لا ...

وتحت الدموع ، عادت البسمة منقبضة بعض الشيء . وتنفّست تنفساً عميقاً :

ــ إذهب . إنّ كل شيء سيجري على خير ما يرام .

وشدّها اليه . وعلى الرصيف الآن ، من الناحية الأخرى من الزجاج ، بات لا يرى إلا بسمتها . وقال : — أرجوك أن تعتني بنفسك .

ولكنها لم تكن تستطيع أن تسمعه .

وبالقرب من باب الخروج ، عند رصيف المحطة ، اصطدم ريو بالسيد أوتون قاضي التحقيق ممسكاً بيد ابنه . فسأله الطبيب عما إذا كان مسافراً . وكان السيد أوتون طويلاً أسود اللون يشبه نصف الشبه من كان يوصف في الماضي بأنه رجل مرموق في المجتمع ، ويشبه نصف الشبه حفّار قبور . وقد أجاب بصوت ودود ولكنه موجز :

— انني أنتظر السيدة أوتون التي ذهبت تقدم احتراماتها إلى أسرتي .

وصفر المحرّك .

وقال القاضي : — إن الجرذان ...

وتحرك ريو فجأة نحو القطار ، ولكن ما لبث أن انفتل نحو باب الخروج وقال :

— أجل ، ليس الأمر ذا بال .

وكان كل ما استرعى انتباهه من تلك اللحظة مرور عامل في سكة الحديد يحمل تحت ذراعه صندوقاً مليئاً بالجرذان الميتة .

وبعد ظهر ذلك اليوم نفسه ، استقبل ريو في بدء استشاراته شاباً قيل له إنه صحفي ، وإنه قد سبق له المجيء في الصباح. وكان اسمه ريمون رامبير . وهو قصير القامة ضخم المنكبين ، ذو وجه عزوم وعينين صافيتين ذكيتين ، وكان يرتدي ثياباً رياضية التفصيل ، ويبدو أنه مرتاح في حياته . وقد اتجه تواً إلى هدفه . فقد كان يقوم بتحقيق لحساب صحيفة باريسية كبرى حول

ظروف حياة العرب ، ويطلب معلومات عن حالتهم الصحية . وقد قال له ريو إن هذه الحالة لم تكن جيدة ، ولكنه كان يريد أن يعرف ، قبل أن يذهب إلى أبعد من ذلك ، إذا كان الصحفي يستطيع ان يقول الحقيقة . وأجابه الصحفي :

ـ بالتأكيد .

ـ أعني هل تستطيع أن تصدر دينونة قاطعة ؟

ـ قاطعة ، لا ... ينبغي الاعتراف بذلك . ولكني افترض أن هذه الدينونة ستكون بلا أساس .

وقال ريو بلطف إن مثل هذه الدينونة ستكون في الواقع بلا أساس ، ولكنه إذ يطرح هذا السؤال يسعى فقط إلى أن يعرف ما إذا كانت شهادة رامبير تستطيع أن تكون دون ما تحفظات أم لا .

ـ إنني لا أقرّ إلا الشهادات التي لا تحفّظ فيها . وإذاً فلن أدعم شهادتك بمعلوماتي .

فقال الصحفي وهو يبتسم : ـ إنها لغة « سان ـ جوست » .

فقال ريو دون أن يرفع صوته إنه لا يعرف من ذلك شيئاً ، وإنما هي لغة رجل تعب من العالم الذي يعيش فيه بالرغم من أنه يملك الحسّ الذي يملكه أشباهه ، وأنه عازم على أن يرفض من جهته الظلمْ والامتيازات . وغرق عنق رامبير بين كتفيه وهو ينظر إلى هذا الطبيب . وقال أخيراً وهو ينهض :

ـ أحسب أنني أفهمك .

وصحبه الطبيب حتّى الباب :

ـ أشكر لك أن تواجه الأمور على هذا الشكل .

وبدا رامبير نافد الصبر فقال :

ـ نعم . إنني أفهم . إغفر لي هذا الازعاج .

فشدّ الطبيب على يده وقال له إن بوسعه أن يكتب ريبورتاجاً طريفاً عن كمية الجرذان الميتة الموجودة الآن في المدينة ، فهتف رامبير :

ـ آه ! إن هذا يهمّني .

وفي الساعة السابعة عشرة ، خرج الطبيب لزيارات جديدة ، فالتقى في السلم برجل لا يزال شاباً ، ثقيل الجسم ، كثيف الوجه مخدّده ، يعترضه حاجبان غليظان وكان قد التقى به غير مرة في منزل الراقصين الاسبانيين النازلين الطابق الأخير من بنايته . وكان جان تارّو يدخّن لفافته بالحاح وهو يتأمل آخر اختلاجات جرذ يحتضر على إحدى الدركات ، عند قدميه . ورفع إلى الطبيب نظرة هادئة وملحّة بعض الشيء من عينيه الرماديتين ، فألقى عليه السلام وأضاف أن ظهور هذه الجرذان كان أمراً غريباً حقاً . فقال ريو :

ـ نعم ، ولكنه بدأ يزعجنا .

ـ من ناحية ، يا دكتور ، من ناحية واحدة فقط . إن كل ما في الأمر ، أننا لم نشهد شيئاً مماثلاً . ولكني أجد هذا هامّاً ، هاماً جداً .

وأمرّ تارّو يده على شعره ليردّه إلى خلف ، ونظر مرة أخرى إلى الجرذ وقد همد ، ثم ابتسم لريو :

ـ ولكن القضية بالاجمال هي يا دكتور قضية البواب .

وبالفعل ، فقد ألفى الطبيب البواب أمام البيت ، مستنداً إلى الجدار بالقرب من المدخل ، وعلى وجهه المحتقن عادةً علامة التعب . وحين حدّثه ريو بالاكتشاف الجديد ، قال ميشال :

– نعم . أعرف ذلك . إننا نعثر عليهم الآن اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة. ومثل هذا يحدث في البيوت الأخرى .

وكان يبدو مُحبطاً قلقاً . كان يفرك رقبته بحركة آلية . وقد سأله ريو عن صحته ، وكان طبيعياً ألا يقول البوّاب إنها سيئة ، فأجاب أنه فقط غير مطمئن . والقضية في نظره قضية نفسية ، فان هذه الجرذان كانت قد أزعجته حقاً ، وسيتحسن الوضع كثيراً عندما تختفي .

على أن الطبيب ، حين عاد مصطحباً أمه من المحطة صباح اليوم التالي، ١٨ نيسان ، لقي السيد ميشال بسحنة اكثر تخدّداً : فثمة زهاء عشرة جرذان منتشرة على السلالم بين القبو والعليّة، وكانت صناديق البيوت المجاورة ملأى بها . وقد علمت أم الطبيب النبأ من غير أن تدهش :

– إنها أشياء تحدث دائماً .

وكانت امرأة قصيرة ذات شعر فضّي وعينين سوداوين رقيقتين . وقد قالت لابنها :

– إنني سعيدة برؤيتك ثانيةً يابرنار . وليس بوسع الجرذان أن تعكر عليّ هذه السعادة .

فأقرّها هو على ذلك. فالواقع أن كل شيء معها كان يبدو دائماً هيّناً يسيراً.

على أن ريو خابر دائرة مكافحة الجرذان التي كان يعرف مديرها . أترى هذا الأخير قد سمع بهذه الجرذان التي كانت تخرج بعدد وفير لتموت في الهواء الطلق ؟ إن المدير مرسييه كان قد سمع بها، بل لقد عُثر في دائرته نفسها التي تقوم غير بعيد عن المحطّات ، على زهاء خمسين جرذاً . غير أنه كان يتساءل عما إذا كان الامر ذا خطورة . ولم يكن بوسع ريو أن يقرّر ذلك ، ولكنه يعتقد بأنه يتحتّم على دائرة مكافحة الجرذان أن تتدخل . وقد قال مرسييه :

– نعم . بواسطة أمر . إن كنت تعتقد أن القضية ذات خطورة، فبوسعي أن أحاول الحصول على أمر .

فقال ريو : – إنه شأن يستحق الاهتمام على أيّ حال .

وكانت خادمته قد أتت تبلغه بأن بضع مئات من الجرذان الميتة قد جُمعت في المصنع الكبير حيث يعمل زوجها .

وأياً ما كان ، فان مواطنينا بدأوا في تلك الحقبة تقريباً يقلقون . ذلك أن المصانع والمخازن غصّت ابتداء من الثامن عشر بمئات الجثث من الجرذان. وقد اضطروا في بعض الحالات إلى الاجهاز على التي كان احتضارها يطول اكثر مما ينبغي . ومن الأحياء الخارجية حتى وسط المدينة ، في كل مكان كان يمرّ فيه الدكتور ريو ، وفي كل مكان كان يتجمّع فيه مواطنونا ، كانت الجرذان تنتظر ملقاةً أكواماً في الصناديق أو صفوفاً طويلة في السواقي. ومنذ ذلك اليوم ، تناولت صحف المساء القضية وتساءلت عما إذا كانت البلدية ستعمل أم لا ، وما هي التدابير السريعة التي واجهتها لتصون رعاياها من هذه الغارة الكريهة . والواقع أن البلدية لم تكن قد قررت شيئاً ، ولم تكن قد واجهت شيئاً على الاطلاق ، ولكنها بدأت تلتئم للتشاور . وقد أعطي الأمر لدائرة مكافحة الجرذان بأن تجمع الجرذان الميتة عند فجر كل يوم ، حتى إذا ما تمّ الجمع ، تولّت سيارتان من الدائرة نقلها إلى مصنع ترميد الاقذار لإحراقها .

على أن الحالة تفاقمت خطراً في الأيام التالية . فقد تزايد عدد القواضم المجموعة وتضاعف الحصاد يوماً بعد يوم . ومنذ اليوم الرابع ، بدأت الجرذان تخرج لتموت جماعات . وكانت تنفر في صفوف مترنّحة من الثقوب والأقبية والسراديب والبواليع فتتهادى متمايلة في النور ، وتستدير حول نفسها لتموت على مقربة من البشر. وكانت صيحات احتضارها الصغيرة تُسمع واضحة ليلاً في الممرات أو الأزقة . وفي الصباح ، كان يعثر عليها

ممدّدة في الضواحي حتى السواقي ، وعلى أفقامها المدببة مشحة دم ، بعضها منتفخ نتن ، وبعضها متصلّب منتصب الشاربينّ ما يزال . وفي المدينة نفسها، كان يعثر عليها ركاماً صغيرة على المساطح أو في الحدائق . وكانت تأتي لتموت أيضاً معزولة في الباحات الإدارية وتحت سقوف ساحات المدارس وعلى أرصفة المقاهي أحياناً . وكان مواطنونا المذعورون يكتشفونها في المأهول من أمكنة المدينة . وهكذا لُطِّخت « ساحة الأسلحة » والجادّات ومتنزّه « فرون دومير». وكانت المدينة تنظف عند الفجر من هذه الحيوانات الميتة ، ولكنها في أثناء النهار تعمر بها رويداً رويداً . وقد يحدث لأكثر من سارٍ على الأرصفة أن يشعر تحت قدمه بكتلة مطاطة لجثّة ما تزال طريّة ... فكأن الأرض نفسها التي زرعت فيها بيوتنا تتطهّر من حمل أخلاطها ، فتصعدّه إلى ظاهر الدمامل وأنواع الصديد التي كانت حتى ذلك الحين تعتمل داخلها . فلنتخيّل فحسب انذهال مدينتنا الصغيرة الهادئة حتى ذلك الحين والتي انقلبت في بضعة أيام، كانسان موفور الصحة يثور دمه الكثيف فجأة .

ولقد ازدادت الحالة سوءاً حتى أن وكالة رانسدوك (للاستعلامات والتوثيق وجمع المعلومات في أي موضوع) نشرت في إذاعة أنبائها المجانية أن ٦٢٣١ جرذاً قد جُمعت وأحرقت في نهار الخامس والعشرين وحده . وكان من شأن هذا الرقم الذي كان يعطي معنى واضحاً للمشهد اليومي الذي كانت المدينة تُشرف عليه أن يزيد الذعر . فحتى ذلك الحين، اقتصر الناس على الشكوى من حادث منفّر بعض الشيء . أما الآن فهم يدركون أن هذا الحادث الذي لم يكن بالامكان بعدُ قدر مداه ولا اكتشاف أصله بات ينذر بالخطر . وحده ظل الاسباني المبهور يفرك يديه ويردّد بفرح الشيوخ « إنها تخرج ، إنها تخرج » !

غير أن وكالة « رانسدوك » أعلنت يوم ٢٨ نيسان أنه جمع ثمانية آلاف جرذ تقريباً، فبلغ القلق ذروته في المدينة. وكان الناس يطالبون بتدابير جذرية،

وراحوا يتهمون السلطات ، وبدأ من كانت لهم بيوت على شاطىء البحر يتحدثون عن إخلائها . ولكن الوكالة أعلنت في اليوم التالي أن الظاهرة قد انتهت بحسم قاطع وأن دائرةا لمكافحة لم تجمع إلا كمية قليلة من الجرذان الميتة . فتنفّست المدينة الصعداء .

ومع ذلك ، فان الدكتور ريو ، حين أوقف سيارته أمام بيته ، ظهر ذلك اليوم نفسه ، لمح البوّاب في آخر الشارع وهو يتقدّم باجهاد ، محنيّ الرأس ، متباعد الذراعين والساقين ، كأنما هو دمية . وكان العجوز يمسك بذراع كاهن عرفه الطبيب . إنه الأب بانولو ، وهو عالم يسوعي مكافح كان قد التقى به أحياناً ، وكان الناس في مدينتنا يقدرونه كثيراً ، حتى أولئك الذين لا يكترثون لشؤون الدين . وانتظرهما . وكانت عينا ميشال العجوز تلتمعان ، وأنفاسه تصفر . وكان قد شعر بضيق فخرج يلتمس الهواء ، ولكن آلاماً مبرّحة في عنقه وإبطيه وأربيّاته(١) قسرته على العودة والتماس معونة الاب بانولو . وقال :

– إنها تورّمات . كان لا بدّ لي من القيام بجهد .

وأمرّ الطبيب إصبعه ، وذراعه خارج الباب ، على أسفل العنق الذي مدّه له ميشال ، فاذا بشبه عقدة من خشب كانت قد تكوّنت فيه .

– استلقِ وخُذ حرارتك . وسوف آتي لأراك بعد الظهر .

وحين ذهب البواب ، سأل ريو الاب بانولو رأيه في قصّة الجرذان هذه ، فأجاب الاب :

– يبدو أنه وباء .

(١) الأربية : أصل الفخذ .

وابتسمت عيناه خلف نظارتيه المستديرتين .

وبعد الغداء ، كان ريو يقرأ ثانية برقية المصحّ التي كانت تنبئه بوصول زوجته ، حين سُمع جرس التلفون . وكان المتحدث أحد زبائنه القدامى ، وهو عامل في دار الولاية . كان يتألم منذ وقت طويل من تقلص في الأبهر ، وقد عالجه ريو مجاناً لفقره . وقد قال له :

ـ نعم . أرى أنك تتذكرني . ولكنّ هناك رجلاً آخر . فأسرع بالمجيء . لقد حدث عند جاري حادث .

وكان صوته يلهث . وفكر ريو بالبواب فعزم على أن يراه فيما بعد . وبعد بضع دقائق ، كان يجتاز باب بيت منخفض في شارع « فيد هيرب » في أحد الأحياء الخارجية . فالتقى في وسط السلم الرطب النتن بجوزيف غران ، المستخدم ، هابطاً للقائه . وهو رجل في الخمسين من عمره ذو شارب مصفر ، طويل محدودب ، ضيق الكتفين ، هزيل الاعضاء . وقال إذ بلغ ريو :

ـ إنه الآن خير مما كان . ولكني حسبت أنه قد انتهى .

وتمخّط . وعلى باب الشقة اليسرى ، في الطابق الثاني والاخير ، قرأ ريو مكتوباً بالطبشور الاحمر : « ادخل : انني مشنوق ».

فدخلا . كان الحبل يتدلى من السقف فوق كرسي مقلوب ، والطاولة مدفوعة في ركن من الغرفة . ولكن الحبل كان يتدلى في الفضاء . وقال غران ، وكأنه دائماً يبحث عن كلماته ، بالرغم من أنه تحدّث أبسط ما يكون الحديث :

ـ لقد فككته في الوقت المناسب . كنت خارجاً إذ ذاك ، فسمعت ضجّة . وحين رأيت ما هو مخطوط على الباب ، حسبت أن في الأمر دعابة . ولكنه

أرسل حينذاك أنّة غريبة بل بوسعي أن أقول حزينة .

وكان يحكّ رأسه :

– في رأيي ، لا بد أن العملية مؤلمة . وقد دخلتُ بالطبع .

وكانا قد دفعا أحد الأبواب ، فاذا هما على عتبة غرفة منيرة ولكنها فقيرة الأثاث . كان ثمة رجل قصير ممتلىء ، نائماً على السرير النحاسي ، يتنفس بقوة وينظر اليهما بعينين محتقنتين . وتوقّف الطبيب . وكان يخيّل اليه ، في ثنايا التنفس ، أنه يسمع صرخات جرذان صغيرة . ولكن لم يكن شيء ليتحرك في الزوايا . واتجه ريو نحو السرير ، فتبين له أن الرجل لم يسقط من علوّ كبير ، وهو لم يسقط سقطة مفاجئة أكثر مما ينبغي فتماسكت فقراته. على أنه أصيب ، طبعاً ، ببعض الاختناق . وكان من الضروري أن تؤخذ له صورة بالأشعة وقد حقنه الطبيب بزيت ممزوج بالكافور ،وقال إن كل شيء سيعود إلى نصابه في بضعة أيام . وشكر الرجل الطبيب بصوت مخنوق.

فسأل ريو غران عما إذا كان قد أخبر مفوضية الشرطة ، فبدت على المستخدم سيماء الخيبة وقال :

– كلا ... حسبت أن ما يستدعي العجلة ...

فقاطعه ريو – طبعاً ... وإذن فسأبلغ المفوضية أنا نفسي .

ولكن المريض اضطرب في تلك اللحظة وانتصب في سريره وهو يحتجّ بأن صحته جيّدة وأنه لا ضرورة لذلك . فقال له ريو :

– هدّىء روعك . صدّقني أن القضية ليست ذات بال ، وينبغي أن أقدم تقريري .

فقال الآخر « أوه » وارتمى إلى خلف وجعل يبكي بشهقات متقطعة .

وكان غران يربت على شاربيه منذ لحظة ، فاقترب منه وقال له :

– حاول أن تفهم يا سيّد كوتار . بوسعنا القول إن الطبيب مسؤول . لنفرض مثلاً أنك عاودتك الرغبة في أن ...

ولكن كوتار أجاب من خلال دموعه أنه لن يعود إلى ذلك ثانية ، وأنه إنما فعل ذلك في لحظة جنون ، وأنه يرغب فحسب في أن يُترك وشأنه. وحرّر ريو وصفة وقال :

– اتفقنا . لندع هذا . سأعود بعد يومين أو ثلاثة . ولكن لا ترتكب حماقات .

وعند سطيحة الدرج ، قال لغران إنه مضطر إلى الادلاء بافادته ، ولكنه سيطلب إلى المفوض ألا يقوم بالتحقيق إلا بعد يومين .

– إن مراقبته واجبة هذه الليلة . هل له أسرة ؟

– لا أعرف أحداً منها . ولكن أستطيع أنا نفسي أن أسهر عليه .

فهزّ برأسه .

– لاحظ أنني لا أعرفه هو نفسه أيضاً . ولكن ينبغي أن نتعاون فيما بيننا .

وفي ممرات البيت ، جعل ريو يتطلع آلياً نحو الزوايا ويسأل غران عما إذا كانت الجرذان قد اختفت تماماً من حيّه. ولم يكن العامل ليعرف شيئاً عن ذلك . فالواقع أنهم حدثوه بهذا ، ولكنه لا يولي أنباء الحيّ أهمية كبيرة. وقد قال معلقاً :

– إن لي هموماً أخرى .

وكان ريو قد صافحه ، وحث خطاه لرؤية البواب قبل أن يكتب إلى زوجته .

وكان باعة صحف المساء يصيحون بان غارة الجرذان قد أوقفت . ولكن ريو وجد مريضه منقلباً خارج سريره نصف انقلاب ، واحدى يديه على بطنه والاخرى حول العنق ، وهو يقيء بتمزّقات كبيرة، صفراء وردية في وعاء للاقذار . وبعد جهود كثيرة ، استلقى البـــواب ثانية في سريره وقد تقطّعت أنفاسه . وكانت الحرارة قد بلغت تسعاً وثلاثين وخمسة خطوط ، وكانت غُدد العنق والاعضاء قد انتفخت، وأخذت بقعتان مسوّدتان تنتشران على خاصرته . وها هوذا يشكو الآن من ألم داخلي فيقول :

ــ إنه يحرقني ... ذلك الخنزير يحرقني .

وكان فمه السخامي يمضغ الكلمات مضغاً . وقد أدار نحو الطبيب عينين كرويتين أراق فيهما الصداع دموعاً . وكانت امرأته تتطلع بقلق إلى ريو الذي ظلّ أبكم ، إلى أن قالت له :

ــ ماهذا يا دكتور ؟

ــ ربما كان أي شيء . ولكن ليس هناك شيء مؤكد على التحقيق . حتى هذا المساء ، حمية وتنقية . وليشرب كثيراً .

والحق أن العطش كان يفترس البواب .

وحين عاد ريو إلى بيته ، خابر بالتلفون زميله ريشار ، أحد مشاهير أطباء البلدة . فقال ريشار :

ــ كلا ... لم أجد شيئاً خارقاً للعادة .

ــ أليس من حمّى مع التهابات موضعية ؟

ــ آه بلى ... حادثتان مع غدد ملتهبة جداً .

ــ بصورة غير طبيعية ؟

فقال ريشار : ــ هوو ... أتعرف ... الصورة الطبيعية ..

وأياً ما كان ، فان البواب بدأ في المساء يهذي ويشكو من الجرذان وهو في حرارة الأربعين . وأجرى له ريو « خراج تثبيت ».وتحت حرقة التربنتين، أخذ البواب يهمهم « آه الخنازير »! .

وازداد انتفاخ الغدد فقست على اللمس ، وكادت زوجة البواب أن تجنّ . فقال لها الطبيب :

— اسهري عليه ، واستدعيني إذا لزم الأمر .

وفي اليوم التالي ، ٣٠ نيسان ، كانت نسمة دافئة تصفر في سماء زرقاء رطبة . وكانت تحمل عبير أزهار صادراً من أبعد الضواحي . وبدت أصوات الصباح في الشوارع أشدّ حياة وأوفر فرحة من العادة . وفي مدينتنا الصغيرة كلها ، بعد أن تحررت من الخوف الاصم الذي عاشت فيه طوال الاسبوع ، كان ذلك اليوم يوم البعث . وقد اطمأنّ ريو نفسه من رسالة بعثت بها اليه زوجته ، فهبط إلى غرفة البواب بخفة . والواقع أن الحمى قد هبطت عند الصباح إلى ثمانٍ وثلاثين درجة . وكان المريض ، وقد وهنت قواه ، يبتسم في سريره . فقالت زوجته :

— إنه في تحسّن ، أليس كذلك يا دكتور ؟

— لننتظر بعد .

ولكن الحمّى ارتفعت دفعة واحدة عند الظهر إلى الأربعين ، وكان المريض يهذي دون ما توقف ويقيء باستمرار . وكان لمس غدد العنق مؤلماً، وكان يبدو أن البواب يرغب في أن يُبعد رأسه ما وسعه عن جسمه . وكانت امرأته جالسة عند قدم السرير ، ويداها على الغطاء ممسكتان قدمي المريض برفق ، وهي تنظر إلى ريو . وقال هذا :

— اسمعي . يجب عزله ومحاولة معالجته معالجة استثنائية . انني سأخابر

المستشفى وسننقله في سيارة الاسعاف .

وبعد ساعتين ، كان الطبيب والمرأة منحنيين في سيارة الاسعاف فوق المريض ، الذي كانت تخرج من فمه المتشقق فضلات كلمات : « الجرذان»! . كان مخضرّ اللون ، مشمّع الشفتين مسودّ الجفنين ، متقطع النفس قصيره ، تعذّبه الغدد عذاباً شديداً فيتجمع في فراشه كما لو أن بودّه أن يُغلقه على نفسه ، أو كأن شيئاً ما ، نابعاً من أعماق الارض ، كان يدعوه دون ما استمهال ... هكذا كان البواب يختنق تحت عبء غير منظور . وكانت المرأة تبكي .

– أليس من أمل بعد يا دكتور ؟

فقال ريو : – لقد مات .

بوسعنا القول إن موت البواب كان إيذاناً بانتهاء هذه الفترة المليئة بالامارات المقلقة ، وبدء فترة أخرى أصعب منها نسبياً، تحوّلت فيها مفاجأة الأيام الأولى شيئاً فشيئاً إلى رعب وذعر . وأدرك مواطنونا أنهم لم يكونوا قد فكّروا لحظة بأن مدينتنا الصغيرة يمكن أن تصبح مكاناً ملائماً لموت الجرذان تحت أشعة الشمس ولهلاك البوابين من جراء أمراض غريبة . ومن هذه الزاوية ، كانوا إجمالاً على خطأ، وكانت أفكارهم بحاجة إلى مراجعة . فلو أنّ كل شيء قد توقف عند هذا الحدّ ، لكانت العادات قد انتصرت دون ريب . ولكن آخرين من مواطنينا – ليسوا بوابين ولا فقراء – سلكوا الطريق الذي سلكه قبلهم السيد ميشال . ومنذ تلك اللحظة بدأ الخوف، والتفكير معه.

على أن الراوي يحسب من المفيد ، قبل الدخول في تفاصيل هذه الأحداث الجديدة ، أن يُقدّم رأي شاهد آخر في الفترة التي وُصفت .فان جان تارّو ، الذي التقينا به في بدء هذه القصة، كان قد أقام في وهران منذ أسابيع ونزل في فندق كبير من فنادق وسط المدينة . وكان يبدو في الظاهر ميسور الحال بحيث يستطيع العيش من عائداته . ولكن بالرغم من أن المدينة قد تعوّدته ، فلم يكن بوسع أحد أن يعرف من أين أتى ولماذا هو هناك . وكان الناس يلقونه في جميع الامكنة العامة . ومنذ مطلع الربيع ، كان قد رؤي كثيراً على الشواطىء يستحمّ غالباً وبسرور ظاهر . وكان سليم الطوية ، باسم الثغر أبداً ، فكأنه صديق جميع المُتع العادية دون أن يكون عبداً لها .

والعادة الوحيدة التي عُرف بها في الواقع هي مخالطته الدائمة للراقصين والموسيقيين الاسبانيين ، وهم في مدينتنا كثر .

ومهما يكن من أمر ، فان مذكراته تشكل هي أيضاً نوعاً من التأريخ لهذه الحقبة الصعبة . ولكنه تأريخ خاص جداً يبدو أنه يستجيب لانحياز للتفاهة . ولأول وهلة يمكن الظن بأن تارّو صرف اهتمامه لمراقبة الأشياء والكائنات مكبّرة . وبالاجمال ، كان يحرص في أثناء الذعر العام ، على أن يجعل من نفسه مؤرّخ ما لا تاريخ له . ولا شك أنّ بالامكان أن ننعي عليه هذ التحيز وأن نرى فيه جفاف العاطفة. على أن ذلك لا يعني أن هذه المذكرات لا تقدّم ، بين يديْ مؤرخ هذه الفترة ، جملة من التفاصيل الثانوية لها مع ذلك أهميتها ، وأن غرابتها بالذات هي التي تحول دون الحكم على هذه الشخصية الهامة حكماً سريعاً .

تحمل الملاحظات الأولى التي سجّلها جان تارّو تاريخ وصوله إلى وهران. وهي تكشف منذ البدء عن رضى تارّو العجيب في أن يوجد في مدينة قبيحة بذاتها هذا القبح . وفيها وصف مفصّل لأسدين من البرونز يزينان دار الولاية ، وتأملات لطيفة حول انعدام الاشجار ، والبيوت البشعة وتخطيط المدينة السخيف . ويمزج تارّو بهذا كله محاورات سمعها في الترامات والشوارع ، من غير أن يضيف اليها تعليقاته ، باستثناء محادثة لاحقة متعلقة بشخص يُدعى « كامبس » . كان تارّو قد سمع حديث قاطعيْ تذاكر في الترامات ، كان أحدهما يقول :

— لقد عرفت جيداً كامبس ؟

— كامبس ؟ رجل طويل ، ذو شاربين أسودين ؟

— إنه هو . كان يعمل عند مفتاح التحويل .

ـ أوه ... طبعاً .

ـ لقد مات .

ـ آه ... ومتى ؟

ـ بعد حكاية الجرذان .

ـ عجيب ، وماذا حدث له ؟

ـ لا أدري . الحمّى . ثم إنه لم يكن قوياً . وقد نبتت له دمامل تحت ذراعه ، فلم يستطع المقاومة .

ـ لقد كان يبدو ، مع ذلك ، كجميع الناس .

ـ لا . بل كان صدره واهنا ، وكان يمتهن الموسيقى في « الاورفيون». ولا شك في أن الدأب على النفخ في بوق يُعطّل آخر الامر .

وأنهى الآخر الحديث بعد ذلك بقوله : ـ صحيح ... إذا كان أحدنا مريضاً ، فينبغي ألا ينفخ في بوق .

وبعد هذه الاشارات ، أخذ تارّو يتساءل عن سبب دخول كامبس في « الاورفيون » ضد مصلحته ، التي لا ريب فيها ، وعن البواعث العميقة التي ساقته إلى المخاطرة بحياته لمصلحة استعراضات تقام أيام الآحاد .

وبدا تارّو بعد ذلك متأثراً تأثراً طيباً بمشهد كان غالباً ما يقع على الشرفة التي تواجه نافذته . والواقع أنّ غرفته كانت تطل على طريق صغير معترض تنام فيه القطط في ظل الجدران . ولكنّ شيخاً قصيراً كان يظهر كل يوم على الشرفة ، من الناحية الأخرى من الطريق ، بعد تناول الغداء ، في الساعات التي تسترخي فيها المدينة برمّتها تحت وطأة الحرارة . وكان ذا شعر أبيض مسرّح بعناية ، وكان يقف وقفة حازمة مستقيمة في ثيابه المفصّلة تفصيلا

عسكرياً ، فيدعو القطط بطريقة رقيقة ومتحفظة معاً اليه . وكانت القطط ترفع عيونها المصفرّة بالنوم من غير أن تزعج نفسها، فيأخذ الشيخ في تمزيق قصاصات صغيرة من الورق ونثرها فوق الطريق، فتنجذب القطط بهذا المطر من الفراشات البيض ، وتتقدم في وسط الشارع ، مادّة يداً مترددة نحو آخر قصاصات الورق . عند ذاك ، كان الشيخ القصير يبصق على القطط بقوة ودقة ، فاذا أدركت إحدى بصقاته هدفها ، ضحك .

وأخيراً ، كان تارّو يبدو وكأنه مفتتن نهائياً بالطابع التجاري للمدينة التي يبدو أن مظهرها وحيويتها وحتى مُتعها إنما كانت تقتضيها ضرورات التجارة . هذه الظاهرة الفريدة (تلك هي العبارة التي تضمنتها المذكرات) كانت تحظى برضى تارّو . بل إن إحدى ملاحظاته المدحية انتهت بصيحة « وأخيراً »!. وهذه هي المواضع الوحيدة التي يبدو أن ملاحظات السائح، في ذلك التاريخ ، كانت تتخذ فيها طابعاً شخصياً . ومن الصعوبة ، بكل بساطة ، أن نقدر ما فيها من مغزى ومن جديّة . من ذلك أن تارّو ، بعد أن ذكر أن العثور على جرذ ميت دفع خازن مال الفندق إلى ارتكاب خطأ في قائمة حسابه ، أضاف بخط أقلّ وضوحاً من العادة قوله : « سؤال : كيف السبيل إلى أن لا يضيع الانسان وقته ؟ جواب : أن يشعر به بكل امتداده . الوسائل : قضاء أيام في غرفة الانتظار في عيادة طبيب أسنان ، على كرسي غير مريح . العيش على الشرفة بعد ظهر يوم الاحد . الاستماع إلى محاضرات تُلقى بلغة لا يفهمها السامع . اختيار أطول الطرق وأقلها راحة للسفر وقوفاً في السكة الحديدية . الانتظار في « الذنب » أمام نوافذ التذاكر في المسارح دون الحصول على مقعد في آخر الامر الخ ...» ولكن المذكرات ما تلبث بعد هذه الفلتات اللسانية أو الفكرية أن تبدأ وصفاً مفصلاً لترامات مدينتنا ، وشكلها الزورقيّ ، ولونها الحائل ، وقذارتها المعتادة ، وتُنهي هذه التأملات بعبارة « هذا جدير بالملاحظة » التي لا تشرح شيئاً .

وهذه، على أي حال، المعلومات التي أدلى بها تارّو حول حكاية الجرذان:

« إن جاري الشيخ القصير مضطرب اليوم . فليس هناك قطط بعد . والواقع أن الجرذان الميتة التي يُعثر عليها بكميات كبيرة في الشوارع تبدد آثارتها فاختفت . وفي رأيي أنه ليس وارداً أن تأكل القطط الجرذان الميتة. وأنا أذكر أن قططي كانت تحتقر ذلك . على أن هذا لا يمنع أن عليها أن تركض في الأقبية ، وأنّ الشيخ القصير مضطرب . إن عنايته بتسريح شعره هي اليوم دون ما كانت ، وهو أقل نشاطاً من قبل . فان المرء يشعر أنه قلق، وهو ما كاد يخرج حتى دخل، ولكنه كان قد بصق مرة في الفضاء .

« وقد أوقف اليوم ترامٌ في المدينة لأنه عُثر فيه على جرذ ميت لم يُعرف كيف وصل إلى هناك . وقد نزلت من الترام امرأتان أو ثلاث ، وقُذف بالجرذ ، ثم مضى الترام .

« وفي الفندق ، قال لي حارس الليل ، وهو رجل موثوق به ، إنه يتوقع مصيبة من جراء هذه الجرذان الكثيرة. « حين تغادر الجرذان السفينة...». فأجبته بأن ذلك صحيح بالنسبة إلى السفن ، ولكن لم يُتحقق من صحته أبداً بالنسبة إلى المدن . غير أن هذا لم يزعزع اعتقاده . وقد سألته عن المصيبة التي يمكن وقوعها في رأيه . فلم يعرف ، لاستحالة التنبؤ بها . ولكنه لن يدهش إذا ما كانت هذه المصيبة هزة أرضية . واعترفت بأن ذلك ممكن ، فسألني عما إذا كان هذا لا يقلقني ، فقلت له :

– إن الشيء الوحيد الذي يهمني ، هو أن أنعم بالطمأنينة الداخلية .

« ففهمني تماماً .

« كان في مطعم الفندق أسرة جديرة جداً بالاهتمام . الاب رجل طويل نحيل يرتدي السواد مع ياقة قاسية . ورأسه أصلع في الوسط وخصلتان من

الشعر الرمادي عن يمين وشمال . وعيناه صغيرتان مستديرتان قاسيتان ، وأنفه دقيق ، وفمه أفقي ، وكل ذلك يكسبه هيئة بومة حسنة التهذيب . وهو أول من يصل دائماً إلى باب المطعم ، فيتنحّى ويفسح ازوجته الطريق ، وهي دقيقة الجسم كفأرة سوداء ، وعند ذلك يدخل معها ووراءه صبي صغير وبنت صغيرة يرتديان ثياباً كالكلاب المدربة . حتى إذا وصل إلى الطاولة ، ترقّب أن تأخـــذ زوجته مكانها ، ثم يجلس ، وإذ ذاك يستطيع الحروان أن يَحطا على كرسيهما . وهو يتحدث إلى زوجته وولديه بكلفة ظاهرة ، وينطق بأقوال خبيثة مؤدبة يوجهها إلى الأولى ، وبأقوال حازمة إلى وريثيه :

ـ إنك يا نيكول تبدين بغيضة جداً .

« فتتهيأ الفتاة الصغيرة للبكاء . وهذا هو المقصود » .

« هذا الصباح ، بدا الصبي شديد الاهتمام بحكاية الجرذان . وقد أراد أن يقول كلمة إذ هم على الطعام :

ـ لا يُتحدث عن الجرذان على المائدة يا فيليب . إنني أمنعك في المستقبل أن تنطق بهذه الكلمة .

« فقالت الفأرة السوداء : ـ إن أباك على حق .

« وغرس الجروان أنفيهما في الطعام ، فشكرت البومة باشارة مبهمة من الرأس .

« وبالرغم من هذا المثال الجميل ، يتحدثون في المدينة كثيراً عن حكاية هذه الجرذان . ولقد تدخلت الجريدة في القضية . فاذا الانباء المحلية التي هي شديدة التنوّع في العادة ، مشغولة الآن كليّاً بحملة ضد البلدية : «أيكون أعضاء بلديتنا متنبهين حقاً إلى الخطر الذي قد تنطوي عليه جثث هذه القوارض

النتنة »؟ ولا يستطيع مدير الفندق أن يتحدث عن شيء آخر . ومن أسباب ذلك ، من غير شك ، أنه مغتاظ ، فأنْ يُعثر على جرذان في مصعد فندق محترم ، أمرٌ غير معقول على ما يبدو له . وقد قلت لأعزّيه : « إن جميع الناس في مثل هذه الحال ».

« فأجابني : وهذا هو ما يغيظني بالذات.. فنحن الآن مثل جميع الناس.

« وهو الذي حدثني عن الظواهر الأولى لهذه الحمى المفاجئة التي بدأ الناس يقلقون منها . وقد أصيبت بها إحدى خادمات فندقه ولكنه سارع فأوضح بقوله :

— « لا شك في أنها ليست مُعدية .

« فقلت له إن الامر لديّ سواء .

— « آه . أرى ذلك . إن السيد مثلي . إن السيد جبريّ .

« ولم يسبق لي أن أشرت إلى مثل ذلك ، ثم إنني لست جبرياً . وقد قلت له هذا ...».

وابتداءً من هذه اللحظة ، بدأت مذكرات تارّو تتحدث بشيء من التفصيل عن هذه الحمى المجهولة التي نقلق الناس . وبعد أن سجل تارّو أن الشيخ القصير كان قد وجد أخيراً قططه باختفاء الجرذان، وأنه كان يصوّب بصبرٍ رمايته ، أضاف أن بالامكان سرد عشر حوادث من حوادث هذه الحمى ، كان معظمها مميتاً .

وبوسعنا أخيراً أن ننقل هنا ، على سبيل الوثيقة ، الصورة التي رسمها تارّو للدكتور ريو . وهي صورة أمينة ، بما فيه الكفاية ، بقدر ما يسع الراوي أن يحكم عليها :

« يبدو وكأنه في الخامسة والثلاثين . قامة معتدلة . عريض المنكبين .

وجه مستطيل تقريباً . العينان سوداوان ومستقيمتان، ولكنّ الفكين بارزان. الانف الكبير عاديّ . شعر أسود مقصوص قصيراً جداً . الفم مقوّس مع شفتين ريانتين مطبقتين دائماً تقريباً.إنه ينزع في الشبه إلى فلاح صقلّي ببشرته المحترقة وشعره الاسود ولباسه ذي اللون القاتم دائماً ، والذي يناسبه جيداً مع ذلك .

« يمشي بسرعة . وهو يهبط الأرصفة من غير أن يبدّل مشيته . وإنما يعود إلى الرصيف المقابل مرتين على ثلاث بقفزة خفيفة . ساهٍ وراء عجلة القيادة في سيارته ، وهو غالباً ما يترك أسهم الاتجاه مرفوعة ، حتّى بعد أن ان يكون قد انعطف . حاسر الرأس دائماً . يبدو واسع الاطلاع » .

كانت أرقام تارّو صحيحة . وكان الدكتور ريو واقفاً على حقيقتها . فهو بعد أن عزل جثة البواب ،خابر ريشار بالتلفون ليسأله عن هذه الحمّيات الأربية ، فأجابه ريشار :

ــ إنني لا أفهم من أمرها شيئاً . ميتان ، الأول في ثمان وأربعين ساعة، والآخر في ثلاثة أيام . كنت قد غادرت الثاني ذات صباح وعليه جميع بشائر النقاهة .

قال ريو : ــ إذا وقعت حالات أخرى ، فأخبرني .

واتصل بعدد آخر من الأطباء . فعرف من هذا التحقيق زهاء عشرين حالة مماثلة في بضعة أيام . وكانت جميعها تقريباً مميتة . وقد طلب إذ ذاك إلى ريشار، أمين سر نقابة أطباء وهران، عزل المرضى الجدد ، فقال ريشار:

ــ ولكني لا أستطيع أن أعمل شيئاً . إن الأمر يقتضي تدابير من مركز المتارية . ثم من قال لك إن هناك خطر العدوى ؟

ــ لا شيء ينبىء بذلك . ولكن العوارض تدعو إلى القلق .

على أن ريشار كان يعتبر نفسه « غير ذي صلاحية ». وقصارى ما يمكن أن يعمله ، كان أن يحدث في ذلك محافظ المدينة .

ولكن الجوّ ساء ، فيما كان هذا الحديث يدور . ففي اليوم الذي تلا موت البواب ، غشيت السماء غيوم كثيفة ، وما لبث وابل من مطر أن أطبق على المدينة . وتبعت هذه الموجات المفاجئة حرارة عاصفية . وحتى

البحر نفسه فَقَدَ لونه الازرق العميق ، وراح يتلون تحت السماء الغائمة بألوان فضة أو حديد موجعة للنظر . وتمنّى الناس في حرارة هذا الربيع الرطبة وهجَ الصيف . واستولى خمود كئيب على المدينة المبنية حلزونياً في سهلها ، المنفتحة بعض الشيء للبحر . وبين جدرانها الطويلة الملاطية ، وعَبْرَ الطرق ذات الواجهات المغبرّة ، وفي الترامات المصفرّة القذرة ، كان المرء يشعر وكأنه أسير السماء . ومريض ريو وحده هو الذي قهر ربوه لينعم بهذا الجوّ . وكان يقول :

— إنه يحرق ويكوي . وهذا حسنٌ لشُعَب الرئتين .

والواقع أنه كان يكوي ، ولكن لا أقل ولا أكثر من الحمى . فالمدينة كلها محمومة . هذا على الأقل هو الشعور الذي كان يلاحق الدكتور ريو إذ اتجه في الصباح إلى شارع فيدهيرب ليحضر التحقيق في محاولة انتحار كوتار . على أن هذا الشعور كان يبدو له غير صائب . وقد عزاه إلى ثورة الاعصاب وإلى الشواغل التي أرهقته ، وأقرّ أنّ عليه فوراً تنظيم أفكاره .

وحين وصل ، لم يكن المفوض قد أقبل بعد . وكان غران ينتظر على السطيحة ، وقد عزما على الدخول أولاً إلى غرفته تاركيْن الباب مفتوحاً . وكان عامل المختارية يقيم في غرفتين مؤثثتين ببساطة . على أنه كان ثمة رفّ من الخشب الأبيض يزينه قاموسان أو ثلاثة ، ولوح أسود يستطيع الرائي أن يقرأ عليه بعدُ كلمتين تكادان تكونان ممحوتين : « ممرات مزهرة ». وبشهادة غران، كان كوتار قد أمضى ليلة طيبة . ولكنه استيقظ في الصباح وهو يشكو الصداع ويبدو عاجزاً عن أيّ ردّ فعل . وكان يبدو على غران التعب والعصبية ، وكان يرود الغرفة جيئة وذهاباً ، ويفتح ويغلق على الطاولة اضبارة ضخمة مليئة بالاوراق المخطوطة .

على أنه روى للطبيب أن معرفته بكوتار لم تكن عميقة ، ولكنه يحسب أنه كان يملك مبلغاً صغيراً من المال ، وأن كوتار كانّ رجلاً غريباً ، وقد اقتصرت علاقتهما وقتاً طويلا على تبادل التحية في السلم .

ــ لم أحدّثه إلاّ مرتين. فمنذ بضعة أيام ، سقطت من يدي على السطيحة علبة طباشير كنت عائداً بها إلى البيت ، وكان فيها طبشور أحمر وطبشور أزرق . وفي تلك اللحظة خرج كوتار فأعانني على التقاطها . وسألني عما عساي أفعل بهذه الطباشير المختلفة الالوان .

فشرح له غران حينذاك أنه يحاول أن يدرس اللاتينية من جديد . فان معلوماته منذ ترك الليسيه قد ضعفت . وقال للطبيب :

ــأجل. لقد أكدوا لي أن ذلك كان مفيداً لتعمّق معنى الكلمات الفرنسية.

وإذن ، فقد كان يكتب كلمات لاتينية على لوحه ، وكان ينقل بالطبشور الأزرق القسم الذي يتغيّر من الكلمات وفقاً لتصريف الاسماء والضمائر ولتصريف الافعال، وبالطبشور الاحمر القسم الذي لايتغيّر مطلقاً.

ــ لا أدري إذا كان كوتار قد فهم جيداً ، ولكن بدا عليه أنه مهتمّ ، وطلب إليّ طبشورة حمراء . فدهشت بعض الشيء .. ولكن ما كان لي أن أحدس ، على أي حال ، بأنّ ذلك سيعينه على تحقيق مشروعه ...

وسأله ريو عن موضوع المحادثة الثانية . ولكن المفوض وصل حينذاك مع أمين سرّه ، وعبر عن رغبته في الاستماع أولاً إلى إفادة غران . ولاحظ الطبيب أن غران كان يدعو دائماً كوتار ، وهو يتحدث عنه بـ « اليائس» ، بل إنه استعمل ذات لحظة عبارة « القرار الذي لم يكن منه مفرّ ». وتناقشوا في الباعث على الانتحار ، فبدا أن غران يتلمّس اختيار العبارات تلمّساً . وتوقفوا أخيراً عند عبارة « الاحزان الخاصة » . وسأل المفوض عما إذا لم يكن ثمة شيء في وضع كوتار ينبىء بما كان يسميه «عزمه ». فقال غران :

– لقد طرق أمس بابي وطلب مني أعواد ثقاب . فأعطيته علبتي ، فاعتذر وقال لي إنه ... بين الجيران ... ثم أكد لي أنه سيعيد لي علبتي ، فقلت له أن يحتفظ بها .

وسأل المفوض العامل عما إذا لم يبد له كوتار غريباً .

– ما بدا لي غريباً ، رغبتُه ، على ما خيل إليّ ، في أن يدير معي الحديث . ولكني كنت منهمكاً في العمل .

والتفت غران إلى ريو وقال بارتباك :

– عمل شخصي .

على أن المفوض كان راغباً في رؤية المريض . ولكن ريو فكر في أن من الأفضل إعداد كوتار لهذه الزيارة . وحين دخل الغرفة ، انتصب هذا الأخير في سريره ، وكان يرتدي قميصاً من « الفلانيل » الرماديّ فحسب ، والتفت إلى الباب في تعبير قلق :

– إنها الشرطة ، أليس كذلك ؟

قال ريو – نعم ، ولكن لا تضطرب . أمران أو ثلاثة أمور شكلية ، وتستعيد طمأنينتك .

ولكن كوتار أجاب بأن ذلك لا فائدة منه ، وأنه لا يحب رجال الشرطة. فبدا على ريو نفاد الصبر :

– وأنا أيضاً لا أعبدهم . كل ما هناك أنّ عليك أن تجيب على أسئلتهم بسرعة وبدقة ، ثم ينتهي الامر .

وصمت كوتار ، فانفتل الطبيب نحو الباب . ولكن الرجل القصير ما لبث أن ناداه وأخذ بيديه حين دنا من السرير :

ـ لا يمكن أن يمسّوا مريضاً ، رجلاً شنق نفسه، اليس كذلك يادكتور ؟

فتأمله ريو لحظة ، وطمأنه أخيراً بأن الأمر لا يحتمل شيئاً من ذلك إطلاقاً ، وأنه إنما وُجد هناك ليحمي مريضه . فبدا على هذا الانبساط ، وهنا أدخل ريو المفوض .

وقرئت على كوتار إفادة غران ، وسئل عما إذا كان بوسعه أن يوضح بواعث عمله . فاجتزأ بأن قال ، من غير أن ينظر إلى المفوض ، بأن عبارة « أحزان خاصّة » كانت جيدة جداً . فاستعجله المفوّض أن يقول ما إذا كان ينوي العودة إلى مثلها ، فتحمّس كوتار وأجاب نفياً، وقال إنه يرغب فقط أن يُترك في سلام .

فقال المفوض بلهجة مغيظة :

ـ أودّ أن تلاحظ أنك في هذه اللحظة، أنت الذي تعكّر سلام الآخرين.

ونزولاً عند اشارة من ريو ، لم يتعدّ الامر هذا الحد .

وقال المفوض وهو خارج :

ـ ما تظن ... إن أمامنا شواغل أخرى ينبغي أن نلاحقها ... منذ بدأ الحديث عن هذه الحمى ...

وسأله الطبيب عما إذا كانت القضية ذات خطر ، فقال ريو إنه لايدري. وختم المفوض بقوله :

ـ إنه الجوّ . هذا كل شيء .

وقد كان الجوّ دون ريب . كان كل شيء يتّسخ في اليد ويلزج ما تقدّم النهار ، وكان ريو يشعر بخوفه يتفاقم لدى كل زيارة . وفي مساء هذا اليوم نفسه ، كان جارٌ للشيخ المريض في الضواحي يضغط على أربيّاته

ويقيء في وسط هذيانه . وقد كانت غدده أكبر حجماً من غدد البواب . وقد بدأت إحداها تصدِّ[1] وما لبثت أن انفتحت كثمرة فاسدة . وحين عاد ريو إلى بيته خابر مستودع أدوية المقاطعة . وتذكر ملاحظاته المهنية في ذلك التاريخ هذه العبارة فقط « جواب سلبي ». وما لبث أن دُعي إلى مكان آخر لحالات مشابهة ، وكان لابد من شق الدمامل : ضربتا مبضع متعارضتان تدفق الغدد إثرهما مزيجاً من القيح والدم . وهكذا كان المرضى ينزفون معذّبين ، ولكن كانت تظهر على البطن والفخذين بقُع مسودّة ، وتكفّ دملة عن اخراج صديدها ، ثم تنتفخ من جديد . وكان المريض غالباً ما يموت ، في رائحة مريعة .

وانقطعت الصحف عن التحدث بشيء ، هي التي بالغت في التحدث بحكايات الجرذان . ذلك أن الجرذان كانت تموت في الشوارع ، والناس في غرفهم . وإن الصحف لا تهتم إلا بالشارع . ولكن المحافظة والبلدية بدأتا تتساءلان . والواقع أن أحداً لم يفكر في أن يتحرك ، مادام كل طبيب لم يقف إلا على حادثتين أو ثلاث . ولكن كان حسب أحدهم أن يفكر بجمع الارقام حتى يذعر وينبهت . ولم تكد بضعة أيام تمضي حتى تضاعف عدد الموتى ، فبات واضحاً للذين يهتمون بهذا الشر الغريب أن في الأمر وباء حقيقياً . وهذه هي اللحظة التي اختارها كاستل لزيارة ريو ، وهو زميل أكبر منه سناً . وقد قال له :

ــ عرفت بالطبع ياريو أيّ وباء نحن فيه ؟

ــ إنني انتظر نتيجة التحليلات .

ــ أما أنا ، فأعرفها . ولا حاجة لي بالتحليلات . لقد مارست فترة

(١) تخرج الصديد .

من مهنتي في الصين ، ورأيت بعض الحالات في باريس منذ زهاء عشرين سنة . ولكن لم يجرؤ أحدٌ على تسميتها في ذلك الوقت . إن الرأي العام شيء مقدّس ، ولا ينبغي إثارة الاضطراب فيه . ثم إن زميلاً كان يقول : « هذا مستحيل . الجميع يعرفون أنه اختفى من الغرب». أجل ، كل الناس يعرفون ذلك . ما خلا الاموات . حَسْبُكَ ياريو ! إنك تعرف مثلي تماماً أي وباء نحن فيه !

كان ريو يفكر . وأخذ يتطلع من نافذة عيادته إلى كتف الجرف الصخريّ الذي كان ينطوي بعيداً على الخليج . وبالرغم من أن السماء كانت زرقاء، فقد كانت ذات اكفهرار يرقّ رويداً رويداً ما اقترب المساء . وقال ريو :

ــ نعم يا كاستل . يكاد الأمر لا يُصدّق . ولكن يبدو واضحاً أنه الطاعون .

ونهض كاستل واتجه نحو الباب وهو يقول :

ــ إنك تعرف أنهم سيجيبوننا : « لقد اختفى من البلاد المعتدلة المناخ منذ أعوام ».

فهزّ ريو كتفيه وهو يقول :

ــ ماذا تعني كلمة اختفى ؟

ــ أجل، ثم لا تنس هذا : لقد اختفى من باريس أيضاً منذ عشرين عاماً .

ــ حسناً . نرجو ألاّ يكون اليوم أخطر مما كان في الأمس . ولكن هذا حقاً لا يُصدّق .

لُفظت كلمة « طاعون » للمرة الأولى . وعند هذا الحدّ من القصة الذي يترك برنارريو خلف نافذته ، ليُسمح للراوي بأن يُبرّر دهشة الطبيب وعدم تيقّنه، لأن رجع فعله لم يكن يختلف كثيراً عن ارجاع معظم مواطنينا. والواقع أن البلايا هي شيء شائع ، ولكنك تصدّقها بصعوبة حين تسقط على رأسك . لقد عرف العالم من الطواعين ما عرف من الحروب . ومع ذلك فان الطواعين والحروب تفجأ الناس دائماً . وقد فوجيء الدكتور ريو كسائر مواطنينا ، ومن هذه الزاوية ينبغي أن تفهم شكوكه وتردّده . ومن هذه الزاوية أيضاً ينبغي ان يُفهم كيف كان مقسّماً بين القلق والثقة . حين تنشب حرب ما يقول الناس : «إنها لن تدوم طويلاً ، فهذا أمر مفرط في السخف» ولا ريب في أن حرباً ما هي أمرٌ مفرط في السخف، ولكن ذلك لا يمنعها من أن تدوم. إن السخف يلحّ دائماً، وهذا شيء يسيرٌ ملاحظته إذا لم يفكر الانسان دائماً في نفسه . وقد كان مواطنونا في هذا الصدد كجميع الناس : كانوا يفكرون في أنفسهم ، وبعبارة أخرى كانوا إنسانيين : إنهم لم يكونوا يؤمنون بالبلايا. إن البلية ليست في مقدور الانسان ، ومن أجل ذلك يقول المرء لنفسه إن البلية غير حقيقية ، إنها حلم مزعج سيمرّ . ولكنه لا يمرّ دائماً ، ومن حلم مزعج إلى حلم مزعج ، يمر الناس أنفسهم ، والانسانيون بالدرجة الأولى، لأنهم لم يتخذوا حيطتهم . ولم يكن مواطنونا أشد ذنباً من سواهم ، فكل ما في الأمر أنهم كانوا ينسون أن يكونوا متواضعين ، وكانوا يفكرون أن كل شيء ما برح ممكناً في نظرهم ، وهذا ما يفرض أن البلايا كانت مستحيلة.

وإذن فقد كانوا يتابعون أعمالهم التجارية ، ويُعدّون الاسفار ، وكانت لهم آراؤهم . وأنّى لهم أن يفكروا بالطاعون الذي يُلغي المستقبل والتنقلات والمناقشات ؟ لقد كانوا يعتقدون أنهم أحرار ، ولن يكون أحدٌ حراً ما دامت ثمة بلايا .

وحتى بعد أن اعترف الدكتور ريو أمام صديقه بأن حفنةً من المرضى المتمرّقين قد ماتوا بالطاعون ، من غير إنذار ، فان الخطر في رأيه ظلّ غير حقيقي . إذا كان المرء طبيباً ، كوّن بكل بساطة رأياً عن الألم ، وكان أوسع خيالاً من سواه . وإذ نظر الطبيب من النافذة إلى بلدته التي لم تتغير ، شعر بتقزّز خفيف ازاء المستقبل الذي يسمونه قلقاً . وكان يحاول أن يجمع في فكره ما يعرفه عن هذا المرض . وكانت هناك أرقام تطفو في ذاكرته ، فيقول لنفسه إن الطواعين الثلاثين الكبرى التي عرفها التاريخ قد كبّدت البشرية زهاء مئة مليون نسمة . ولكن ما مئة مليون نسمة ؟ إن من يشترك في الحرب لا يكاد يعرف ما عسى يعنيه رجلٌ ميت . ولما لم يكن للرجل الميت أي وزن إلا حين يُرى ميتاً ، فان مئة مليون جثة منتثرة عَبْرَ التاريخ ليست إلاّ دخاناً في المخيلة . وكان الدكتور يتذكر طاعون القسطنطينية الذي ذهب ضحيته في يوم واحد ، على ما يقول بروكوب ، عشرة آلاف شخص. وعشرة آلاف ميت تؤلف خمسة أضعاف عدد الحضور في دار كبيرة للسينما . إن ما ينبغي عمله هو هذا : يُحشد الناس عند مخارج خمس دور للسينما ، ويُقادون إلى ساحة في المدينة ، فيُعمد إلى إماتتهم بالجملة ، وإذ ذاك يتضح الأمر بعض الشيء . سيكون بالامكان على الاقل وضع وجوه معروفة على هذا الركام المغفل . على أن ذلك مستحيل التحقيق طبعاً ، ثم من ذا الذي يعرف عشرة آلاف وجه ؟والواقع ، من جهة أخرى ، أن أشخاصاً كبروكوب لم يكونوا يحسنون العدّ . والأمر المعروف منذ سبعين عاماً ، كان أربعون

الف جرذٍ قد ماتت في كانتون من جراء الطاعون، قبل أن يهتمّ البلاء بالسكان. ولكن لم يكونوا عام ١٨٧١ يملكون وسيلة لتعداد الجرذان ، فانما كانوا يُجرون الحساب جُملةً على وجه التقريب بحظوظٍ لا شك فيها من الخطأ . ومع ذلك ، فاذا كان طول جرذٍ ما ثلاثين سنتيمتراً ، فان أربعين ألف جرذٍ ، إذا صُفت رأساً إلى ذنب ، يبلغ طولها ...

بيد أن صبر الدكتور كاد ينفد . فقد كان يترك لنفسه العنان ، وما كان ينبغي له . إن بضع حالات لا تشكل وباء، ويكفي أن تتخذ الإحتياطات. كان ينبغي الاقتصار على ما يُعرف من الانذهال والاجهاد المضني ، والعيون الحمر ، والفم القذر ، وصداع الرأس ، والدمامل ، والعطش المريع ، والهذيان ، والبُقع في الجسم ، والتمزّق الداخلي ، وفي نهاية هذا كله ... في نهاية هذا كله يستعيد الدكتور ريو عبارة تُنهي في كتابه تعدادَ عوارض المرض : « ويصبح النبض ضعيفاً جداً ، ويحدث الموت لدى أية حركة تافهة ». نعم ، في نهاية هذا كله ، يُعلّق المرء بخيط ، ويبدو ثلاثة أرباع الناس ، وهذا هو الرقم الصحيح ، قد عيل صبرهم لإتيان هذه الحركة التافهة التي كانت تجهز عليهم .

وظل الطبيب ينظر من النافذة . ومن إحدى ناحيتي الزجاج ، كانت ثمة سماء الربيع الرطبة ، ومن الناحية الأخرى ، كانت الكلمة التي ما فتئت تُصدي بها الغرفة : الطاعون. ولم تكن الكلمة تنطوي فقط على المعنى الذي كان العلم يريد أن يضعه فيها، وإنما كذلك على سلسلة طويلة من الصور العجيبة التي لم تكن تتلاءم مع هذه المدينة الصفراء والرمادية التي كانت الحياة فيها تلك الساعة ناشطة باعتدال ، مدندنة أكثر منها صاخبة ، سعيدة بالاجمال ، إذا كان من الممكن أن تجتمع السعادة والكآبة في وقت واحد . وإن هدوءاً في مثل هذه السكينة واللامبالاة ليُنكر دون ما جهد تقريباً صور الوباء القديمة : أثينا مطعونةً قد هجرها الطير ، والمدن الصينية غاصّة بالمحتضرين

الصامتين ، ومحكومي مرسيليا المؤبّدين مراكمين في الحفر الاجسادَ التي تقطر دماً ، وبناء الجدار العظيم الذي نُصب في البروفنس لوقف ريح الطاعون الغاضبة ، ويافا وشحاذيها الكريهين ، والأسرّة الرطبة العفنة الملتصقة بأرض مستشفى القسطنطينية ، والمرضى المسحوبين بالكلاليب ، وكرنفال الاطباء المقنّعين في أثناء « الطاعون الاسود »، وجِماع الاحياء في مقابر ميلانو ، وعربات الأموات في لندن المذعــورة ، والليالي والأيام مملوءة دائماً وفي كل مكان بصرخة البشر التي لا تنتهي . كلا : إن هذا كله لم يكن بعد من القوة بحيث يقتل أمْن هذا النهار . ومن الناحية الأخرى من الزجاج ، يدق فجأة جرسُ ترام غير مرئي فينقض القسوة والألم في لحظة. ولم يكن إلا البحر وحده عند رقعة البيوت الحائلة ، ليشهد بما في الدنيا من مُقلق وغير مستقرّ أبداً . ويفكر الدكتور ريو ، وهو ينظر إلى الخليج ، بأكوام الحطب ، هذه التي يتحدث عنها لوكريس ، والتي كان الأثينيون المطعونون يرفعونها أمام البحر . كان الاموات يُحملون اليها في الليل ، ولكن المكان كان يضيق بهم ، فيتقاتل الأحياء بالمشاعل ليفسحوا مكاناً لمن هو عزيز عليهم،مؤثرين خوض صراع دموي على أن يتخلّوا عن جثثهم . ولم يكن من الصعب تصوّر الابتّالات المحمّرة أمام الماء الهادىء المظلم ، ومعارك المشاعل في الليل الزافر بالشرارات وبالأبخرة الكثيفة المسمّمة المتصاعدة نحو السماء المتنبهة . وقد كان يُخشى أن ...

ولكن هذا الدوار لم يكن يتماسك أمام العقل . فمن الصحيح أن كلمة « طاعون » قد لُفظت ومن الصحيح أن الوباء كان يهزّ في الدقيقة نفسها ضحية أو ضحيتين فيرمي بهما أرضاً..ولكن هذا كان يمكن أن يكفّ . وما كان ينبغي عمله ، إنما هو الاعتراف الصريح بما كان ينبغي أن يُعترف به: طرد الاشباح التي لا طائل تحتها واتخاذ التدابير الملائمة . وبعد ذلك ، يقف الطاعون ، لأن الطاعون لم يكن يتصوّر نفسه ، أو أنه كان يتصوّرها على

خطأ . فاذا كان سيقف ، وهذا هو الأرجح ، فان الامور إلى صلاح . وأما في الحالة المعاكسة ، فسيُعرف ما هو الطاعون ، وما إذا لم يكن ثمة سبيل إلى تدبُّر أمره أولاً من أجل قهره بعد ذلك .

وفتح الطبيب النافذة ، فطغت ضجة المدينة دفعة واحدة . وكان يرتفع من مصنع مجاور صفيرٌ متكرر جافّ لمنشار آلي . واهتزّ ريو . هناك كان الاطمئنان واليقين ، في عمل كل يوم . أما الباقي فانه عالقٌ بخيوط وحركات لا معنى لها ، فلا يمكن التوقف عندها . فالمهمّ أن يُجيد المرء عمله .

كان الدكتور ريو عند هذا الحدّ من أفكاره ، حين بلغه مجيء جوزيف غران . وبالرغم من أنه موظف في دار المختارية وأن شواغله فيها متعدّدة ، فقد كان يُستخدم بين حين وآخر في دائرة الاحصاءات للاحوال المدنية . وهكذا كان عليه أن يحصي الوفيات ، وقد وافق على أن يحمل هو نفسه إلى ريو نسخة من نتائجه .

ورآه الطبيب داخلاً عليه وبصحبته جاره كوتار . وأخرج الموظف ورقة وأعلن :

ـ إن الأرقام ترتفع يا دكتور : أحد عشر ميتاً في ثمانٍ وأربعين ساعة.

وسلّم ريو على كوتار وسأله عن صحته ، فأوضح غران أن كوتار كان حريصاً على أن يشكر الطبيب ، ويعتذر عما سبّبه له من ازعاج . ولكن ريو كان ينظر إلى ورقة الاحصاءات ، وقال :

ـ لقد آن أن نسمّي هذا المرض باسمه . فقد كنا حتى الآن نتلمّسه تلمساً . ولكن تعالا معي ، فان عليّ أن أقصد المختبر .

وقال غران وهو يهبط السلم في إثر الطبيب :

ـ نعم ، نعم . يجب أن نسمي الأشياء بأسمائها . ولكن ماهو هذا الاسم ؟

ـ لا أستطيع أن أقوله لك . ثم إنه لا فائدة لك من ذلك .

فابتسم الموظف وقال :

ـ أترى إذن ؟ ليس الأمر بمثل هذه السهولة !

راتجها نحو « ساحة الأسلحة » . وظل كوتار ملتزماً الصمت .وبدأت الشوارع تمتلىء بالناس ، وأخذ الشفق الهارب في بلدتنا يتراجع أمام الليل ، وظهرت النجوم الأولى في الأفق الذي ما يزال صافياً . وبعد لحظات أضيئت المصابيح فوق الشوارع ، فاسودّت منها السماء كلها وارتفعت ضجة الأحاديث قليلاً . وقال غران وهو في ركن من « ساحة الأساحة » :

ـ أعذرني . ينبغي أن أستقلّ تـُرامي . إن لياليّ مقدّسة،وكما يقولون في بلدتي « لا تؤجّل إلى الغد ...».

وكان ريو قد لاحظ هـَوَس غران ذاك ، وهو من مواليد مونتيليمار ، في أن يستشهد بتعابير بلدته ، وأن يضيف اليها بعد ذلك عبارات تافهة لا تنتمي إلى أي بلد أمثال « جوّ حالم » أو « إضاءة جنيـّة » . وقال كوتار :

ـ آه ، هذا صحيح . فليس بالامكان انتزاعه من بيته بعد العشاء .

وسأل ريو غران عما إذا كان يعمل لحساب المختارية ، فأجاب غران نفياً ، وأنه يعمل لحسابه .

وتابع ريو سؤاله ، ليقول شيئاً ما :

ـ وهل هناك تقدُّم ؟

ـ بالضرورة ، بعد سنوات وسنوات من العمل ، بالرغم من أن التقدم ضئيل .

فسأله الطبيب وقد توقـّف :

– ماهو هذا العمل في الحقيقة ؟

فدندن غران بسرعة وهو يُحكم قبعته المستديرة على أذنيه الكبيرتين . وفهم ريو بغموض شديد أن هناك شيئاً ما حول انطلاق إحدى الشخصيات. ولكن الموظف كان قد تركهما واتجه بخطى سريعة إلى جادّة المارن ، تحت أشجار التين. وعند عتبة المختبر قال كوتار للطبيب إن بودّه أن يراه ليستنصحه . وكان ريو يدعك في جيبه لائحة الاحصاءات ، فدعاه إلى أن يقصد عيادته، ثم استدرك فقال له إنه سيقصد حيّه في اليوم التالي ، وأنه سيُلمّ ببيته عند المساء .

وحين ترك الطبيب كوتار ، لاحظ أنه يفكر بغران . وكان يتصوره وسط طاعون ، ليس هو هذا الطاعون الذي لن يكون ، من غير شك ، ذا خطر كبير ، وإنما هو أحد طواعين التاريخ الكبرى . « إنه من الفئات الانسانية التي توفّرها تلك الحالات ». وتذكر أنه قرأ أن الطاعون كان يوفر أصحاب الأجسام الضعيفة ويهدم خاصةً الأجسام القوية . واستمر الطبيب يفكر بالموظف حتى بدا له أن شخصيته لا تخلو من غموض .

والحق أن جوزيف غران لم يكن لأول نظرة، إلا ذلك الموظف الصغير في المختارية ، بمشيته المعهودة . وهو طويل هزيل ، يطفو وسط ثيابه التي كان يختارها واسعة أكثر مما ينبغي دائماً ، توهّماً منه أنها تخدمه وقتاً أطول. وهو إن كان لا يزال يحتفظ بمعظم أسنانه في لثته السفلى ، فقد فَقَدَ أسنان فكّه الأعلى . وكانت بسمته ترفع شفته العليا خاصة ، فيبدو فمه كانه فم شبح . ولئن أضفنا إلى هذه الصورة مشية طالب أكليركي ، وفنّ مماشاة الجدران والانزلاق في الابواب ، ورائحة قبو ودخان ، وجميع مظاهر التفاهة ، فلا بد من الاعتراف بأنه ليس بالامكان تصوّره إلا أمام مكتب ، مستغرقاً في مراجعة تعريفة حمامات المدينة أو في مساعدة محرّر شاب على

جمع عناصر تقرير يتعلق بالضريبة الجديدة على نقل الأقذار البيتية . لكأنه، حتى في نظر انسان خالي الذهن ، إنما وُلد ليمارس مهام المساعد البلدي براتب اثنين وستين فرنكاً ونصفاً في اليوم، تلك المهام الضرورية على خفائها.

والواقع أن تلك هي الاشارة التي كان يقول إنه يضعها على أوراق الخدمة ، بعد كلمة « الأهلية ...» . فمنذ اثنين وعشرين عاماً حال عوزه المادي بينه وبين أن ينال شهادة الليسانس، فقبل هذه الوظيفة بعد أن وعدوه، على حد قوله ، بأن يجعلوه سريعاً « صاحب حق مكتسب ». وإنما كان عليه أن يقدم ، في ردح من الزمن ، أدلة كفاءته في القضايا الدقيقة التي كانت تطرحها إدارة مدينتنا . وقد أكدوا له أنه لن يفوته بعد ذلك منصب محرر يمكن له أن يعيش في بحبوحة . ولا ريب في أن هذا المطمع لم يكن هو الذي يدفع جوزيف غران للعمل والجد ، فقد كان يكفل نفسه في هذا الصدد وهو يبتسم بكآبة ، وإنما احتمال تحقيق حياة مادية مضمونة بوسائل شريفة ، ومن ثم امكان انصرافه دون ما ندم إلى شواغله الأثيرة ، هما اللذان كانا يبسمان له كثيراً . ولئن كان قد قبل العرض الذي قُدم له ، فانما ذلك بدافع من أسباب مشرفة ، ومن إخلاص لمثل أعلى ، إذا جاز التعبير .

وكانت قد مرت سنوات طوال دون أن تتغير هذه الحال المؤقتة . وقد ارتفعت تكاليف الحياة ارتفاعاً لا يحده منطق ، ومع ذلك فان راتب غران ظل مضحكاً بالرغم من بعض العلاوات العامة . وكان قد شكا أمره من ذلك إلى ريو ، ولكن أحداً لم يبدُ عليه الاهتمام بذلك . وهنا يظهر طابع غرابة غران ، أو إحدى سماته على الأقل . فالحق أنه كان بوسعه المطالبة بالتأكيدات التي أعطيت له ، إن لم نقل بالحقوق التي لم يكن واثقاً منها . ولكن رئيس المكتب الذي تعاقد معه قد مات أولا منذ وقت طويل ، ثم إن الموظف بات لا يذكر جيداً النصوص الصحيحة للوعد الذي أعطي له . وأخيراً ، وخصوصاً ، لم يكن جوزيف غران يجد كلماته .

وهذه الخاصة الفريدة هي التي تصوّر – خير ما تصوّر – مواطننا ، كما أتيح لريو أن يلاحظ . فالواقع أنها هي التي كانت تمنعه دائماً من أن أن يكتب رسالة المطالبة بالحقوق التي كان يفكر بها ، أو أن يتخذ الخطوة التي كانت تمليها الظروف . وإذا شئنا أن نصدّقه ، فقد كان يشعر أنه ممتنع امتناعاً خاصاً عن استعمال كلمة « حق » الذي لم يكن واثقاً منه ، ولا كلمة « وعود » التي كانت تقتضيه المطالبة بحقه فتكتسب إذ ذاك طابعاً من الجرأة لا يتلاءم كثيراً مع تواضع الاعمال التي يشغلها . وكان يمتنع من جهة أخرى عن استعمال تعابير « تلطّف » و « التماس » و « عرفان » لاعتقاده أنها لا تتوافق وكرامته الشخصية . وهكذا تابع مواطننا ، لأنه لم يجد الكلمة المناسبة ، ممارسة أعماله الغامضة حتى سنّ متأخرة . ثم أنه لاحظ ، وفقاً لما قاله للدكتور ريو أيضاً ، أن حياته المادية كانت مؤمنة على أي حال ، ما دام يكفيه بعد كل شيء أن يطبّق حاجاته على موارده . وهكذا اعترف بصحة إحدى كلمات المختار ، وهو أحد كبار صناعي مدينتنا ، الذي كان يؤكد بقوة أنه آخر الأمر (ويُلحّ على هذه الكلمة التي كانت تحمل عبء الحجة كله) آخر الأمر إذن ، لم يحدث أن مات أحدٌ من الجوع . وعلى أي حال ، فان حياة الزهد التي كان يسوقها جوزيف غران قد حرّرته آخر الأمر ، في الواقع ، من أي هم من هذا الطراز . وهو ما فتىء يبحث عن كلماته .

وبالامكان القول ، على نحو من الانحاء ، أن حياته كانت مثالية . كان من أولئك الرجال النادر وجودهم في مدينتنا وفي أي مكان آخر ، الذين يملكون دائماً شجاعة عواطفهم الطيبة . والواقع أن القليل الذي كان يُسرّ به يدلّ على ألوان من الطيبة والتعلّق لا يجرؤ أحدٌ على إعلانها في أيامنا . فهو لم يكن يحمّر خجلاً من الاعتراف بأنه كان يحب أخته وابناءها ، وهي القريبة الوحيدة التي بقيت له والتي يذهب إلى زيارتها في فرنسا كل عامين . وكان يعترف

بأن ذكرى والديه اللذين ماتا وهو صبيّ بعدُ كانت تشقّ عليه وتحزنه . ولم يكن يرفض الاقرار بأنه كان يحبّ فوق كل شيء جرساً من أجراس حيّه يدقّ بلطف حوالي الساعة الخامسة مساء . على أن أقل كلمة لوصف مثل هذه الاحاسيس البسيطة الساذجة ، كانت تكلّفه الف مشقّة ، وكان لا بدّ لهذه الصعوبة آخر الأمر من أن تستأثر باهتمامه ، فتوجّه إلى الطبيب يقول : « آه يا دكتور ، بودّي لو أتعلم كيف أعبّر عن أفكاري ». وكان يحدّث ريو في ذلك كلما التقى به .

وذلك المساء ، حين رأى الطبيبُ الموظف يذهب ، أدرك فجأة ما كان يقصده غران : كان يكتب دون ريب كتاباً أو شيئاً من هذا القبيل . وهذا ما اطمأن له ريو حتى داخل المختبر الذي قصد اليه أخيراً . كان يعرف أن هذا الاحساس كان بليداً ، ولكنه لم يكن يستطيع الاعتقاد بأن الطاعون أمكنه أن ينتشر حقاً في مدينة يوجد فيها موظفون متواضعون يُغذّون نزعات مشرّفة . وهو في الحق لا يتصور مكاناً لهذه النزعات وسط الطاعون ، فينتهي به الحكم إلى أن الطاعون ليس له ــ عملياً ــ أي مستقبل بين ظهرانيْ مواطنينا .

في اليوم التالي دُعي ريو ، بعد إلحاح قيل إنه في غير مكانه ، إلى ترؤس لجنة صحية في دار المحافظة . وقد اعترف ريشار بأنّ :

– السكان قلقون ، ثم ان الثرثرات تضخّم كل شيء . لقد قال لي المحافظ : « ينبغي ان نسرع في العمل ، ولكن في صمت » . والحق انه مقتنع بأن في القضية خطراً وهمياً .

وصحب برنار ريو كاستل في سيارته واتجها الى دار المحافظة . فقال له هذا الاخير :

– هل تعرف ان المقاطعة لا تملك مصلاً ؟

– اعرف ذلك . فقد خابرت المستودع ، ودهش المدير دهشة عظيمة . ينبغي إحضار المصل من باريس .

– ارجو الا يستغرق ذلك وقتاً طويلاً .

فأجاب ريو : – لقد ابرقت في ذلك .

وكان المحافظ ودوداً ، غير أنه عصبيّ . وقد قال :

– لنبدأ ايها السادة . هل عليّ ان الخّص الموقف ؟

ففكر ريشار بأنه لافائدة من ذلك . فالاطباء كانوا يعرفون الوضع ،وانما كانت القضية معرفة التدابير التي يحسن اتخاذها . وقال كاستل الشيخ بقسوة :

– القضية هي معرفة ما اذا كان هو الطاعون ام لا .

فندّت صرخةٌ ثاقبة من ثلاثة اطباء ، بينما بدا على الآخرين التردّد . اما المحافظ فانتفض ملتفتاً بصورة آلية الى الباب كأنما ليتأكد من انه حال دون انتشار هذه الكلمة الفظيعة في الممرات . وصرّح ريشار انه لا ينبغي في رأيه الاستسلام للذعر : فالقضية قضية حمىّ ذات تعقيدات أربية ، وهذا قصارى ما يمكن قوله ، نظراً إلى أن الافتراضات في العلم ، كما في الحياة ، هي دائماً خطرة . وكان كاستل الشيخ يمضغ بهدوء شاربه المصفرّ ، فرفع إذ ذاك عينيه الصافيتين إلى ريو ، ثم أنحى إلى الحضور نظراً رفيقاً وأبدى ملاحظة بأنه يعرف جيداً أنه الطاعون ، ولكن الاعتراف به رسمياً كان يقتضي بالطبع اتخاذ تدابير لا هوادة فيها . كان يعرف أن هذا في الحقيقة هو ما جعل زملاءه يتراجعون ، وهو ، من ثمّ ، كان يريد الاقرار بأنه لم يكن الطاعون ، من أجل طمأنينتهم . وقد اضطرب المحافظ وصرح بأن هذه على أية حال ليست طريقة صالحة للمحاجّة والمحاكمة العقلية . فقال كاستل :

– ليس المهم أن تكون هذه الطريقة للمحاجّة صالحة ، وإنما ان تدعو إلى التفكير .

ولما ظلّ ريو صامتاً ، فقد سئل رأيه ، فقال :

– إنها حمّى ذات طابع تيفوئيديّ ولكن تصحبها دمامل وقيء . ولقد شرطتُ الدمامل ، فتمكنت من الحصول على تحاليل يبدو أن المختبر اكتشف فيها قصيمة الطاعون المكتّلة . على أنه ينبغي القول – تتمة للبحث – أن بعض تغيّرات الجرثوم المميّزة لا تنطبق على الوصف الكلاسيكي .

ولاحظ ريشار أن هذا ما يبرّر بعض الشكوك وأنه كان ينبغي على الأقل انتظار النتيجة الاحصائية لسلسلة التحاليل التي بدئت منذ بضعة أيام . فقال ريو بعد صمت قصير :

ـ حين يكون في طاقة جرثوم ما أن يضاعف حجم الطحال أربعة أضعاف في غضون ثلاثة أيام ، وأن يُعطى الغُدد المساريقية حجم البرتقالة وكثافة الحساء ، فهو لا يبرّر في الحق أيّة شكوك . إن بؤر الالتهاب تتسع باطراد . وإذا لم يوضع حدّ للوباء ، فهو يوشك ، بانتشاره على هذا الشكل ، أن يُهلك نصف سكان المدينة قبل مضيّ شهرين . وعلى ذلك ، يبقى سيّان أن تسمّوه طاعوناً أو حمّى متفاقمة . فالمهمّ فقط أن تحولوا بينها وبين أن تقتل نصف المدينة .

وكان رأي ريشار أنه ينبغي عدم الإفراط في التشاؤم ، وأن العدوى من جهة أخرى لم يُدلل عليها ، نظراً إلى أن أهل مرضاه قد سلموا حتى الآن من الوباء .

فلاحظ ريو : ـ ولكنّ آخرين قد ماتوا . والعدوى بالطبع ليست أبداً مطلقة ، وإلاّ حدثت زيادة حسابية لا نهاية لها وإفناء بشري صاعق . فليس في الأمر إفراط في التشاؤم ، وإنما ينبغي اتخاذ الحيطة والحذر .

على أن ريشار حسب أنه يلخّص الموقف إذا ذكّر بأنّ وقف هذا الوباء ، إن لم يقف من تلقاء نفسه ، يقتضي تطبيق تدابير وقائية خطيرة ينصّ عليها القانون ، وأنه من أجل ذلك ينبغي الاعتراف رسمياً بأنه الطاعون ، وأن اليقين في هذا الصدد ليس مطلقاً ، وعليه فان الأمر يحتاج إلى تفكير .

فألحّ ريو بقوله :

ـ ليست القضية معرفة ما إذا كانت التدابير المنصوص عليها خطيرة ، وإنما إذا كانت ضرورية للحيلولة دون قتل نصف المدينة . وأما الباقي فمن اختصاص الادارة ، والواقع أن شرائعنا نصت على إقامة محافظ للبتّ في هذه الأمور .

فقال المحافظ :

ـ لا شك في ذلك . ولكني احتاج إلى أن تعترفوا رسمياً بأنه وباء طاعون.

قال ريو :

ـ إن لم نعترف به، فانه موشك مع ذلك على أن يُهلك نصف المدينة .

فتدخّل ريشار ببعض العصبية :

ـ الحقيقة أن زميلنا واثق من أنه الطاعون. يثبت ذلك تصويره للأعراض.

فأجاب ربو بأنه لم يصوّر أعراضاً ، وإنما صوّر ما رآه . وقد كان ما رآه دمامل وبقعاً وحميات هاذية ، تقتل في ثمان وأربعين ساعة . فهل يتحمل السيد ريشار تبعة التأكيد بأن الوباء سيتوقف دون ما تدابير وقائية حازمة ؟

فتردد ريشار ونظر إلى ريو :

ـ أتريد أن تصارحني برأيك ؟ هل أنت على يقين من أنه الطاعون ؟.

ـ إنك تسيء طرح المسألة . فليست هي قضية مفردات لغوية . وإنما هي قضية وقت .

فقال المحافظ : ـ إن رأيك هو أن التدابير الوقائية التي تُفرض في زمن الطاعون ، حتى ولو لم يكن هناك طاعون ، ينبغي أن تطبّق ...

ـ إذا كان لا بد من ذكر رأيي ، فانه في الواقع هذا .

وتشاور الاطباء فانتهى ريشار إلى القول :

ـ ينبغي إذاً أن نتحمل تبعة التصرّف كما لو أنّ الوباء كان طاعوناً .

فتمّت الموافقة على الصيغة بحرارة . وسأل ريشار ريو :

ـ أليس هو رأيك أيضاً يا زميلي العزيز ؟

فقال ريو : — إن الصيغة لديّ سواء . لنقل فقط إنه ينبغي ألاّ نتصرف كما لو أن نصف المدينة ليست موشكة على الهلاك ، لأنها في هذه الحالة تكون كذلك .

ووسط الانزعاج العام ، خرج ريو . وبعد بضع لحظات ، كان في الضاحية التي تتصاعد منها رائحة المقليات والبول ، امرأة تصيح صيحات الموت ، وقد دَميتْ أربيّاتها ، فالتفتت إلى ريو .

وغداة يوم الاجتماع ، قفزت الحمى قفزة صغيرة أخرى . بل هي قد تسللت إلى الصحف ولكن بشكل طفيف ، إذ أن الصحف اجتزأت ببعض الاشارات اليها . على أن ريو استطاع في اليوم التالي أن يقرأ اعلانات صغيرة بيضاء ألصقتها المحافظة بسرعة في أشد زوايا المدينة خفاء . وكان من العسير أن يُستخلص من هذا الاعلان أن السلطات كانت تواجه الموقف بصراحة . فان التدابير لم تكن حازمة ، وكان يبدو أن الرغبة في عدم إقلاق الرأي العام قد ضُحّي من أجلها بشيء كثير . وقد كان بدء البلاغ يعلن في الواقع أن بضع حالات من حمّى مؤذية ، ليس بالاستطاعة بعدُ معرفة ما إذا كانت مُعدية ، قد ظهرت في مقاطعة وهران . ولم تتميّز هذه الحالات تميُّزاً يجعلها مُقلقةً حقاً، وليس من شك في أن السكان سيعرفون أن يحتفظوا برباطة جأشهم . على أن المحافظ قد اتخذ بعض التدابير الوقائية ، بدافع من الحكمة يمكن للجميع أن يفهموه . فاذا فهمت هذه التدابير وطُبقت كما ينبغي ، فان من شأنها أن تقف حالاً كل تهديد بانتشار الوباء . وبناء على ذلك ، فان المحافظ لا يشكّ لحظة في أن رعاياه سيضمّون إلى جهده الشخصي أخلص معونتهم .

وكان البلاغ يعلن بعد ذلك تدابير جماعية بينها مكافحة الجرذان مكافحة علمية بحقن البواليع بالغازات السامة وبمراقبة التغذية بالماء مراقبة شديدة . وكان يوصي السكان بأكثر حظوظ النظافة وينتهي بدعوة المبرغثين إلى

المستوصفات البلدية المجانية . وعلى الأسر ، من ناحية أخرى ، أن تصرّح عن الحالات التي شخّصها الطبيب وتوافق على عزل مرضاها في قاعات المستشفى الخاصة . والواقع أن هذه القاعات كانت معدّة للعناية بالمرضى في أقل وقت ممكن وأكبر حظوظ ممكنة للشفاء . وكانت بعض البنود الإضافية تنص على إخضاع غرفة المريض وعربة النقل للتطهير الاجباري . وكان البلاغ يقتصر أخيراً على توصية الاقرباء بأن يخضعوا لمراقبة صحية .

وانصرف الدكتور ريو فجأة عن البلاغ وسلك الطريق المؤدي إلى عيادته . وكان جوزيف غران في انتظاره ، وحين رآه رفع ذراعيه من جديد . فقال ريو :

ــ نعم ، أعرف أن الأرقام ترتفع .

وكان عشرة مرضى قد انهاروا في المدينة عشية الأمس . وقال الطبيب لغران إنه ربما رآه مساءً نظراً إلى أنه سيقوم بزيارة كوتار . فقال غران :

ــ أنت على حق ، وحسناً ما تصنع ، لأني رأيته قد تغيّر .

ــ وكيف ذلك ؟

ــ لقد أصبح مؤدباً .

ــ أو لم يكن من قبل كذلك ؟

فتردد غران . إنه لم يكن يستطيع أن يقول إن كوتار كان غير مؤدّب ، فهذا قول غير صحيح . لقد كان رجلاً منغلقاً صموتاً تشبه مشيته مشية الخنزير الوحشي . وكانت حياته كلها مقصورةً على غرفته وعلى التردد إلى مطعم متواضع والخروج بصورة على قدرٍ كافٍ من الخفاء. وكان عمله الرسمي أنه وكيل بيع الخمور والمشروبات . وكان يتقبل بين حين وآخر زيارة شخصين أو ثلاثة لا بد أنهم زبائنه . وفي المساء كان يقصد أحياناً دار السينما

القائمة تجاه المنزل . بل إن العامل قد لاحظ أن كوتار كان يؤثر أفلام المجرمين واللصوص . وفي جميع المناسبات ، كان الوكيل يظل منعزلاً حذراً . على أن غران يحسب أن كل ذلك قد تغيّر :

– لا أدري ما أقول ، ولكني أشعر أنه يسعى إلى مصالحة الناس ، وأنه يود تألّف جميع الناس . فهو غالباً ما يحدثني ويعرض عليّ أن أخرج معه ولا يسعني دائماً أن أرفض . ثم أن أمره يعنيني ، وأنا ، بالاجمال ، قد أنقذت حياته .

ومنذ أن حاول كوتار الانتحار ، انقطع الناس عن زيارته . وكان يلتمس في الشوارع ولدى الباعة جميع مظاهر الودّ ، ولم يسبق لإنسان أن تحدث إلى السمّانة بمثل هذه الرقّة والعذوبة ، أو كان حفياً حفاوة كوتار بالاستماع إلى بائعة التبغ . وقال غران ، ملاحظاً :

– ولكن بائعة التبغ هذه افعى حقيقيّة . وقد قلت ذلك لكوتار ، ولكنه أجابني بأني مخطيء ، وانّ لديها جوانب طيّبة ينبغي ان نعرف كيف نجدها .

وقد صحب كوتار غران مرتين او ثلاثاً الى المطاعم ومقاهي المدينة الباذخة . والواقع أنه كان قد بدأ يتردّد اليها ويقول :

– يشعر المرء فيها بالراحة ، ويصطحب اليها مَنْ تروق صحبتهم .

وكان غران قد لاحظ العناية الخاصة التي كان المستخدمون يولونها وكيل بيع الخمور ، فأدرك السبب بملاحظة المبالغ الاضافية الضخمة التي كان يتركها لهم ، وكان يبدو أن كوتار شديد التأثر لمظاهر الحب التي كان يُقَابل بها . وذات يوم صحبه رئيس الخدم وأعانه على ارتداء معطفه ، فقال كوتار لغران معلقاً :

– إنه فتى طيب ، وبوسعه أن يشهد ...

— يشهد بماذا ؟

فتردد كوتار ثم قال :

— بأنني لست إنساناً رديئاً .

على أن مزاجه كان يتغير أحياناً . فقد حدث أن السمّان كان ذات يوم أقلّ وداً من المعتاد ، فعاد كوتار إلى منزله في حالة من الغضب تتجاوز حدودها المعقولة ، وأخذ يردد :

— إنّ هذا اللئيم ينضمّ إلى الآخرين .

— أيّ آخرين ؟

— جميع الآخرين .

بل إن غران قد شهد حادثة غريبة عند بائعة التبغ . ففي أثناء حديث حارّ ، تطرقت البائعة إلى ذكر اعتقال عامل تجاري في الجزائر كان قد قتل عربياً على أحد الشواطىء ، فأثار اعتقاله ضجة في المدينة . وقد قالت البائعة معلقة :

— لو وُضعت هذه الطغمة كلها في السجن،لاستطاع الناس الشرفاء أن يتنفسوا .

ولكنها اضطرت إلى قطع حديثها أمام اضطراب كوتار المفاجيء الذي أسرع بالخروج دون كلمة اعتذار، فظل غران والبائعة فاغرين من الدهشة وهما ينظران اليه هارباً .

وما لبث غران أن نوّه لريو بتغيّرات أخرى في طباع كوتار . فقد كان هذا الأخير صاحب آراء ليبرالية تعبّر عنها عبارته « الكبار يأكلون الصغار دائماً » . ولكنه منذ حين ، بات لا يبتاع إلا صحيفة وهران الرصينة، بل لم يكن ثمة سبيل إلى الامتناع عن الاعتقاد بأنه كان يتباهى بقراءتها في الاماكن العامة . ومثل ذلك أنه ، بعد بضعة أيام من نهوضه ، رجا غران

الذي كان قاصداً مركز البريد أن يرسل باسمه حوالة بريدية بمئة فرنك كان يبعثها كل شهر إلى أخت له بعيدة . ولكن في اللحظة التي كان غران يوشك فيها على الخروج ، طلب اليه كوتار أن :

ـ ارسل لها مئتي فرنك ، فستكون هذه مفاجأة سارة لها . إنها تظن أني لا أفكر فيها مطلقاً ، والحقيقة أني أحبها كثيراً .

وأخيراً ، جرى بينه وبين غران حوار غريب . فقد اضطر غران إلى الاجابة على أسئلة كوتار الذي بدا مشغول الفكر بما كان يعمله غران كل مساء . وقد قال كوتار :

ـ حسناً ، إنك تؤلف كتاباً .

ـ ليكن ذلك ، ولكن الأمر أعقد من هذا .

فصاح كوتار :

ـ بودّي كثيراً لو أفعل مثلك .

فبدا على غران أنه فوجىء ، وتمتم كوتار بأنّ مما يسهّل كثيراً من الأمور أن يكون المرء فناناً . فسأله غران :

ـ ولماذا ؟

ـ لأن الفنان يملك من الحقوق أكثر من سواه ، وهذا ما يعرفه الجميع ، فهو ينعم بامتيازات أوفر .

وصباح يوم تعليق البلاغ ، قال ريو لغران :

ـ الحقيقة أن حكاية الجرذان قد صدعت فكره كجميع الناس . هذا كل شيء . أو لعلّه يخشى الحمّى .

فأجاب غران :

ـ لا أظن ذلك يا دكتور ، ولو أردت رأيي ...

وفي تلك اللحظة مرت تحت نافذتهم سيارة مكافحة الجرذان بضجيج علبة الانفلات . فصمت ريو حتى أمكنه أن يُسمع صوته ، وسأل الموظف رأيه بشرود . فنظر اليه الآخر باهتمام وقال :

ــ إنه رجل يأخذ على نفسه بعض الأمور .

فرفع الطبيب كتفيه . لقد كان هناك، كما قال المفوض ، شواغل أخرى للملاحقة .

واجتمع ريو بعد الظهر بكاستل . وكان قد تأخر وصول الامصال، فتساءل ريو :

ــ ولكن أتراها ستكون مفيدة ؟ إنّ هذه الجرثومة لغريبة .

فقال كاستل :

ــ أوه ، لست من رأيك. إن لهذه الحيوانات دائماً هيئة الجدّة والإبتكار. ولكنها في الحقيقة شيء واحد متشابه .

ــ هذا ما تفترضه على الأقل . أما الحقيقة ، فهي أننا لا نعرف من ذلك شيئاً .

ــ طبعاً أفرضه . ولكن الجميع من رأيي .

وفي أثناء النهار ، شعر الطبيب بأن الدوار الطفيف الذي كان يأخذه كلما فكر بالطاعون بدأ يتفاقم . واعترف أخيراً بأنه كان خائفاً . ودخل مرتين إلى مقاهٍ تغص بالناس . كان هو أيضاً يشعر بحاجة إلى حرارة إنسانية. وقد وجد ريوً هذا أمراً بليداً ، ولكن ذلك أعانه على أن يتذكر بأنه وعد الوكيل بزيارته .

وعند المساء ، الفى الطبيب كوتار أمام طاولته في غرفة الطعام . وإذ دخل ، وجد على الطاولة رواية بوليسية مفتوحة . ولكن المساء كان قد تقدّم ، ولا ريب في أن القراءة كانت تصعب في الظلام الزاحف . ولعل كوتار كان منذ دقائق جالساً يفكر في الظلام . وقد سأله ريو عن حاله ،

فتمتم كوتار وهو يجلس أن صحته حسنة ، وأنها ستتحسن لو أنه يستطيع أن يوقن بأن أحداً لا يهتم به ، فأجاب ريو بأنه ليس في طاقة المرء أن يظل دائماً وحيداً .

– أوه ! لم أقصد ذلك . إنني أتحدث عن الأشخاص الذين يهتمّون بأن يجلبوا لك الهموم .

فصمت ريو .

– ولكن لاحظ أن هذا ليس وضعي . غير أنني كنت أقرأ هذه الرواية. هذا مسكين يُعتقل فجأة ذات صباح . فاذا الناس يهتمون به دون أن يفهم من الأمر شيئاً . كانوا يتكلمون عنه في المكاتب ، ويسجلون اسمه على بطاقات . أتجد هذا شيئاً عادلاً ؟ أتجد أن من الحق أن يُعامل انسان هذه المعاملة ؟

فقال ريو :

– إن للامر وجوهاً عدة . فمن إحدى الزوايا ، لا حقّ لهم بذلك على الاطلاق . ولكن هذا كله شيء ثانوي . ينبغي ألاّ تظل منطوياً على نفسك وقتاً أطول مما ينبغي . يجب أن تخرج .

فبدا أن أعصاب كوتار تثور ، وقال إنه لم يكن يفعل إلا ذلك ، وأن الحيّ كلّه على استعداد للشهادة عند اللزوم . وحتى خارج الحي ، فان العلاقات لا تعوزه .

– هل تعرف المعمار المهندس السيد ريغو ؟ إنه من أصدقائي .

وكان الظلام يتكاثف في القاعة . وكان شارع الضاحية يزداد حيوية . وحين أضيئت المصابيح استُقبلتْ في الخارج بصيحة عزاء صمّاء . وخرج ريو إلى الشرفة فتبعه كوتار . كانت ثمة نسمة تحمل من جميع الاحياء المجاورة تمتمات ورائحة لحم مشوي ، ودمدمة الحرية الفرحة التي كانت

تملأ الشارع الغاصّ بالشباب الصاخب . إن صرخات السفن التي لا تُرى ، والضجيج الذي يرسله البحر ، والجموع المتدفقة في الليل ، هذه الساعة التي كان ريو يعرفها جيداً ويحبّها ، تبدو له اليوم ضاغطة بسبب كل ما يعرفه. وقد قال لكوتار :

– هل نستطيع أن نضيء المصباح ؟

وحين عاد النور ، نظر اليه الرجل القصير بعينين ترفّان :

– قل لي يا دكتور ، إذا سقطت مريضاً ، فهل تأخذني إلى المستشفى تحت رعايتك ؟

– ولِمَ لا ؟

فسأله كوتار حينذاك عما إذا كان قد حدث أن قُبض على شخص موجود في عيادة أو مستشفى . فأجاب ريو إنّ هذا قد وقع ، وإنما يتوقف كل شيء على حالة المريض . فقال كوتار :

– ولكنني ، أنا ، أثق بك .

ثم سأل الطبيب أن يأخذه بسيارته إلى المدينة .

وفي وسط المدينة ، كان عدد المارّة قد قلّ ، والانوار قد ندرت . وكان بعض الاطفال لا يزالون يلعبون أمام الأبواب . وأوقف الطبيب سيارته ، حين طلب اليه كوتار ، أمام جمع من هؤلاء الاطفال كانوا يلعبون لعبة « حجر الرِّجل » ويصرخون . ولكن أحدهم ، وكان ذا شعر أسود ملتصق مفروق بعناية ، ووجهه قذر ، أخذ يحدق في ريو بعينيه الصافيتين المُفزِعتين . وصرف الطبيب عنه بصره ، ولكن كوتار صافحه بعد أن هبط إلى الرصيف ، ثم تحدث الـوكيل بصوت خشن ، والتفت وراءه مرتين او ثلاثاً :

– إن الناس يتحدثون عن الوباء ، فهل هذا صحيح يا دكتور ؟

فقال ريو – : إن الناس يتحدثون دائماً ، وهذا طبيعي .

– إنك على حق . فما أن يعدّ الناس عشرة أموات ، حتى يكون ذلك في رأيهم أيذاناً بنهاية العالم . ليس هذا هو الذي نحتاجه .

وكان المحرّك قد بدأ يخرّ ، ويد ريو على مفتاح السرعة . ولكنه جعل ينظر مرة أخرى إلى الصبي الذي لم ينقطع عن التطلع اليه بنظره الرصين الهادىء . وفجأة ، ودون ما انتقال ، ابتسم له الصبي عن جميع أسنانه. وسأل ريو وهو يبتسم للصبي :

– وما الذي نحتاجه ؟

فأمسك كوتار فجأة بباب السيارة ، وصاح ، قبل أن يختفي، بصوت تملأه الدموع والغضب :

– هزة أرضية ، هزة أرضية حقيقيّة !

ولم تحدث هزة ارضية ، وقضى ريو اليوم التالي في زيارات طويلة في أربعة اركان المدينة كلها ، وفي مشاورات مع أسر المرضى ومناقشات مع المرضى انفسهم . ولم يُحسّ قبل الآن بأن مهنته ثقيلة الى هذا الحد . فقد كان المرضى حتى الآن يسهّلون مهمته اذ يستسلمون له . اما الآن فهو يرى للمرة الاولى انهم يعصونه، ويحتمون بأعماق مرضهم في نوعٍ من الاستغراب الحَذِر. كان صراعاً لم يتعوّده بعد . واذ وقفت سيارته في الساعة العاشرة مساء امام بيت العجوز المبهور الذي يزوره كآخر زبون ، وجد بعض المشقة في ان ينتزع نفسه من مقعده . وتلبث لحظات يتأمل الشارع المظلم والنجوم التي كانت تظهر وتختفي في السماء السوداء .

كان العجوز المبهور منتصباً في سريره، وقد بدا ان تنفّسه قد تحسّن ، وكان يَعُدّ حبّات الحمّص وينقلها من قدر الى اخرى . واستقبل الطبيب فَرِحاً :

– إذن ، فهي الكوليرا يا دكتور ؟

ـ من قال لك ذلك ؟

ـ قرأته في الجريدة ، وقد اذاعه الراديو ايضاً .

ـ لا . ليستْ هي الكوليرا .

فقال العجوز وقد اهتاج كثيراً :

ـ على اي حال .. إن الرؤوس الضخمة تذهب في ذلك بعيداً .. اليس كذلك ؟

فقال الطبيب : ـ لا تصدّق شيئاً مما يقولون .

وكان قد فحص العجوز ، وها هو ذا الآن جالس وسط قاعة الطعام هذه البائسة . أجل ، كان خائفاً . كان يعلم ان في الضاحية نفسها عشرة مرضى سينتظرونه صباح الغد ، منحنين فوق دماملهم . وكان شقّ الدمامل، في حالتين او ثلاث فقط ، قد ادّى الى تحسُّن . اما معظم الباقين ، فان المستشفى ينتظرهم ، وقد كان يعرف ما يعني المستشفى بالنسبة للفقراء . « لا اريد ان يُستخدم في تجاربهم » : هذا ما قالته له امرأة احد المرضى . إنه لن يُستخدم في التجارب ، ولكنه سيموت ، وهذا كل ما يحدث . وكانت التدابير المتخذة غير كافية ، هذا شيء لا ريب فيه . اما القاعات « المجهّزة خصيصاً » فقد كان يعرفها : جناحان أُخليا بسرعة مــن مرضاهما الآخرين ، نوافذهما مسدودة باللّباد ، مُحاطة بشريط صحي . الحق أنه اذا لم يتوقف الوباء من تلقاء نفسه ، فلن تقهره التدابير التي تخيلتها الإدارة .

على ان البلاغات الرسمية التي نشرت في المساء ، ظلت على لهجة متفائلة . واذاعت وكالة رانسدوك ، في اليوم التالي ، ان تدابير المحافظة قد قوبلت بهدوء ، وان حوالي ثلاثين من المرضى قد صرّحوا عن انفسهم حتى الآن . وكان كاستل قد تلفن لريو :

ـ كم عدد الأسرّة في الجناحين ؟

– ثمانون .

– هناك دون شك اكثر من ثلاثين مريضاً في المدينة ؟

– هناك الذين يخافون، وهناك الآخرون ، وهم الاكثر عدداً ، الذين لم يتح لهم الوقت بعد .

– والدفن ، ألا يراقبونه ؟

– لا . لقد خابرت ريشار بضرورة اتخاذ تدابير كاملة ، لا الاكتفاء بالعبارات ، وان من الواجب ان يُنصب في وجه الوباء حاجز حقيقي او لا شيء على الاطلاق .

– وماذا حدث بعد ذلك ؟

– اجابني انه لاسلطة لديه . واعتقد ان الارقام سترتفع ٥

والواقع ان الجناحين امتلأا في غضون ثلاثة ايام . ونُمي الى ريشار انهم سيطهرون مدرسة ، وينوون فتح مستشفى اضافي . وكان ريو ينتظر الامصال ويشق الدمامل . وكان كاستل يعود الى كتبه القديمة ويقف وقفات طويلة في المكتبة . وقد انتهى الى القول :

– لقد ماتت الجرذان بالطاعون أو بوباء يشبهه كثيراً . ولكنها وضعت في التداول عشرات الآلاف من البراغيث التي تنقل العدوى وتتزايد وفقاً لنسبة هندسية ، اذا لم توقف .

وكان ريو صامتاً .

وفي تلك الحقبة بـدا أن الزمن يتوقّف . وكانت الشمس تمتصّ امطار الاحواض الأخيرة . وفاضت السماء بنور اصفر جميل ، وأزّت الطائرات في الحرارة النامية ، وكان كل شيء في الفصل يدعو الى الطمأنينة . ولكن الحمى قامت في اربعة ايام بأربع قفزات مفاجئة : ستة عشر ميتاً ، اربعة وعشرون ،

ثمانية وعشرون ، اثنان وثلاثون . واعلن في اليوم الرابع نبأ فتح المستشفى الاضافي في مدرسة للحضانة . وقد بدا مواطنونا الذين كانوا قد مضوا حتى ذلك الحين في اخفاء قلقهم تحت قناع المزاح – بـدوا في الشوارع اشد إحباطاً واكثر صمتاً . وعزم ريو على ان يتصل بالمحافظ :

– إن التدابير غير كافية .

فقال المحافظ – : إن الارقام بين يدي ، وهي تدعو حقاً الى القلق .

– بل هي تدعو الى اكثر من القلق . انها شديدة الوضوح .

– سأطلب اوامر عاجلة من الحكومة العامة .

و علق ريو التلفون بحضور كاستل :

– اوامر ! ولا بدّ ايضاً من خيال واسع .

– والامصال ؟

– ستصل في اثناء الاسبوع .

وطلبت المحافظة من ريو ، بواسطة ريشار ، تقريراً لإرساله الى عاصمة المستعمره طلباً لأوامر . وقد ضمّنه ريو وصفاً للمرضى وارقاماً . وفي اليوم نفسه بلغ عدد الوفيات حوالي اربعين . وتعهّد المحافظ ، كما قال ، بأن يشدّد منذ اليوم التالي على التدابير الواجبة . فألح بضرورة اعلان التصريح عن المرضى وعزلهم واغلاق بيوت المصابين وتطهيرها وإقامة اقرباء المرضى في محجر صحي وتنظيم الدفن في المدينة بشروط تعلن فيما بعد . وفي اليوم التالي وصلت الامصال بالطائرة ، وكـان يمكن ان تكفي للاصابات التي تُعالج ، ولكنها لا تكفي اذا تفاقم انتشار الوباء . وقد جاء الجواب على برقية ريو بأن مخزون الوقاية قد نفد ، وانه بوشر بصنع كمية جديدة .

وفي هذه الاثناء كان الربيع يصل الى الاسواق من جميع الضواحي المجاورة .

وكانت الوف الورود تذبل في سلال الباعة على الارصفة ، فيطفو عطرها الحلو في المدينة كلها . ولم يكن شيء متغيراً في الظاهر . فقد كانت الترامات غاصّة بالركاب دائماً في ساعات الكثافة ، فارغة قذرة في اثناء النهار . وكان تارو يراقب الشيخ الصغير ، والشيخ الصغير يبصق على القطط . وكان غران يعود كل مساء الى منزله ليقوم بعمله الخفيّ ، وكوتار يستدير حول نفسه ، والمسيو اوتون ، قاضي التحقيق ، يشرف دائماً على معرضه للوحوش. وظل العجوز المبهور ينقل الحمص من قدر الى قدر ، وكان الصحفي رامبير يُرى احياناً بهدوئه واهتمامه . فاذا اقبل المساء ، امتلأت الشوارع بالجمع نفسه وامتدّت الصفوف امام دور السينما . ثم انه يظهر ان الوباء قد بدأ يتراجع ، ففي عدة ايام لم تقع الا عشر وفيات تقريباً . على ان الوباء ما لبث ان تفاقم فجأة . وفي اليوم الذي بلغ فيه عدد الوفيات الثلاثين من جديد ، نظر برنار ريو الى البرقية الرسمية التي بسطها امامه المحافظ وهو يقول : « انهم خائفون» وكانت البرقية تحمل هذه العبارة « أعلنوا حالة الطاعون . أقفلوا المدينة » .

٢

يمكن القول إن الطاعون اصبح ، ابتداء من تلك اللحظة ، قضيتنا جميعاً . فحتى ذلك الحين ، كان كل مواطن من مواطنينا ، بالرغم مما حملته له هذه الاحداث الفريدة من مفاجأة وقلق ، يتابع شواغله كما يستطيع في مكانه المعتاد. وكان مقدّراً لهذا ان يستمر دون ريب لولا ان الابواب أُغلقت ، فأدرك الناس انهم جميعاً ، بما فيهم الراوي نفسه ، أصبحوا متساوين ، وينبغي ان يتدبروا أمرهم . وهكذا اصبح ، على حين غرّة ، شعور فردي كشعور الانفصال عن كائن حبيب ، شعورَ شعب بكامله ، منذ الاسابيع الاولى ، ومع الخوف ، الألم الرئيسي الذي يحمله زمن هذا النفي الطويل .

والواقع ان احدى النتائج الأكثر بروزاً لإغلاق الابواب كانت الانفصال المفاجئ بين كائنات لم تُعَدّ لهذا الانفصال. فأمهات واولاد وازواج وعشّاق كانوا قد حسبوا منذ ايام انهم مقبلون على انفصال موقت ، فتعانقوا على رصيف محطتنا وتبادلوا توصيتين او ثلاثاً ، واثقين من انهم سيلتقون بعد بضعة ايام أو بضعة اسابيع ، غارقين في الثقة الانسانية البليدة ، يكاد هذا الرحيل لايصرفهم عن شواغلهم المعتادة ، كل اولئك الفوا انفسهم فجأة مبتعدين بلا أمل ، محرومين من اللقاء أو الاتصال . ذلك ان الإغلاق قد تم بضع ساعات قبل نشر البلاغ ، وكان من المستحيل طبعاً أخذ الحالات الخاصة بعين الاعتبار . ويمكن القول ان النتيجة الاولى لهذه الغارة الوبائية الوحشية

انها قسرت مواطنينا على ان يتصرفوا كما لو انهم كانوا خالين من العواطف الفردية . ففي الساعات الاولى من النهار الذي دخل فيه القرار حيّز التنفيذ هجم على المحافظة جمهور من المطالبين الذين كانوا يعرضون عن طريق التلفون أو لدى الموظفين حالات جديرة كلها بالاهتمام ، ولكنها كلها في الوقت نفسه مستحيلة على الفحص . والحقيقة أننا احتجنا الى بضعة ايام لندرك اننا كنا في وضع لا يحتمل التسوية ، وان كلمات « تساهل » و « حظوة » و « استثناء » قد فقدت معناها .

وحتى لذة الكتابة البسيطة قد حُرمت علينا . والواقع ان المدينة ، من جهة ، باتت مقطوعة عن سائر البلاد من حيث المواصلات العادية ، ونُشر قرار جديد ، من جهة اخرى ، يحرّم تبادل اي مراسلات ، خوفاً من ان تصبح الرسائل وسائل لنقل العدوى . وقد استطاع بعض المحظوظين في البدء ان يتفاوضوا امام ابواب المدينة مع جنود من مراكز الحرس وافقوا على على إمرار رسائل الى الخارج . وقد حدث ذلك في الأيام الاولى من الوباء ، في وقت وجد فيه الحرس من الطبيعي ان يستسلموا لبوادر رأفة واشفاق . ولكن بعد حين من الزمن ، عندما اقتنع هؤلاء الحرس انفسهم بخطورة الموقف ، رفضوا ان يتحملوا مسؤوليات لا يستطيعون ان يقدروا مداها . وكانت المواصلات التلفونية الداخلية مسموحاً بها في البدء ، ولكنها ما لبثت ان أدّت الى تزاحم شديد في الغرف التلفونية العمومية وعلى الخطوط ، مما أفضى الى قطعها بضعة ايام ، ثم قُصرت بقسوة على ما سُمّي « بالحالات المستعجلة» كالموت والولادة والزواج . وهكذا بقيت البرقيات ملجأنا الوحيد . وانتهى الامر بكائنات تربط بينها روابط التفاهم والعاطفة والجسد الى ان تلتمس دلائل هذا الاتحاد القديم في احرف برقية من عشر كلمات . ولما كانت النصوص التي يمكن استعمالها في برقية سريعاً ما تستنفد ، فقد كانت حيوات

طويلةٌ مشتركة أو عواطف مؤلمة تختصر سريعاً في تبادل دوري لِصيَغٍ جاهزة من مثل : « صحة جيّدة . افكر فيك . اشواق » .

على ان بعضا منا كانوا يصرون على الكتابة ولا ينون يختلقون ، للاتصال بالخارج ، حيلاً لا تلبث طويلاً حتى تبدو وهمية . وحتى لو كانت بعض الوسائل التي تخيلناها قد نجحت ، فاننا لم نكن نعرف من ذلك شيئاً ، اذ انها لم تتلق اجوبة . وطوال اسابيع ، قصرنا اهتمامنا على ان نعيد الرسالة نفسها ، وان ننقل من جديد النداءات نفسها ، حتى ان الكلمات التي كانت تخرج اول الامر وهي تقطر من قلوبنا ، لم تلبث ان فرغت من معانيها . فكنّا اذ ذاك ننقلها آلياً ، محاولين ان نعطي بواسطة هذه العبارات الميتة امارات عن حياتنا الشاقّة . وانتهى بنا الأمر الى ايثار نداء البرقية الاصطلاحي على هذا المونولوج العنيد العقيم وعلى هذه المحادثة القاحلة مع جدار .

ثم انه بعد بضعة ايام ، حين أصبح واضحاً ان احداً لن يستطيع الخروج من مدينتنا ، فكّر بعضنا في ان يسأل عما اذا كان سيُسمح بعودة الذين كانوا قد خرجوا قبل الوباء . وأجابت المحافظة بعد بضعة أيام من التفكير بالايجاب . ولكنها أوضحت ان الذين سيُعادون لن يستطيعوا في أي حال ان يخرجوا من المدينة مرة اخرى ، وأنهم إذا كانوا أحراراً في العودة ، فليسوا أحراراً في الخروج ثانية . وهنا ايضاً استهانت بعض الأسر بالموقف ، وغلّبت على كل حكمة رغبتها في رؤية ذويها فدعتهم الى الافادة من هذه الفرصة . ولكن لم يلبث الذين كانوا سجناء الطاعون ان ادركوا الخطر الذي يُعرّضون له اقاربهم ، وعزموا على ان يتحملوا عذاب الفراق . وفي أخطر اوقات الوباء ، لم تقع الا حادثة واحدة كانت فيها العواطف الانسانية اقوى من الخوف من موت معذّب . ولم تكن ، كما قد يُتوقع ، حادثة حبيبين أطلق الحب احدهما نحو

الآخر ، هازئاً بالألم ، وانما هي تتعلق بالطبيب الشيخ كاستل وامرأته ، وكانا متزوّجين منذ سنوات عديدة . فقبل حلول الوباء ببضعة أيام ، كانت السيدة كاستل قد قصدت مدينة مجاورة . ولم يكن هذان الزوجان من اولئك الازواج الذين يقدمون للناس مـثـل سعادة نموذجية ، بل ان بوسع الراوي ان يقول إنهما على الارجح لم يكونا واثقين من انهما سعيدان في حياتهما الزوجية . ولكن هذا الفراق القاسي الطويل مكنّن لهما ان يتأكدا من انهما لا يطيقان ان يعيشا متباعدين ، وأن الطاعون كان امراً يسيراً إزاء هـــذه الحتميقة التي تجلـّت فجأة .

كان هذا امراً استثنائياً . فإن الفراق في معظم الحالات لم يكن له أن ينتهي الا مع الوباء. وبالنسبة الينا جميعاً ، فان العاطفة التي تنسج حياتنا والتي كنـّا نحسب اننا نعرفها حق المعرفة (فللوهرانيين كما قيل من قبل عواطف بسيطة) كانت تتخذ وجهاً جديداً . فقد اكتشف ازواج وعشّاق كانوا يثقون اعظم الثقة ببعضهم انهم غيارى ، واستعاد رجال كانوا يحسبون انهم طائشون في الحب ثباتاً واستمراراً ، ووضع ابناء عاشوا بالقرب من امهاتهم دون ان يهتموا بهنّ ، كل قلقهم وندمهم في ثنية من وجوههن التي كانت تراود ذكرياتهم . إن هذا الفراق الفظّ الذي لا يمكن التنبوء بمستقبله كان يدعـنا قلقين مضطربين عاجزين عن مقاومة ذكرى هذا الحضور القريب البعيد الذي يشغل الآن كل ايامنا . والواقع اننا كنّا نتألم مرتين ، ألمنا اولاً ، وثانياً الألم الذي كنّا نتصوّره للغائبين من أبناء وزوجات وحبيبات .

وقد كان بوسع مواطنينا في ظروف اخرى ان يجدوا لهم مخرجاً في حياة اكثر خارجية ونشاطاً . ولكن الطاعون كان في الوقت نفسه يدعهم عاطلين ، قاصرين حياتهم على ان يطوفوا في مدينتهم الكئيبة وان يستسلموا يوماً بعد يوم للُعب الذكرى المخيّبة . ذلك انهم كانوا مسوقين ، في نزهاتهم التي لا محجة لها ، الى ان يسلكوا دائماً الطرق نفسها ، وان هذه الطرق ، في مثل هذه

المدينة الصغيرة ، كانت غالب الأحيان هي تلك التي اجتازوها ، في فترة سابقة ، مع الغائب .

وهكذا كان أول ما حمله الطاعون لمواطنينا هو النفي . وإن الراوي لمقتنع بأنه يستطيع أن يكتب هنا ، باسم الجميع ، ما شعر به هو نفسه آنذاك، ما دام قد شعر به مع كثير من مواطنينا. أجل، فقد كان حقاً هو شعور النفي ، هذا الفراغ الذي كنّا نحمله أبداً في نفوسنا ، هذا الانفعال الواضح ، الرغبة الضالّة في العودة إلى الوراء أو بالعكس في استعجال سير الزمن ، هذه السهام المحرقة ، سهام الذاكرة . ولئن كنا نستسلم أحياناً للخيال وكان يلذّنا أن نترقب دقة جرس العودة أو وقع قدم نعرفها على الدرج ، ولئن كنا في تلك اللحظات نرضى بأن ننسى أن القطارات كانت مجمّدة ، ولئن كنا نتدبّر أمرنا لنبقى في بيوتنا في الساعة التي يستطيع فيها مسافرٌ يُقلّه القطار السريع أن يدخل إلى حيّنا ، في الأحوال الطبيعية ، فان هذه اللعب ما كان لهزأن تدوم طويلاً . فقد كان لا بدّ من أن تأتي لحظة نلاحظ فيها بوضوح أن القطارات لم تكن لتصل ، فندرك حينذاك أن فراقنا مكتوبٌ له أن يدوم، وأنّ علينا أن نتدبّر أمرنا مع الزمن . ومنذ ذلك الحين ، كنّا نتلبّس، بالاجمال، وضعنا كسجناء، فنعيش في ماضينا . ولئن راود الإغراء بعضنا بأن يعيشوا في المستقبل، فسرعان ما يعدلون عن ذلك ، مادام هذا في إمكانهم على الأقل ، إذ يشعرون بالجراحات التي يُلحقها الخيال بمن يثقون به .

وبصورة خاصة، فان جميع مواطنينا قد حرموا أنفسهم سريعاً، حتى بين الناس ، من العادة التي كان قد أمكنهم اكتسابها بتقدير مدة افتراقهم . ولماذا؟ذلك أن أشدّ المتشائمين حين كانوا يحددون هذه المدة بستة أشهر مثلاً ، وحين كانوا يستنفدون مقدّماً كلّ مرارة هذه الأشهر المقبلة ، ويرفعون بجهد كبير شجاعتهم إلى مستوى هذه التجربة، ويبسطون آخر قواهم ليظلّوا، دون ما وهن ، على مستوى هذا العذاب الممتدّ طوال هذه الأيام المتتابعة،

عند ذاك كان صديق لقاء ، أو رأي تعطيه صحيفة ، أو ريبة هاربة ، أو تبصّر مفاجىء يدفعهم إلى التفكير بأنه ليس ما يمنع الوباء آخر الأمر من أن يدوم أكثر من ستة أشهر ، ربما سنة أو أكثر .

وحينذاك يكون انهيار شجاعتهم وارادتهم وصبرهم فجائياً جداً ، حتى ليخيّل اليهم أنهم لن يستطيعوا بعد أبداً أن يخرجوا من هذه الحفرة . وعلى ذلك ، فقد كانوا يقتصرون على الامتناع عن التفكير بأجل خلاصهم ، وعن الالتفات إلى المستقبل ، ويظلّون دائماً خافضي النظر ، إذا صحّ التعبير . على أن هذا الحذر ، هذه الطريقة في التحايل على الالم ، في إغلاق معسكراتهم رافضين المعركة ، كل ذلك كان يكافأ طبعاً مكافأة سيئة . فالواقع أنهم ، فيما كانوا يتفادون من هذا الانهيار الذي لم يكونوا يريدونه بأي ثمن ، كانوا يحرمون أنفسهم هذه اللحظات ، الكثيرة إجمالاً بما فيه الكفاية ، التي يستطيعون فيها أن ينسوا الطاعون في صور التقائهم المقبل . ومن ثم تراهم قد سقطوا في منتصف الطريق بين تلك المهاوي وهذه القمم ، فاذا هم أقرب الى أن يطفوا منهم إلى أن يَحْيَوْا ، وإذا هم متروكون لأيام ولا وجهة لها ، ولذكريات عقيمة ، وإذا هم أشباح تائهة ما كان لها أن تكتسب القوة إلا بقبولها التأصّل في أرض ألمها .

وهكذا يستشعرون ما يستشعره جميع السجناء والمنفيين من عذاب عميق يكمن في العيش في ذاكرة لا تجدي نفعاً . وهذا الماضي نفسه الذي لا ينون في التفكير به ، لم يكن له إلا مذاق الحسرة . فقد كان بودّهم حقاً لو يستطيعوا أن يضيفوا اليه كل ما كانوا يتحسّرون على أنهم لم يفعلوه حين كان بوسعهم أن يفعلوه — مع الذي ينتظرونه ، أو التي ينتظرونها — كما كانوا يمزجون الغائب بجميع ظروف حياتهم كسجناء ، حتى ولو كانت هذه الظروف سعيدة نسبياً ، وما كان لوضعهم ذاك أن يرضيهم . وإذ نحن هكذا نافدو الصبر من حاضرنا ، أعداء لماضينا ، محرومون من المستقبل،

فاننا كنّا نشبه أولئك الذين كانت العدالة أو البغضاء البشريّان يجعلانهم يعيشون خلف القضبان الحديدية . وقد كانت الوسيلة الوحيدة للافلات من هذه العُطَل التي لا تحتمل هي أخيراً في تسيير القطارات بالخيال من جديد وملء الساعات بقرع مردّد لجرس يُصرّ على الصمت .

ولكن لئن كان هو النفي ، فقد كان في معظم الاحيان نفي المرء نفسه في بيته . وبالرغم من أن الراوي لم يعرف إلا نفي جميع الناس ، فعليه ألاّ ينسى أولئك الذين تتفاقم في شعورهم ، كالصحفي رامبير أو سواه ، آلام الفراق لكونهم ، وهم مسافرون فاجأهم الطاعون وحبسهم في المدينة ، قد وجدوا أنفسهم بعيدين في وقت واحد عن الكائن الذي لا يستطيعون اللحاق به والبلد الذي كان بلدهم . إن هؤلاء في النفي العام ، كانوا أشد الناس نفياً ، فلئن كان الزمن يخلق لديهم ، كما يخلق لدى الجميع ، القلق الخاص به ، فانهم كانوا معلّقين أيضاً بالحيّز ، وكانوا لا ينفكون يصطدمون بالجدران التي تفصل ملجأهم المطعون عن وطنهم الضائع . كانوا هم دون ريب أولئك الذين كانوا يُرون تائهين كل ساعة من ساعات النهار في المدينة المغبرّة ، ينادون في صمتٍ أماسيّ كانوا وحدهم يعرفونها ، وأصباح بلدهم . وحينذاك كانوا يغذّونَ ألمهم بعلامات لاتوزن ورسائل محيّرة كخفق جناح السنونو ، أو كندى المساء أو كهذه الشعاعات الغريبة التي تخلّفها الشمس أحياناً في الشوارع الخالية . كانوا يغمضون أعينهم على هذا العالم الخارجي الذي كان يستطيع دائماً أن يُنقِذَ من كل شيء ، لشدّة عنادهم في مداعبة أحلامهم المفرطة في واقعيتها ، وببَذْلِ جميع قواهم في ملاحقة صور أرض تؤلّف لهم من ضوء ورابيتين أو ثلاث ، وشجرة مفضّلة ووجوه نساء ، جواً غير قابل للاستبدال .

أما العشّاق الذين هم الأهمّ والذين يستطيع الراوي أن يُحسن الحديث عنهم صراحةً ، فقد كان يزيد في ألمهم ألوانٌ أخرى من الضيق نذكر منها الندم .

والواقع أن هذا الوضع كان يسمح لهم أن يتأمّلوا عاطفتهم بشكل من الموضوعيّة المحمومة . وقد كان من النادر ألا تبدو لهم في هذه المناسبات نواحي ضعفهم الخاص بوضوح . وقد وجدوا المناسبة الأولى لذلك في صعوبة تصوّر أفعال الغائب وحركاته تصوّراً دقيقاً ، فَشَكَوْا حينذاك أنهم يجهلون كيف يقضي وقته ، واتهموا أنفسهم بالخفّة في إهمالهم الاستعلام عنه وتصنّعهم الاعتقاد بان استعمال وقت المحبوب ، ليس هو في نظر كائن يُحبّ مصدر جميع الأفراح . ومن ثم كان من اليسير عليهم أن يُصعّدوا مرة أخرى في حبّهم ويتحرّوا نقائصه . وقدكنا جميعاً في الأوقات العادية نعرف، بوعي أو بلا وعي، أنه ليس ثمة حبّ لا يستطيع أن يتفوّق على نفسه ، ومع ذلك فقد كنا نقبل ، في حظّ قليل أو كثير من الهدوء، بأن يبقى حبّنا دون الوسط . ولكن الذكرى أكثر تطلّباً، بحيث أن هذه المصيبة التي كانت تأتينا من الخارج والتي تضرب مدينة برمتها لم تكن تحمل لنا فقط عذاباً غير عادل كان بوسعنا أن نغتاظ منه ، وإنما كانت تتحدّانا كذلك لأن نعذّب أنفسنا، وتجعلنا هكذا نقرّ الألم . وقد كانت هذه إحدى طرائق الوباء لصرف الانتباه وخلط الاوراق .

وهكذا وجب على كل منا أن يعيش كل يوم يوم ، ووحده في وجه السماء . على أن هذا التخلّي العام الذي كان يستطيع في تماديه أن ينشّط الطبائع أخذ يوهنها . فقد شعر بعض مواطنينا مثلاً أنهم إنما أخضعوا لعبودية أخرى تضعهم في خدمة الشمس والمطر . وقد كان يخيّل لمن يراهم أنهم يتلقّون للمرة الأولى الشعور بما كان عليه الجوّ . فقد كانت سحنهم فَرِحةً بمجرد زيارة بسيطة لشعاع مذهّب ، بينما كانت الأيام الماطرة تُسدل ستاراً كثيفاً على وجوههم وأفكارهم . والحق أنهم لأسابيع خلت كانوا بمنجى من هذا الضعف وهذا الاستعباد الذي ليس هو من العقل في شيء ، لأنهم لم يكونوا وحدهم في وجه العالم ، ولأن الكائن الذي يعيش

معهم كان إلى حد ما يتخذ مكانه أمام عالمهم . أما ابتداءً من تلك اللحظة، فقد سُلّموا بالعكس إلى أهواء السماء ، أي أنهم أخذوا يتألمون ويأملون دون ما سبب .

وأخيراً لم يكن بوسع أحد ، في أطراف هذه الوحدة ، أن يأمل المعونة من جار له ، فظلّ كل امرىء وحيداً مع ما يشغله . وإذا اتفق أن حاول أحدنا أن يبثّ سواه سرّه أو أن يقول شيئاً ما عن عاطفته ، فقد كان الجواب الذي يلقاه، أيّاً كان أمره، يجرحه غالب الاحيان . وكان يُلاحظ آنذاك أنه ومحدّثه لا يتكلمان عن الشيء بنفسه . كان هو يعبّر في الحقيقة عن أفكاره من أعماق أيام طويلة من الاجترار والآلام ، والصورة التي يرغب في نقلها تكون قد طُبخت طويلاً على نار الانتظار والعاطفة . أما الآخر فقد كان يتصوّر ، بالعكس ، انفعالاً اصطلاحياً ، ألماً يُباع في الاسواق ، كآبة متكررة النموذج . وسواء كان الجواب عطوفاً أم ضاغناً، فقد كان يأتي دائماً مزيّفاً ، وكان ينبغي العدول عنه . أو أن الذين كانوا لا يحتملون الصمت ، وما دام الآخرون لا يستطيعون أن يجدوا لغة القلب الحقيقية ، فقد كانوا ينقادون لتبنّي لغة الاسواق وللاشتراك في الحديث بالطراز الاصطلاحي الذي هو السرد البسيط ووصف الوقائع العادية ، الوقائع اليومية بالاجمال . هنا أيضاً نجد أن أصدق الآلام كانت تعتاد التعبير عن نفسها في الاشكال التافهة من الحديث . وبهذا الثمن فقط كان في وسع أسرى الطاعون أن يحصلوا على شفقة بوّابهم ، أو على اهتمام مستمعيهم .

على أن بالامكان أن نقول ، وهذا أهم شيء ، أن هؤلاء المنفنيين ، مهما بلغ من ألم ضيقهم ومهما شقّ عليهم حملُ هذا القلب، الفارغ مع ذلك، كانوا ، في مرحلة الطاعون الأولى ، أشخاصاً محظوظين . فالواقع أن الناس حين بدأ ذعرهم ، كانت أفكارهم كلها متجهة نحو الكائن الذي ينتظرون، فكانت أنانية الحب ، في الاضطراب العام ، تحفظهم ، ولئن كانوا يفكرون

بالطاعون ، فلم يكن ذلك إلا بالمقياس الذي يوشك أن يحوّل افتراقهم إلى افتراق أبدي . وهكذا كانوا يحملون إلى قلب الوباء نفسه تفريجاً شافياً يُغري بان يُعتبر رباطة جأش . كان يأسهم ينقذهم من الرعب ، فلم تخل مصيبتهم من الخير . فاذا اتفق مثلا أن اجتاح أحدهم الوباء ، فقد كان ذلك يحدث دائماً من غير أن يتاح له اتخاذ الحيطة ، فاذا هو منتزعٌ من هذه المحادثة الداخلية الطويلة التي كان يجريها مع شبح ، وإذا هو ملقىً دون ما انتقال في أكثف صمت في الأرض . إنه لم يُتح له الوقت لأي شيء .

بينما كان مواطنونا يحاولون أن يتدبّروا أمرهم مع هذا النفي المفاجىء، كان الطاعون ينصب حرساً على الأبواب ويحوّل السفن التي كانت متجهة نحو وهران . ومنذ الاغلاق ، لم يدخل المدينة مركب واحد ، وابتداء من ذلك اليوم خيّل إلى الناس أن السيارات أخذت تدور على نفسها . وكان المرفأ أيضاً ذا مظهر فريد في نظر الذين كانوا يرون اليه من أعالي الجادّات . وقد خمدت فجأة تلك الحيوية المألوفة التي كانت تجعل منه أحد المرافىء الأولى على الشاطىء . وكان ما يزال يُرى فيه بعض السفن المحجور عليها . أما على الأرصفة ، فان المرافع الكبيرة الخالية ، والشاحنات الصغيرة المنقلبة على جانبها ، وأكواماً معزولة من البراميل أو الأكياس ، كانت كلها تشهد بأن التجارة ، هي أيضاً ، قد ماتت بالطاعون .

وبالرغم من هذه المشاهد غير المألوفة ، فقد كان يشقّ على مواطنينا في الظاهر أن يفهموا ما الذي كان يحدث لهم . كانت هناك المشاعر المشتركة كالفراق أو كالخوف ، ولكن الناس ظلوا يُحلّون شواغلهم الشخصية في المحلّ الأول . لم يكن هناك أحدٌ بعد قد قبل بالمرض حقاً . وكان معظمهم شديد التأثر بما كان يزعج عاداتهم أو يمسّ مصالحهم ، كان ذلك يضايقهم أو يغيظهم ، وليست هذه مشاعر يمكن أن يُحارب بها الطاعون . فقد كان ردّ فعلهم الأول مثلاً تجريم الإدارة المدنية . وقد كان جواب المحافظ على الانتقادات التي كانت تنشرها الصحف : « أليس بالامكان تخفيف التدابير المتخذة ؟ »جواباً غير متوقع تقريباً .

ولم تكن الصحف ولا وكالة رانسدوك حتى الآن قد تلقت بلاغاً رسمياً عن احصاءات الوباء . وكان المحافظ يبلّغها الوكالة يوماً بعد يوم راجياً إياها أن تجعل منها إعلاناً أسبوعياً .

على أن ردّ فعل الجمهور هنا أيضاً لم يكن مباشراً . والحق أن الإعلان الذي نصّ على أن أسبوع الطاعون الثالث قد عدّ ثلاثمئة ضحية وضحيتين لم يكن يستجيب للتصور . فمن جهة ، ربما لم يكن الجميع قد ماتوا بالطاعون ، ومن جهة أخرى لم يكن في المدينة من يعرف عدد الناس الذين يموتون أسبوعياً في الظروف العادية . كانت المدينة تعدّ مئتي ألف نسمة ، وكان مجهولاً إذا كانت نسبة هذه الوفيات عاديّة . بل إن هذا هو التدقيق الذي لا يُهتم به قط ، بالرغم من الأهمية البديهية التي كان ينطوي عليها . وكان الجمهور يفتقر ، بوجه من الوجوه ، إلى نقاط مقارنة . ولم يَعِ الرأي العام الحقيقة إلا على مرّ الزمن إذ أخذ يُلاحظ ارتفاع عدد الوفيات . والواقع أن الأسبوع الخامس عدّ ثلاثمئة وإحدى وعشرين ضحيّة ، والسادس ثلاثمئة وخمساً وأربعين . وكانت الزيادات على الأقل بليغة ، ولكنها لم تكن قوية بما فيه الكفاية ، حتى أن مواطنينا لم يشعروا وسط قلقهم إلا بأن في الأمر حادثاً مؤسفاً دون ريب ، ولكنه موقت بعد كل حساب .

وهكذا استمروا يتجولون في الشوارع ويقتعدون طاولات أرصفة المقاهي . ولم يكونوا في مجموعهم جبناء ، وكانوا يتبادلون من المزاح أكثر مما يتبادلون من الشكوى ، ويتظاهرون بتقبّل مصاعب لا شك في أنها عابرة ، وهكذا كانوا ينقذون المظاهر . على أن تغيّرات أشد خطورة حدثت حوالي نهاية الشهر ، تقريباً في أسبوع الصلوات الذي سيأتي عليه الكلام ، فبدّلت مظهر مدينتنا . فقبل كلّ شيء ، اتخذ المحافظ تدابير تتعلق بسير المركبات والتموين . فقد حُدِّدت التموين وقنّن البنزين ،

وحتى الكهرباء فُرضت عليها قيود للتوفير . وكانت المنتجات الضرورية وحدها تبلغ وهران برّاً وجوّاً . وهكذا رؤيت المواصلات تنقص تدريجياً حتى لتنعدم تقريباً ، ومخازن الكماليات تغلق أبوابها بين ليلة وضحاها ، وسواها تُعلّق في واجهاتها لافتات سلبية ، بينما يكون الشارون واقفين عند أبوابها صفوفاً .

وهكذا اتخذت وهران مظهراً فريداً . فاذا عدد المشاة يزداد ، وإذا كثير من الناس الذين حرمهم اغلاق المخازن أو بعض المكاتب من أي عمل يملأون الشوارع والمقاهي ، حتى في الساعات الجوفاء . وهم حتى الآن في عطلة ، لا في بطالة . وكانت وهران آنذاك ، في حوالي الثالثة بعد الظهر مثلاً ، وتحت سماء صافية ، تُعطي شعوراً خادعاً بأنها مدينة في عيد ، أوقف فيها السير وأغلقت المخازن للسماح بقيام مظاهرة عامة ، واكتسح سكانها الشوارع ليشاركوا في المُتَع والافراح .

وكانت دور السينما بالطبع تفيد من هذه العطلة العامّة وتوفّر أرباحاً عظيمة . ولكن الدورات التي كانت الافلام في المقاطعة تقوم بها كانت مقطوعة ، فاضطرت دور السينما بعد أسبوعين إلى أن تتبادل برامجها ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت هذه الدور تعرض الأفلام نفسها . ومع ذلك فان أرباحها لم تكن تتدنّى .

وأخيراً استطاعت المقاهي ، بفضل الكميات الوافرة المتراكمة في مدينة تحتل فيها تجارة الخمر والكحول المقام الأول ، أن تغذي أيضاً زبائنها . والحقّ أن الناس كانوا يشربون كثيراً . وكان بحسب أحد المقاهي أن ينشر إعلاناً بأن « الخمر الجيد يقتل الميكروب » حتى تتعزّز في الرأي العام الفكرة الطبيعية القائلة بأن الكحول تقي من الأمراض المعدية . وكان من جراء ذلك أن عدداً كبيراً من السكارى كانوا يُطردون من

المقاهي كل ليلة حوالي الساعة الثانية فيملأون الشوارع ويتبادلون فيها الأحاديث المتفائلة .

على أن جميع هذه التغيّرات حدثت بسرعة عجيبة ، وكانت من الغرابة بحيث لم يكن من السهل اعتبارها طبيعية وقابلة للاستمرار . وكانت النتيجة أننا مضينا في إحلال عواطفنا الشخصية المحل الأول .

وبينما كان الدكتور ريو ، بعد يومين من اغلاق الابواب ، خارجاً من المستشفى ، التقى بكوتار الذي رفع اليه وجهاً راضياً ، فهنأه ريو على صحته ، فأجابه الرجل القصير :

— أجل . إن الامر على خير ما يرام . ولكن قل لي يا دكتور .. هذا الطاعون الملعون .. لقد بدأ يصبح خطراً .

فاعترف الطبيب بهذه الحقيقة . ولاحظ الآخر بشيء من الدعابة :

— ليس هناك من سبب لأن يتوقف الآن . كل شيء سينقلب رأساً على عقب .

وسارا معاً لحظة قصيرة . فروى كوتار أن سمّاناً كبيراً من حيّه كان قد احتجز منتجات غذائية لكي يبيعها بسعر مرتفع ، وإن علباً من المآكل المحفوظة وُجدت تحت سريره حين أقبلوا يأخذونه إلى المستشفى . « وقد مات هناك . إن الطاعون لا يرحم ». هكذا كانت جعبة كوتار تغصّ بالحكايات الصحيحة أو الكاذبة عن الوباء . فيروى مثلاً أن رجلاً من وسط المدينة بدت عليه ذات صباح عوارض الطاعون ، فخرج من بيته في هذيان الحمّى وارتمى على أول امرأة لقيها فضمّها اليه وهو يصيح أنه مطعون. وعلّق كوتار بلهجة محبّبة لا تنسجم كثيراً مع تأكيده :

— حسناً ... لا شك في أننا سنصبح جميعاً مجانين .

وبعد ظهر اليوم نفسه أدلى جوزيف غران هو أيضاً للدكتور ريو بأسرار شخصية . وكان قد لاحظ صورة السيدة ريو على المكتب فنظر إلى الطبيب . وأجاب ريو بأن زوجته كانت تُعالج نفسها خارج المدينة ، فقال غران : « إنها محظوظة في هذا » فأجاب الطبيب إنها دون ريب محظوظة ، وإنما ينبغي أن يأمل أن تُشفى .

فقال غران :

ـ آه .. إني أفهم مقصدك .

وللمرة الأولى منذ أن عرفه ريو ، أخذ يتكلم على سجيته . وبالرغم من أنه استمر في البحث عن كلماته ، فقد كان ينجح دائماً تقريباً في العثور عليها ، كما لو أنه قد فكّر منذ وقت طويل بما كان يقوله .

كان قد تزوج في أيام شبابه الأولى بفتاة من جيرانه صغيرة السن فقيرة. بل هو قد قطع دراسته والتحق بعمل من أجل أن يتزوج . ولم يكن هو أو « جان » ليخرجا من حيّهما قطّ . وكان يذهب إلى بيتها لرؤيتها ، وكان ذووها يضحكون قليلاً من هذا الراغب الصموت الأخرق . أما الاب فكان عاملاً في السكك الحديدية ، وكان يُرى دائماً في أوقات فراغه منتحياً ركناً أمام النافذة يفكر ويتابع حركة الشارع ويداه الضخمتان على فخذيه . وأما الام فكانت دائماً منهمكة في العمل البيّي ، وكانت جان تساعدها . وكانت من الهزال والدقة بحيث أن غران لم يكن يراها تجتاز شارعاً ما من غير أن يشعر بالضيق . فقد كانت المركبات إذ ذاك تبدو له مفرطة الكبر والضخامة . وكانت جان ذات يوم واقفة تتطلع مبهورة إلى واجهة حانوت في عيد الميلاد ، فانقلبت اليه تقول : « ما أروعه »! فضغط على يدها ، وهكذا تقرّر الزواج .

وكانت بقية القصة، في رأي غران، بسيطة جداً . وهذا هو شأن الناس

جميعاً : يتزوجون ويمضون قليلاً في الحب ويشتغلون . يشتغلون ما داموا ينسون أن يحبّوا . وكانت جان تشتغل هي أيضاً ، لأن وعود مدير المكتب لم تُنجز . وهنا كان لابدّ من بعض الخيال لفهم ما كان غران يعنيه . فقد أدركه التعب فترك نفسه يمضي وازداد صمته يوماً بعد يوم، ولم يدعم امرأته الشابة في التفكير بأنها كانت محبوبة . رجل يشتغل ، الفقر ، المستقبل الذي ينغلق رويداً رويداً ، صمت الامسيات حول الطاولة ... في مثل هذا العالم لا مجال للهوى . وقد تألمت جان على الأرجح ، ولكنها بقيت مع ذلك: فقد يحدث أن يتألم أحدنا طويلاً من غير أن يعرف . وكانت السنون قد مرّت ، ورحلت فيما بعد . وهي طبعاً لم ترحل وحدها . « لقد أحببتك كثيراً ، ولكني الآن متعبة .. لست سعيدةً بأن أذهب ، ولكن لا حاجة لنا بالسعادة لكي نبدأ من جديد » . هذا مجمل ما كانت قد كتبته إليه .

وتألم جوزيف غران بدوره . وقد كان بوسعه أن يبدأ من جديد ، كما نوّه له ريو ، ولكنه لم يكن في الواقع يملك الايمان . كان بكل بساطة دائم التفكير بها . وقد كان بوده أن يكتب لها رسالة يبرّر فيها نفسه . وقد قال : « ولكن هذا عسير . انني أفكر بذلك منذ وقت طويل . فقد كنا متفاهمين دون ما كلام ما كنّا متحابّين . ولكن الحب لا يستمرّ دائماً . كان عليّ في لحظة من اللحظات أن أجد الكلمات التي كانت جديرة باستبقائها ، ولكني لم أستطع ». وكان غران يتمخّط في منديل كبير مربّع الخطوط ، ثم يمسح شاربيه ، وكان ريو ينظر اليه . وقال الشيخ :

ـ اعذرني يادكتور .. ماذا أقول ؟ انني أثق بك . واستطيع معك أن أتحدث ، فلا بدّ إذن من أن أنفعل .

وكان ظاهراً أن غران بعيدٌ كل البعد عن الطاعون .

وفي المساء كان ريو يبرق إلى امرأته أن المدينة مغلقة وأن صحته جيدة وأن عليها أن تمضي في الاعتناء بنفسها وأنه دائم التفكير بها .

وبعد ثلاثة أسابيع من إغلاق الأبواب ، لقي ريو عند باب المستشفى شاباً ينتظره ويبادره :

– أحسب أنك عرفتني !

وظن ريو أنه كان يعرفه ، ولكنه ظلّ متردداً ، فقال الآخر :

– لقد أتيت قبل هذه الحوادث أسألك معلومات عن أوضاع العرب المعيشية . إن اسمي ريمون رامبير .

فقال ريو – أي نعم . حسناً . إن بين يديك الآن موضوع ريبورتاج جميلاً .

وكان الآخر يبدو ثائر الاعصاب . فقال إن هذه ليست هي القضية ، وإنما أقبل يطلب معونة من الدكتور ريو .

– انني أعتذر عن ذلك .. أنا لا أعرف أحداً في هذه المدينة ، ويزيد في حراجة الموقف أن مراسل جريدتي مصابٌ بالغباوة .

فاقترح ريو أن يمشي معه حتى مستوصف في وسط المدينة ، فان عنده توصيات يريد إصدارها . ودلفا إلى أزقة الحي الزنجي . وكان المساء يقترب ، ولكن المدينة التي كانت في الماضي شديدة الصخب في مثل هذه الساعة بدت متوحدة بشكل يثير الفضول . وكانت بعض أصوات الأبواق ترتفع في السماء المذهّبة فتنمّ عن أن العسكريين يتظاهرون بأنهم يقومون بمهمتهم . وفي هذه الاثناء كان رامبير يتكلم بانفعال شديد، طوال الازقة الوعرة بين جدران البيوت المراكشية الزرقاء والحمراء والبنفسجية .

كان قد ترك زوجته في باريس . والحقيقة أنها لم تكن زوجته ، ولكن الأمر سواء . وكان قد أبرق اليها فور إغلاق المدينة ، وكان يحسب أن القضية قضية حادث موقت فحاول فقط الاتصال بها. وكان زملاؤه في وهران قد قالوا له إنهم لا حيلة لهم ، وأما مركز البريد فقد ردّه . وهزئت به سكرتيرة في دار المحافظة . وانتهى به الامر بعد انتظار ساعتين في صفّ طويل إلى ارسال برقية سجّل فيها « كل شيء على ما يرام . إلى اللقاء ».

ولكنه إذ نهض صباح اليوم التالي ، خطر في ذهنه فجأة أنه لايدري ، بعد كل حساب ، كم سيدوم ذلك ، فأزمع على أن يرحل . وقد مكّنته مهنته بما تيسّره له التوصيات من أن يجتمع بمدير غرفة المحافظة ويبلغه أنه لم يكن له أي علاقة بوهران ، وأنه لا يفيده شيئاً أن يبقى فيها ، وأنه إنما وجد فيها بالمصادفة ، وأنه من الواجب أن يدَعوه يخرج ولو استتبع ذلك أن يُحجر عليه فترة من الزمن في الخارج . فأجابه المدير أنه يفهم الأمر تماماً ، ولكنه لا يستطيع أن يستثني أحداً . ومع ذلك فهو سينظر في الأمر ، بالرغم من أن الوضع خطر ولا مجال لتقرير شيء ما . فقال له رامبير :

– ولكني ، في آخر الأمر ، أجنبيّ عن هذه المدينة !

– لا ريب في ذلك . ولكن لنأمل ، بعد كل حساب ، ألا يستمر الوباء طويلا .

وحاول أخيراً أن يعزي رامبير بأن ذكر له أن بوسعه أن يجد في وهران مادة دسمة لريبورتاج ، وأنه ليس ثمة حادثة إلا وفي أحد جوانبها خير . فهزّ رامبير كتفيه . وكانا قد بلغا وسط المدينة فقال :

– إن هذا أمر بليد يا دكتور . إنني لم أولد لأكتب الريبورتاجات . ولكن ربما ولدت لأعيش مع امرأة . أليس هذا معقولا ؟

فقال ريو إن هذا على أي حال يبدو معقولاً .

ولم تكن في جادّات وسط المدينة الجموع المعتادة . فقد كان بعض المارة يسرعون نحو بيوت بعيدة ، ليس فيهم من يبتسم ، ففكر ريو بأن ذلك كان نتيجة لإعلان رانسدوك الذي نشر في ذلك اليوم . وبعد أربع وعشرين ساعة ، عاد مواطنونا إلى التفاؤل . ولكن الارقام في ذلك اليوم كانت لا تزال طرية في الذاكرة أكثر مما ينبغي . وقال رامبير فجأة :

ـ ذلك أننا ، هي وأنا ، التقينا منذ حين وكنّا على أتمّ التفاهم .

ولم يكن ريو ليقول شيئاً . فأضاف رامبير :

ـ أحسب أنني أضايقك. وإنما وددت ببساطة أن أسألك : اليس بامكانك أن تمنحني شهادة تؤكد فيها أنني غير مصاب بهذا الوباء الملعون ؟ اعتقد أن ذلك ربما كان يفيدني .

فأومأ ريو برأسه موافقاً ، ثم إذا بصبي صغير يرتمي بين ساقيه ، فأنهضه برقّة على قدميه، ومضيا حتى بلغا « ساحة السلاح »،وكانت أغصان التين والنخيل تتدلى هناك ساكنةً مغبرّة حول تمثال للجمهورية قذر . وتوقفا تحت النصب، فصفق ريو قدميه احداهما بالاخرى نافضاً عنهما الغبار الابيض، وجعل ينظر إلى رامبير . وكان الصحفي بقبعته المرتدّة قليلاً إلى خلف ، وقبّة قميصه المحلولة تحت عقدة الرقبة وذقنه المحلوقة برداءة ، يبدو بمظهر عبوس عنيد . وقال ريو أخيراً :

ـ تأكّد أنني أفهمك . ولكن حجتك ليست صالحة . إنني لا أستطيع أن أعطيك هذه الشهادة ، لأنني أجهل في الواقع إذا كنت مصاباً بهذا الوباء أم لا . وحتى في هذا الاحتمال الاخير ، لا أستطيع أن أشهد أنك لن تصاب بالعدوى بين اللحظة التي تخرج فيها من عيادتي واللحظة التي تدخل فيها مركز المحافظة بل وحتى ...

فقال رامبير — : بل وحتى ماذا ؟

— بل وحتى لو أعطيتك هذه الشهادة ، فانها لن تجديك شيئاً .

— لماذا ؟

— لأن في هذه المدينة الوفاً من الناس في مثل وضعك ، ومع ذلك فليس بالامكان السماح لهم بالخروج .

— ولكن إن لم يكونوا هم أنفسهم مصابين بالطاعون ؟

— هذا سبب غير كافٍ . انني أعرف أن هذه الحكاية بليدة ، ولكنها تعنينا جميعاً ، وينبغي أن نتقبلها كما هي .

— ولكنني لست من هنا !

— إنك منذ الآن ، للأسف ، ستكون من هنا ، كجميع الناس .

فتحمّس الآخر :

— أقسم أنها قضية انسانية . ربما كنت لا تدرك ماذا يعنيه مثل هذا الفراق بين كائنين متفاهمين أتمّ التفاهم .

فلم يجب ريو على الفور . ثم قال إنه يحسب أنه يدرك الامر ، وأنه يرغب من كل قلبه أن يعود رامبير إلى امرأته ، وأن يتمّ اللقاء بين جميع المتحابّين ، ولكنّ هناك قرارات وقوانين ، وهناك الطاعون ، وأن مهمته هي أن يقوم بما يتوجب عليه القيام به .

فقال رامبير بمرارة :

— لا .. إنك لا تستطيع أن تفهم . إنك تتحدث بلغة العقل ، انت في التجريد .

فرفع الطبيب نظره إلى تمثال الجمهورية ، وقال إنه لا يدري إن كان

يتحدث بلغة العقل ، وإنما يتحدث بلغة البداهة ، وليس هذا بالضرورة شيئاً واحداً . وعدّل الصحفي ربطة عنقه وقال :

– وإذن فهذا يعني أن عليّ أن أتدبّر أمري بطريقة أخرى .

وأضاف بلهجة تحدّ :

– ولكنني سأترك هذه المدينة .

فقال الطبيب إنه يفهمه أيضاً ، ولكن هذا لم يكن يعنيه . فقال رامبير بصيحة مفاجئة :

– بلى ، إن هذا يعنيك . لقد أتيت اليك لأنه قيل لي إنك قد اشتركت اشتراكاً كبيراً في القرارات المتخذة . ففكرت أن بوسعك ، من أجل حالة واحدة على الأقل ، أن تحلّ ما اشتركت في ربطه . ولكن هذا لديك سواء . إنك لم تفكّر بأحد . إنك لم تفكّر بأولئك الذين فُرّق بينهم .

فاعترف ريو بأن هذا كان صحيحاً من ناحية ، وأنه لم يفكّر بهؤلاء. قال رامبير :

– آه .. أرى ذلك . ستتحدث الآن عن الخدمة العامة . ولكن الخير العام مصنوعٌ من سعادة كل فرد .

فقال الطبيب ، وقد بدا أنه خارج من جوّ تسلية :

– كفى . هناك هذا وهناك شيء آخر . يجب ألا نحكم . وأنت على خطأ في أن تغضب . إذا استطعت أن تخرج من المأزق فان ذلك سيسعدني كثيراً . كل ما في الأمر أن هناك أشياء تحرّمها عليّ وظيفتي .

فهزّ الآخر رأسه بنفاد صبر :

– نعم ، انني على خطأ في أن أغضب . وحسبي ما أخذته حتى الآن من وقتك .

فطلب اليه ريو أن يُطلعه على تفاصيل مساعيه وألاّ يكنّ له الضغينة. فهناك بكل تأكيد صعيد يمكن أن يلتقيا عنده . وبدا التبرّم فجأة على رامبير، وقال بعد صمت قصير :

– أعتقد ذلك . أعتقد بالرغم مني ، وبالرغم من جميع ما قلته لي .

ثم تردّد قبل أن يقول :

– ولكنني لا أستطيع أن أقرّك .

وخفض قبعته على جبينه ، ومضى بخطوة سريعة . ورآه ريو يدخل الفندق الذي كان ينزله جان تارّو .

وهزّ الطبيب رأسه بعد لحظة . لقد كان الصحفيّ على حق في نفاد صبره بانتظار السعادة . ولكن هل كان على حق إذ كان يتّهمه ؟ « إنك تعيش في التجريد » . أكانت تجريداً – بالحق – تلك الأيام التي قضاها في مستشفاه حيث كان الطاعون يطلق رصاصه مضاعفاً فيرفع عدد الضحايا إلى خمسمئة في الأسبوع ؟ أجل ، كان في البلية قسطٌ من التجريد وعدم الواقعية . ولكن حين يأخذ التجريد في قتلك ، فينبغي أن تهتمّ بالتجريد . وكل ما كان يعلمه ريو أن هذا لم يكن أيسر الامور . لم يكن يسيراً مثلا إدارة هذا المستشفى الملحق (وهي الآن ثلاثة) الذي وُكل اليه أمره . كان قد أمر بتنظيم غرفة استقبال في قاعة تفضي إلى حجرة الاستشارات . وكانت الأرض المحفورة تشكل بحيرة ماء مطهّر تقوم في وسطها جزيرة صغيرة من الآجرّ . وكان المـريضُ يُنقل إلى جزيرته ، فيُجرّد بسرعة وكانت ثيابه تسقط في الماء. حتى إذا ما غُسل وجفّف وارتدى قميص المستشفى الخشن مرّ بين يدي ريو ، ثم نُقل إلى إحدى القاعات . وقد اضطروا إلى استعمال ساحات مدرسة مسقوفة تتسع لخمسمئة سرير سرعان ما شُغلت تقريباً كلّها. وكان ريو، بعد استقبال الصباح الذي كان ينظمه هو نفسه ، وبعد حقن المرضى وشقّ الدمامل ، يحقّق في الاحصاءات ويعود

إلى استشاراته بعد الظهر . حتى إذا حل المساء قام بزياراته وتأخر في رجوعه ليلا . وفي الليلة السابقة كانت أمه قد لاحظت وهي تمدّ له برقية من السيدة ريو أن يديه كانتا ترتجفان . فقال في ذلك :

ـ هذا صحيح . ولكني إذا ثابرت فسأصبح أقلّ عصبية .

والواقع أنه كان قوياً شديد المراس، لم يلحق به التعب بعد. ولكن زياراته مثلاً أضحت غير محتملة . فان تشخيص الحمّى الطاعونية لم يكن شيئاً غير الأمر بأخذ المريض إلى المستشفى سريعاً . إذ ذاك كان يبدأ في الحقيقة التجريد والصعوبة ، لأن أسرة المريض كانت تعلم أنها لن ترى هذا الأخير بعدُ إلا وقد شفي أو مات ، « رحماك ! يا دكتور» هذا ما قالته السيدة لوريه أمّ الخادمة التي كانت تعمل في فندق تارو . ما كان يعني هذا الكلام ؟ لقد كان الطبيب مشفقاً بالطبع ، ولكن هذا لم يكن ليفيد أحداً . كانت المخابرة واجبة ، وسرعان ما دقّ جرس سيارة الاسعاف . وكان الجيران أول الأمر يفتحون نوافذهم ويتطلعون . أما فيما بعد ، فقد كانوا يغلقونها بسرعة، وحينذاك كان يبدأ الصراع والدموع والاقناع ،والتجريد بالاجمال. وفي هذه الشقق التي تزيد الحمى والقلق في دفئها ، كانت تجري مشاهد من الجنون . ولكن المريض يُنقل ، فيَسَع ريو أن يذهب .

وقـد اكتفى في المـرات الأولى بأن يتلفن وأن يسرع إلى مـرضى آخرين ، دون أن ينتظر سيارة الاسعاف . ولكن الاهالي ما لبثوا أن أغلقوا بابهم مؤثرين مواجهة الطاعون على فراقٍ يعرفون الآن نتيجته . صراخ ، أوامر ، تدخُّل رجال الشرطة واستعمال القوة المسلحة فيما بعد : هكذا كان المريض يؤخذ عنوة . وقد كان ريو مضطراً في الأسابيع الأولى إلى انتظار وصول سيارة الاسعاف ، ثم لما صحب كلّ طبيب في زياراته مفتشٌ متطوّع ، استطاع ريو أن يركض من مريض إلى آخر . على أن جميع

الاماسي كانت في البدء تشبه ذلك المساء الذي دخل فيه ريو منزل السيدة لوريه الذي تكسوه المراوح والزهور الاصطناعية ، فاستقبلته الأم وقالت له ابتسامة رديئة الارتسام :

– آمل أنها ليست الحمى التي يتحدث عنها جميع الناس .

وإذ رفع الغطاء والقميص، أخذ يتأمل بصمت البقع الحمراء على البطن والفخذين ، وانتفاخ الغدد . وكانت الأم تنظر إلى ما بين ساقي ابنتها ولا تتمالك عن الصياح . وكل مساء، هكذا كانت بعض الامهات يصرخن، بهيئة تجريد، عند رؤية بطون مكشوفة مع جميع إمارات الموت، وكل مساء، كانت أذرعٌ تتشبّث بذراعي ريو ، وتتصاعد كلمات لا فائدة منها ، ووعود ودموع ، وكل مساء كانت أجراس سيارة الاسعاف تثير أزمات مهدورة ككل ألم . ولم يكن في وسع ريو ، عقب هذه الاماسي المتشابهة دائماً ، أن يؤمل شيئاً آخر غير سلسلة من الحوادث المماثلة المتجددة إلى ما لانهاية . أجل، كان الطاعون ، شأنه في ذلك شأن التجريد ، شيئاً راتباً . ولعل شيئاً واحداً كان يتغير ، هو ريو نفسه . وقد شعر بهذا ، ذلك المساء ، إذ هو واقف عند قدم نصب « الجمهورية »، واعياً فقط اللامبالاة الشاقّة التي بدأت تغمره ، متطلعاً دائماً إلى باب الفندق الذي كان قد اختفى فيه رامبير .

في نهاية تلك الأسابيع المضنية، غبّ تلك الاغساق التي كانت تنصبّ عندها المدينة في الشوارع لتستدير حول نفسها ، أدرك ريو أنه لم تبق له حيلة في الامتناع عن الشفقة والرحمة . إن الناس يتعبون من الشفقة إذ تكون الشفقة غير مجـدية . وإنما كان الطبيب يجد عزاءه الوحيد من هذه الأيام الساحقة في إحساس هذا القلب المنغلق رويداً رويداً على نفسه . وكان يعرف أن هذا الشعور يهوّن عليه مهمته ، فكان يسعد بذلك . وإذ كانت أمه تستقبله في الساعة الثانية صباحاً ، فتحزن للنظر الفارغ الذي كن يوجهه

اليها ، إنما كانت تشفق عليه وتتاهف على التعزية الوحيدة التي كان بامكان ريو أن يتلقّاها . إن من شاء أن يقاوم التجريد ، ينبغي له أن يشبهه قليلاً .

ولكن أنّى لمثل رامبير أن يشعر بذلك ؟ كان التجريد في نظام رامبير هو كل ما يعارض سعادته والحقيقة أن ريو كان يعرف أن الصحفي كان على حق ، في نحو من الانحاء . ولكنه كان يعرف كذلك أنه يتّفق للتجريد أن يظهر أقوى من السعادة وإن من الضروري إذ ذاك ، واذ ذاك فقط ، الاهتمام به. وهذا ما حدث بالفعل لرامبير ، وقد استطاع الطبيب أن يعرف تفاصيله من الاعترافات التي أدلى بها اليه رامبير فيما بعد . وهكذا أتيح له أن يتابع ، على صعيد جديد ، هذا النوع من الصراع الكئيب بين سعادة كل انسان وتجريدات الطاعون ، وهو الصراع الذي انتظم كل حياة مدينتنا في هذه الحقبة الطويلة .

ولكن حيث كان البعض يرون التجريد ، كان آخرون يرون الحقيقة. والواقع أن نهاية الشهر الأول من الطاعون قد أظلمت بتفاقم ملحوظ للوباء وبعظة شديدة اللهجة ألقاها الاب بانولو اليسوعي الذي كان قد رافق العجوز ميشال في بدء مرضه . وكان الاب بانولو قد امتاز بما كان ينشره من دراسات في نشرة « جمعية وهران الجغرافية »، وهو من الثقات في إعادة حفر الكتابات في الأبنية . ولكنه كان قد حظي بمستمعين أوفر عدداً من المستمعين الذين يحظى بهم أخصائي ، حين القى سلسلة محاضرات عن النزعة الفردية المعاصرة . وقد بدا في هذه المحاضرات مدافعاً متحمساً عن مسيحيّة صارمة تبتعد عن الخلاعة المعاصرة ابتعادها عن ظلاميّة العصور الماضية . وهو في هذا الصدد لم يساوم مستمعيه على الحقائق القاسية ، ومن هنا كانت شهرته .

وحدث في أواخر هذا الشهر أن عزمت السلطات الكنسية في مدينتنا على مقاومة الطاعون بوسائلها الخاصة بأن تنظم أسبوعاً من الصلوات الجماعية. وكان المفروض أن تنتهي هذه المظاهرات التقوية العامة يوم الاحد بقدّاس احتفالي تحت رعاية « سانت روش » القديس المطعون . وبهذه المناسبة طُلب من الاب بانولو أن يتحدث . وكان منذ خمسة عشر يوماً قد نزع نفسه من دراسته عن القديس أوغسطين والكنيسة الافريقية التي اكسبته مكاناً ممتازاً في سلكه . وهو لطبيعته الملتهبة المتحمسة قد قبل بعزيمة صادقة القيام بالمهمة

التي عُهد فيها اليه ، وقد تحدث الناس عنه طويلاً قبل هذه العظة ، فاذا هو يسجّل على طريقته يوماً مشهوداً في تاريخ تلك الحقبة .

وقد اشترك في هذا الأسبوع الديني جمهور غفير . وليس ذلك لأن سكان وهران هم في الاوقات العادية على جانب كبير من التقى . فان حمامات البحر صباح الأحد مثلاً تنافس القداس منافسة شديدة ، وليس ذلك أيضاً لأنّ اهتــداء مفاجئاً قد آشرق في نفوسهم ، وإنما لأن الحمامات من جهة لم تكن ممكنة ، إذ أن المدينة مغلقة والمرفأ محظور ، ولأنهم من جهة أخرى وجدوا أنفسهم في حالة نفسية خاصة أشعرتهم بأنّ هناك شيئاً ما قد تغيّر ، من غير أن يقرّوا في أعماق نفوسهم الاحداث المفاجئة التي كانت تعصف بهم.على أن كثيرين كانوا يأملون أن ينقطع الوباء فيوفرهم مع أسرتهم . وهم لذلك لم يكونوا يشعرون بعدُ بأنهم مازمون بشيء ما . فان الطاعون لم يكن في نظرهم إلا زائراً غير مرغوب فيه لابدّ أن يرحل يوماً ما دام قد أتى. كانوا مذعورين، ولكن غير يائسين ، ولم يأت بعدُ الوقت الذي يبدو فيه الطاعون شكل حياتهم بالذات ، فينسون الوجود الذي استطاعوا حتى ذلك الحين أن يعيشوه. وبالاجمال فقد كانوا بالانتظار. وكان الطاعون قد أعطاهم ، في شأن الدين، شأن كثير من القضايا الأخرى . نحواً من التفكير خاصاً، بعيداً عن اللامبالاة بعده عن الحماسة الشديدة ، في وسعنا أن نعرّفه بكلمة « موضوعية » . فقد كان بوسع معظم الذين اشتركوا في أسبوع الصلوات أن يتبنوا مثلاً القول الذي فاه به أحد المؤمنين أمام الدكتور ريو : « ليس في الأمر على كل حال أيّ ضرر ». بل أن تارو نفسه ، بعد أن سجّل في مذكراته أن الصينيين، في مثل هذا الوضع، يذهبون فيضربون على الطبل أمام شيطان الطاعون ، قد لاحظ أنه كان من المستحيل

تماماً أن يُعرف ما إذا كان الطبل في الحقيقة يبدو أجدى نفعاً من التدابير الوقائية . على أنه أضاف بأنّ البتّ في الأمر يقتضي الاستعلام عن وجود شيطان للطاعون ، وأن جهلنا في هذه الناحية يجعل جميع الآراء هنا عقيمة .

ومهما يكن من أمر ، فان كاتدرائية مدينتنا قد غصّت تقريباً بالمؤمنين طوال الاسبوع . وقد ظلّ كثير من السكان في الأيام الأولى في حدائق النخيل والرمان التي تنبسط أمام مدخل الكنيسة المسقوف ليستمعوا إلى فيض الاستغاثات والدعوات التي كانت تتدفق إلى الشوارع . وما لبث هؤلاء المستمعون أنفسهم ، محتذياً بعضهم حذو بعض ، أن عزموا على الدخول وعلى أن يضيفوا صوتاً حيّاً إلى مردّ الحضور . أما يوم الاحد ، فقد اكتسح صحن الكنيسة جمهورٌ غفير تجاوز الفناء والسلالم الاخيرة . وكانت السماء في العشية السابقة قد أسوّدت وبدأ المطر يهطل مدراراً . وقد فتح الذين كانوا واقفين في الخارج مظلاّتهم ، فطفت في الكاتدرائية رائحة بخور وثياب مبللة حين ارتقى الاب بانولو المنبر .

وكان ذا قامة متوسطة ، ولكن سمينة . وحين اعتمد حافة المنبر ، ضاغطاً الخشب بين يديه الغليظتين ، لم يُرَ منه إلا شكلٌ صفيق أسود تعاوه بقعتا خدّيه القرمزيتان تحت نظارتيه الفولاذيتين . وكان ذا صوت جهوريّ متحمّس يُسمع من بعيد ، وحين بادر الحضور بجملة واحدة قوية مدقوقة : « يا إخوتي ، إنكم في المصيبة يا إخوتي ، وانكم لتستحقونها » غمرت الحضور موجة هياج ، امتدّت حتى الفناء .

على أن ما تبع من الخطاب لم يكن يبدو منسجماً منطقياً مع هذا الاستهلال المؤثّر . ولكنّ تتمة الخطاب هي التي أشعرت مواطنينا أن الأب كان قد أعطى بطريقة خطابية مرنة مضمون خطابه كلّه مرّة واحدة كضربة خاطفة . والواقع أن بانولو تلا بعد هذه العبارة مباشرة نصّ سِفْر الخروج المتعلق

بالطاعون في مصر وقال : « لقد ظهر هذا البلاء للمرة الأولى في التاريخ ليصعق أعداء الرب . فقد كان فرعون يعارض تعاليم الآلهة فخرّ من الطاعون راكعاً . ومنذ بدء التاريخ كانت بلايا الله تصعق المتكبّرين والعميان . تأملوا هذا وخرّوا راكعين ».

وكان المطر يشتدّ هطولاً في الخارج . واقد لفظ الاب هذه العبارة الأخيرة وسط سكوت مطلق زاد في عمقه صوتُ نقْر المطر على الزجاج ، فأصْدتْ العبارة بنبرة لم يتمالك بعض الحضور معها ، بعد لحظة تردّد ، من أن يسقطوا على المركع . وظنّ آخرون أن عليهم أن يحذوا حذوهم ، وإن هي إلا لحظات ، حتى كان الجميع راكعين على ركبهم ، من غير صوت ، اللهم إلا صوت طقطقة بعض الكراسي . وإذ ذاك انتصب بانولو وتنفس بعمق ثم استأنف خطابه بلهجة كانت تزداد وضوحاً : « ولئن ألمّ بكم الطاعون اليوم ، فلأنّ ساعة التفكير قد حانت . إن المستقيمين لايخشون ذلك ، ولكن الأشرار على حق بأن يرتجفوا . وفي اهراء الكون العظيم ، سيعصف الوباء الهائل بالقمح البشري حتى تنفصل القشّة عن الحبة . وسيكون القش أكثر من الحب ، والمتوّفون أكثر من المختارين الناجين ، وإن هذه المصيبة لم يقض بها الرب . لقد تآلف العالم زمناً متمادياً في الطول مع الشرّ، ولقد استراح أطول مما ينبغي على الرحمة الالهية . فيكفي أن يندم الانسان ليُسمح له بكل شيء . وإن كل انسان ليشعر بالقوة على الندم ، حتى إذا حان الزمن استشعره دون ريب . وريثما يحين ذلك الزمن ، فقد كان أيسر الامور الاستسلام للاهواء ، على أن تتولى الرحمة الالهية الباقي . ولكن هذا ما كان ممكناً أن يدوم . إن الرب الذي عطف وجهه الشفوق طوال هذا الوقت على سكان هذه المدينة ، قد أتعبه الانتظار وخاب أمله الابدي ، فأشاح بوجهه . وهكذا حُرمنا نور الرب ، فاذا نحن غارقون إلى وقت طويل في ظلمات الطاعون » ! .

وندّ عن أحد الحضور في القاعة صوتٌ مذعور كصوت حصان فاقد الصبر . وبعد وقفة قصيرة استتلى الاب بلهجة اخفض : « في «الاسطورة المذهبة » أن إيطاليا في عهد الملك همبرت ، اكتسحها طاعون فظيع جداً حتى أن الأحياء كادوا لا يكفون لدفن الاموات ، وقد انتشر هذا الطاعون خاصة في روما وبافيا . وظهر بعد حين ملاك خير كان يعطي أوامره إلى ملاك شر بأن يضرب البيوت وكان يحمل حربة صيد . وكان عدد الأموات الذين يخرجون من هذه البيوت يساوي عدد الضربات التي تلقّتها ».

وهنا مدّ بانولو كلتا ذراعيه القصيرتين في اتجاه فناء الكنيسة ، كأنما كان يدل على شيء خلف ستار المطر المتحرك، وقال بقوة : « إنها ياأخوتي مطاردة الموت نفسها التي تقوم في شوارعنا اليوم . انظروا اليه ، شيطان الطاعون هذا الجميل كأنما هو لوسيفر ، البارق كأنه الشر ذاته ، منتصباً فوق سقوفنا ، حاملاً في يده اليمنى حربة حمراء على مستوى رأسه، دالاّ بيده اليسرى على أحد بيوتكم . ولعلّ اصبعه الآن يمتد نحو بابكم والحربة تدقّ الخشب ، وهاهو ذا الطاعون يدخل منزلكم ويجاس في غرفتكم ويترقب عودتكم . إنه هناك صابر متنبّه مطمئن كنظام العالم نفسه . هذه اليد التي يبسطها لكم لن تستطيع أية قوة أرضية ، بل حتى العلم الانساني الباطل ، أن يجعلكم تتفادون منها . وهكذا تنهارون تحت وطأة الالم الدامي فتقذفون مع الغُثاء » .

وهنا عاد الاب مرةً أخرى يفصّل صورة الوباء المؤثرة . فذكر قطعة الخشب الضخمة الدائرة فوق المدينة ضاربةً ما حولها كيفما اتفق لها ، منتصبةً دامية ، ناثرة أخيراً الدم والعذاب البشري « من أجل البذور التي ستُعِدُّ حصاد الحقيقة ».

وفي نهاية المرحلة ، توقف الاب بانولو وقد سقط شعره على جبينه ،

واهتزّ جسمه برعشة كانت يداه تتقلانها إلى المنبر ، ثم استأنف كلامه بخشونة ولكن بنبرة متّهمة : « أجل . لقد حانت ساعة التفكير . لقد حسبتم أنه يكفيكم أنْ تزوروا الرب يوم الاحد لتكونوا سائر أيامكم أحراراً. ولقد ظننتم أن بعض الركوع يعوّض التعويض الكافي عن عدم اكترا ثكم المجرم.ولكن الرب ليس فاتراً.إن هذه العلاقات المتباعدة لم تكن تشبع عطفه المفترس . لقد كان يريد أن يراكم أطول من ذلك ، وهذه هي طريقته في حبّه لكم ، وهي في الحقيقة طريقة الحب الوحيدة . ومن أجل هذا تعب من ترقّب مجيئكم ، فترك الوباء يزوركم كما زار جميع مدن الإثم منذ أن كان للناس تاريخ . إنكم تعرفون الآن ما هو الاثم ، كما عرفه قايين وابناؤه ، والناس قبل الطوفان ، وأهل سدوم وعموره وفرعون وأيوب وجميع الملعونين كذلك . ولما كان جميع هؤلاء قد ارتكبوه ، فانكم تنظرون إلى الناس والاشياء نظرة جديدة ، منذ أن أغلقت هذه المدينة جدرانها حولكم وحول الوباء . إنكم تعرفون الآن أخيراً أنه ينبغي الوصول إلى الجوهر ».

وكان هواء رطب يتغوّر في تلك الأثناء تحت سقيفة الفناء ، وجعلت أضواء الشموع تنحني متقلّصة . وتصاعدت رائحة شمع كثيفة وسُعال وعطسةٌ نحو الاب بانولو الذي عاد إلى خطابه بصوت هادىء يفصّل فيه تفصيلاً دقيقاً أعجب به الحضور أيما اعجاب : « اعرف أن كثيرين منكم يتساءلون بحقّ إلام أقصد ؟ إنني أقصد بكم إلى الحقيقة وأعلّمكم أن تنبسط نفوسكم بالرغم من جميع ما قلت . لقد انقضى الوقت الذي كانت فيه النصائح واليد الاخوية هي الوسائل التي تدفعكم إلى الخير . إن الحقيقة اليوم نظام . وإنما يرشدكم إلى طريق الخلاص ويدفعكم اليها حربةٌ حمراء . وإنما هنا تظهر يا إخوتي الرحمة الإلهية التي وضعت في كل شيء الخير والشر ، الغضب والشفقة ، الطاعون والخلاص . إن هذا الوباء نفسه الذي يعذبكم ، يسمو بكم ويدلكم على الطريق .

« في سالف الأيام ، كان مسيحيو الحبشة يعدّون الطاعون واسطة ناجعة، ذات أصل إلهي ،لكسب الخلود . وقد كان الذين لم يصابوا يتقلّبون في ثياب المطعونين ليموتوا موتاً أكيداً . إن جنون الخلاص هذا أمرٌ غير مرغوب فيه دون ريب . فهو يسجّل استعجالاً مؤسفاً قريباً من الغرور والكبرياء ، فلا ينبغي أن يكون المرء أشد استعجالاً من الرب ، وكل ما من شأنه مضاعفة سرعة النظام الخالد الذي أقامه على الأرض يقود إلى الهرطقة . ولكن هذا المثال ينطوي على عظته ، على الاقل . فهو يكشف لعقولنا الاشد تبصّراً عن قيمة النور الرائع للخلود الذي يثوي في قلب كل ألم . إن هذا النور ليضيء الطرق الغسقية التي تؤدي إلى الخلاص . إنه يجلو الارادة الالهية التي تحول الشرّ إلى خير من غير ضعف . وهو اليوم أيضاً يقودنا عبر الموت والضيق والرعب نحو الصمت الجوهري ونحو مصدر كل حياة . هذا هو يا أخوتي العزاء العظيم الذي أردت أن أحمله لكم حتى لا يقتصر ما تحملونه من هنا على كلمات تُعاقِب ، وإنما يتجاوزها إلى فعل يُسكّن».

وشعر الناس أن بانولو قد انتهى . وكان المطر قد انقطع في الخارج . وكانت السماء الممتزج فيها الماء والشمس تفيض على الساحة نوراً أوفر فتوّة. وكانت تتصاعد من الشارع ضوضاء أصوات وسير مركبات ، وكل أحاديث مدينة تستيقظ . وكان المستمعون يجمعون حوائجهم بحركات خفيّة صمّاء. على أن الاب عاد إلى الحديث وقال إنه بعد أن كشف عن الاصل الالهي للطاعون والطابع العقابيّ لهذا الوباء ، لن يعمد في ختام حديثه إلى فصاحة تكون في غير محلها ما دامت تتناول مادة كهذه مفجعة . كان يُخيَّل اليه أن كل شيء لابدّ قد وضح للجميع ، على أنه ذكّر بأن المؤرخ « ماتيو ماريه» قد اشتكى ، بمناسبة طاعون مارسيليا الكبير ، من أنه قد سقط في جهنم ليعيش هكذا دون ما عوْن ولا أمل . والحق أن ماتيو ماريه كان أعمى !

وأن الاب بانولو ، على العكس ، لم يشعر كما يشعر الآن بالمعونة الالهية والرجاء المسيحي اللذين مُنحا للجميع . كان يأمل ضد كل أمل بأن مواطنينا ، رغم فظاعة هذه الأيام ورغم صرخات المحتضرين ، سيوجهون إلى السماء الكلمة الوحيدة التي كانت مسيحيّة والتي كانت تنطوي على المحبة . والرب هو الذي سيفعل الباقي .

هل كان لهذه العظة تأثير في نفوس مواطنينا ؟ إن من الصعب الاجابة على ذلك . لقد صرّح السيد أوتون قاضي التحقيق للدكتور ريو أنه وجد خطاب الاب بانولو « غير قابلٍ مطلقاً للتفنيد » . ولكن لم يكن جميع الناس على مثل هذا الجزم في الرأي . وقصارى ما في الأمر أن العظة قد زادت وعي بعض الناس لفكرة غامضة حتى الآن ، هي أنهم كان محكوماً عليهم ، من أجل جرم مجهول ، بحبس لا يُتصور . وبينما كان البعض يتابعون حياتهم ويعتادون على السجن ، كانت الفكرة الوحيدة للبعض الآخر ، منذ ذلك الحين ، هي ، على العكس ، الفرار من هذا السجن .

كان الناس قد قبلوا أولاً أن يُقطعوا من الخارج كما كانوا يقبلون أيّ ازعاج موقت ليس من شأنه إلا أن يمسّ بعض عاداتهم . ولكنهم وعوا فجأة شكلاً من الحجز ، تحت سماء بدأ الصيف فيها يتقلّص ، وشعروا شعوراً غامضاً بأن هذا الانزواء كان يهدّد حياتهم كلها ، حتى إذا أقبل المساء ، استعادوا مع الرطوبة حيويّة كانت تدفعهم أحياناً إلى أعمال يائسة .

فسواء كان ذلك بطريق المصادفة أم لا ، قام في مدينتنا منذ هذا الاحد ، نوع من الخوف العام والعميق كان من الممكن معه أن يدرك المرء أن مواطنينا بدأوا حقاً يعون وضعهم . ومن هذه الزاوية طرأ على مناخ مدينتنا بعض التغيّر . ولكن هل حدث التغير حقاً في المناخ أم في القلوب ؟ تلك هي القضية ! .

فقد حدث بعد بضعة أيام من العظة أن ريو كان متجهاً مع غران إلى الضواحي ، وهما يتحدثان عن ذلك الحدث ، فاصطدما في الظلام برجل كان يتمايل أمامهما دون أن يتقدم . وفي تلك اللحظة شعّت فجأة مصابيح مدينتنا ، وكانت إضاءتها تتأخر يوماً بعد يوم . وقد ألقى المصباح العالي القائم خلف المتنزهين ضوءاً مباغتاً على الرجل الذي كان يضحك دون صوت وهو مغمض العينين . وكان العرق يقطر على وجهه المبيضّ الذي كان يبسط أساريره ضحكٌ أخرس . وحين ألمّا به قال غران : « إنه مجنون » . وأمسك ريو بذراع الموظف ليستأنفا طريقهما ، فشعر بأنه كان يرتجف من العصبية . وقال ريو :

– لن يبقى بين جدراننا بعد حين إلا مجانين .

وشعر بجفاف في حلقه زاده التعب قوة.

– لنشرب شيئاً ما .

ودخلا مقهى صغيراً كان ينيره مصباح واحد وُضع فوق المنضدة ، وكان الناس يتحدثون بصوت منخفض ليس له مبرر ظاهر ،في الهواء الكثيف المحمّر . وأثار دهشة ريو أن يطلب غران ،على المشرب، كأساً من الكحول فيشربها جرعة واحدة ويصرّح بأنه قد اكتسب منها القوة . ثم أراد الخروج. وخيّل إلى ريو في الخارج أن الليل كان مليئاً بالزفرات . وارتفع صفير أصمّ في مكان ما من السماء السوداء ، فوق المصابيح ، فذكّره بالوباء الذي لا يُرى والذي كان لا يني يمتزج بالهواء الحار . فقال غران :

– من حسن الحظ ، من حسن الحظ ...

فتساءل ريو عمّا كان يعنيه ، فقال الآخر :

– من حسن الحظ أن لي عملاً .

قال ريو : – طبعاً إن هذه حسَنة .

وعزم على ألاّ يستمع إلى الصفير ، فسأل غران عما إذا كان سعيداً بعمله :

– أحسب أنني في الطريق السويّة .

– وهل أنت باقٍ مدةً طويلة ؟

فبدت على غران الحماسة ، وانتقلت حرارة الكحول إلى صوته .

– لست أدري . ولكن ليست هذه هي المسألة يا دكتور . إنها ليست المسألة ، لا .

ولاحظ ريو في الظلام أنه كان يحرّك ذراعيه ، كأنه يُعدّ شيئاً ما لبث أن أتى فجأة وسريعاً :

– اسمع يا دكتور : إن الذي أريده هو أن ينهض الناشر بعد أن يكون قد قرأ مخطوطتي فيقول لمعاونيه : « ارفعوا قبعاتكم ياسادتي» ! .

فدهش ريو لهذا التصريح المفاجىء . وخيّل اليه أن رفيقه يحسر عن رأسه إذ رفع يده وردّ ذراعه أفقياً . وهنا بدا أن الصفير الغريب أخذ يشتد . وقال غران :

– أجل ، يجب أن يتم الأمر على أحسنه .

وبالرغم من أن ريو كان قليل الاطلاع على شؤون الادب ، فقد كان يشعر بأن الأمور ليست على هذا النحو من السهولة ، وأن الناشرين سيكونون في مكاتبهم حاسري الرؤوس مثلاً ! ولكن الامر يحتمل الوجهين ،ولذلك آثر ريو الصمت . وظلّ مرهفاً سمعه ، على مضض منه ، لضوضاء الطاعون الخفيّة . وكانا قد اقتربا من حيّ غران ، ولما كان حياً مرتفعاً بعض الشيء ، فقد قابلتهما منه نسمة خفيفة أنعشتهما ونظّفت المدينة في الوقت نفسه من

كل ضجيجها . على أن غران مضى في حديثه ، ولم يكن ريو يلتقط كل ما كان يقوله الرجل الطيب . ولكنه فهم أن المؤلّف المحكيّ عنه يعدّ الآن كثيراً من الصفحات ، وأنّ جهد صاحبه في ابلاغه مرتبة الإجـادة كان مؤلماً جدا . « أماسي كثيرة ، بل أسابيع برمّتها عند كلمة ... وأحياناً عند أداة وصل بسيطة ». وهنا توقف غران وأمسك بزرّ من معطف الطبيب ، فخرجت الكلمات متعثرة من فمه السيء التكوين :

— افهم جيداً يادكتور . قد يكون سهلاً أن يختار المرء بين « لكن » و « و» . ولكن أصعب من ذلك أن يختار بين « و» و « ثم » . وتكبر الصعوبة مع « ثم » و « بعد ذلك ». ولكن أصعب ما في الامر دون ريب معرفة ماإذا كان يجب وضع «و» أو لا يجب !

فقال ريو : — أجل . إنني أفهم .

واستمر في المسير ، فبدا على الآخر الاضطراب ، وعاد من جديد اليه فتمتم :

— اعذرني . لا أدري ما بي هذا المساء .

فربّت ريو بلطف على كتفه وقال له إنه يودّ مساعدته وأن قصته كانت تهمّه كثيراً . فبدا على الآخر أنه استعاد بعض هدوئه ، وإذ بلغ منزله عرض على الطبيب ، بعد تردد ، أن يصعد لحظة ، فقبل ريو .

وفي غرفة الطعام ، دعاه غران إلى الجلوس أمام طاولة تملأها الأوراق التي يغطيها الشطب والحذف على كتابة صغيرة جداً . وسأله ريو بعينيه ، فأجاب غران :

— نعم . هذا هو . ولكن أتريد أن تشرب شيئاً ؟ إن عندي بعض الخمر .

فرفض ريو . وجعل ينظر إلى الأوراق ، فقال غران :

– لا تنظر . إنها عبارتي الأولى . وإنها لتسبّب لي ألماً ، ألماً كبيراً .

وكان هو أيضاً يتأمل هذه الأوراق كلها ، وبدت يدُه مجذوبةً دون ما مقاومة إلى احداها ، فرفعها أمام المصباح الكهربائي الذي لم يكن له عاكس نُور . وكانت الورقة ترتجف في يده . ولاحظ ريو أن جبين الموظف كان يرشح عرقاً فقال له :

– اجلس واقرأها لي .

فنظر اليه الآخر وابتسم بلون من العرفان ثم قال :

– نعم . أظنّ أني راغب في ذلك .

وتلبّث لحظة ، وهو ما فتيء ينظر إلى الورقة ، ثم جلس . وكان ريو يسمع في الوقت نفسه إلى نوع من التمتمة الغامضة كان يبدو أنها تستجيب في المدينة لصفير الوباء . وقد كان له في تلك اللحظة إدراك حادّ الوعي لهذه المدينة التي كانت تنبسط تحت قدميه ، وللعالم المغلق الذي كانت تؤلفه ، وللعويل الرهيب الذي كانت تخنقه في الليل . وكان صوت غران يرتفع غامضاً : « ذات صبيحة جميلة من شهر نوار ، كانت فارسة أنيقة تجتاز على فرس رائعة صهباء ، ممرّات غابة بولونيا المزدهرة ». وعاد السكون ، ومعه ضجة المدينة المتألمة . وكان غران قد وضع ورقته واستمرّ يتأملها . وبعد لحظة رفع عينيه يسأل :

– ما رأيك فيها ؟

فأجاب ريو إن هذه البداءة تثير فضوله لمعرفة التتمة . ولكن الآخر أجاب بحيوية أن وجهة النظر هذه لم تكن هي الوجهة الحسنة . وصفق أوراقه بظاهر كفّه وقال :

– ليس هذا إلا شيئاً تقريبياً . وحين أتمكن من رسم اللوحة التي أفكّر بها رسماً كاملاً ، وحين تتخذ عبارتي نفسها مشية هذه النزهة المخبّة : واحد–

اثنان ـــ ثلاثة ، واحد ـــ اثنان ـــ ثلاثة ، إذ ذاك يهون الباقي ، ويبلغ الوهم ، منذ البدء ، بحيث يمكن القول : «ارفعوا القبعة»!

ولكن من أجل ذلك بلوغ ذلك، كان لابدّ من جهد موصول بعد.إنه لن يقبل أبداً أن يقدّم هذه العبارة كما هي إلى ناشر. فهو،بالرغم من الرضى الذي تُشعره به أحياناً،كان يدرك أنها لا تلتصق تماماً بالحقيقة وأنها لا تزال تحتفظ ، إلى حد ما ، بسهولة في اللهجة تجعلها تمتّ ، ولو من بعيد ، إلى « كليشه » . هذا على الاقل ما كان يعنيه ، حين سُمع صوتُ أناس يركضون تحت النوافذ . فنهض ريو ، وقال غران :

ـــ سترى ما سأصنع بها ، (ثم التفت إلى النافذة وأضاف): « حين ينتهي كل ذلك ».

ولكن وقع الاقدام المسرعة كان يشتدّ . وكان ريو قـــد هبط وبلغ الشارع حين ألمّ به شخصان . وكانا متوجهين في الظاهر إلى أبواب المدينة . والحقيقة أن بعض مواطنينا نفد صبرهم مـــن تحمّل الحرارة والطاعون ، فخضعوا لدافع العنف،وحاولوا أن يخدعوا يقظة الحواجز والسدود ليهربوا خارج المدينة .

كان رامبير في عداد آخرين حاولوا كذلك أن يفرّوا من جوّ هذا الرعب المتزايد ، ولكن بنصيب أوفر من العناية والمهارة ، إذلم يكن من النجاح كذلك . وكان رامبير قد تابع أولاً مساعيه الرسمية ، وكان يعتقد دائماً ، على حد قوله ، أن العناد لابد أن ينتهي بالانتصار على كل شيء ، ثم إنه كان من مهنته أن يحسن تدبّر أمره . وكان قد زار عدداً كبيراً من الموظفين والأشخاص الذين لا جدال في كفاءتهم . ولكن هذه الكفاءة لم تكن لتفيدهم في هذا الصدد ، فقد كان معظمهم رجالاً ذوي آراء دقيقة ومنظمة في كل ما يتعلق بالمصرف أو بالتصدير أو بالحمضيات أو بتجارة الخمور ، رجالاً يملكون معلومات لا جدال فيها عن قضايا المنازعات أو التأمينات ، بصرف النظر عن شهادات قيّمة وروح للخدمة مخلصة . بل إن روح الاخلاص والنية الحسنة هما أوضح ما كانوا ينعمون به . ولكن معلوماتهم في قضية الطاعون كانت معدومة تقريباً .

على أن رامبير لم يقصّر في الدفاع عن قضيته أمام كل منهم ، كلما أمكن ذلك . وكان أساس حجته يقوم دائماً على القول بأنه كان غريباً عن مدينتنا ، وأن قضيته ينبغي ، وفقاً لذلك ، أن يُنظر فيها نظرة خاصة . وكان محدّثو الصحفي يقرّون بالاجمال هذه النقطة ، ولكنهم يعرضون له في الوقت نفسه أن هذا كان وضع عدد من الأشخاص وأن قضيته ، وفقاً لذلك ، ليست خاصة إلى الحدّ الذي يتصوّر . وهذا ما كان يتيح الإجابة بأنّ ذلك لم يكن يغيّر شيئاً في أساس حجّته ، فيجيبونه بأنّ ذلك كان يغيّر شيئاً في الصعوبات الادارية التي تعارض أيّة تدابير حظوة توشك أن تخلق ما كانوا يسمّونه ، بتعبير شديد النفور « سابقة » .

وهذا الفريق من المحاجّين كان يؤلف ، وفقاً للتصنيف الذي ارتآه رامبير أمام الدكتور ريو ، فئة الشكليين . ويمكن أن يقوم إلى جانبهم المتحدّثون اللامعون الذين كانوا يؤكدون للسائل أن شيئاً من ذلك كله لا يمكن أن يدوم طويلاً ، والذين كانوا ، وهم من هم أسرافاً في اعطاء النصائح حين كان يطلب اليهم اتخاذ قرارات ، يُعزّون رامبير بقولهم إن القضية إن هي إلا إزعاج موقت . وكان هناك أيضاً متكلّفو الاهتمام الذين كانوا يرجون زائرهم بأن يترك مذكّرة تلخّص قضيته ويبلغونه أنهم سيتدارسونها ، والتافهون الثرثارون الذين كانوا يعرضون عليه قسائم إيجار أو عناوين دورٍ موفّرة ، والمنهجيّون المدققون الذين كانوا يرجونه ملء بطاقة يضعونها بعد ذلك في موضعها ، والمنهمكون الذين كانوا يرفعون أذرعتهم ، والضجرون الذين يصرفون أبصارهم ، وكان هناك أخيراً التقليديون ، وهم الأكثر عدداً ، الذين كانوا يدلّون رامبير على مكتب آخر أو مسعى جديد ينبغي القيام به .

هكذا استنفد الصحفي طاقته في الزيارات وأخذ فكرة صحيحة عما يمكن أن تكونه مختارية أو محافظة ، لفرط ما كان ينتظر وهو جالس على مقعد صغير مغطّى بفرو الخُلد أمام الاعلانات التي تدعو إلى الاكتتاب في « قسائم الخزينة » المعفاة من الضرائب ، أو إلى الالتحاق بجيش المستعمرات ، ولفرط ما كان يدخل في مكاتب كانت الوجوه فيها تُعرف وتدرك بالسهولة نفسها التي تُعرف وتُدرك بها الوثائق وأدراج الاضبارات . وقد قال رامبير لريو بشيء من المرارة إن الفائدة من ذلك كله هو أنه كان يقنّع الوضع الحقيقي في نظره . فقد كان يفوته ما حققه الطاعون من تقدّم . وبالامكان القول ، بصرف النظر عن أن الايام كانت تمضي هكذا أسرع ، إن كل يوم ينقضي ، في الوضع الذي كانت تعيشه المدينة برمّتها ، كان يُدني كلّ رجل من نهاية محنته ، شريطة ألاّ يموت . وقد اعترف ريو بأن هذه الملاحظة صحيحة ، ولكن القضية مع ذلك قضية حقيقة عامة أكثر مما ينبغي .

وقد استشعر رامبير، في وقت من الأوقات، بعض الأمل . ذلك أنه تلقى من المحافظة نشرة معلومات بيضاء طُلب اليه أن يملأها بدقة . وكانت النشرة تتساءل عن هويته وحالته العائلية وموارده القديمة والحالية وما كانوا يسمونه بـ « منهج سيرته » . وقد شعر أنّ في الأمر تحقيقاً لاحصاء الأشخاص القابلين لأن يُعادوا إلى منازلهم الاصلية . ومما ثبّت هذا الشعور معلوماتٌ حصل عليها من أحد المكاتب. ولكنه توصل، بعد مساعٍ دقيقة، إلى معرفة المكتب الذي أرسل النشرة، فقيل له إذ ذاك إن هذه المعلومات إنما طلبت « للحاجة». فسأل رامبير :

— أية حاجة ؟

فأوضحوا له أنها للحاجة اليها فيما إذا أصيب بالطاعون ومات به ، ليتمكنوا من ناحية أن ينبئوا أسرته ، وليعرفوا من ناحية أخرى إذا كان الواجب أن يسجلوا نفقات المستشفى على ميزانية المدينة أو إذا كان بالامكان استيفاؤها فيما بعد من أقربائه . وكان هذا يدلّل طبعاً على أنه لم يكن مفصولاً تماماً عن المرأة التي كانت تنتظره ما دام المجتمع يهتمّ بأمرها . على أن ذلك لم يكن ليعزّيه . والذي كان ملحوظاً أكثر من ذلك ، وقد لاحظه رامبير بالفعل ، إنما هو الطريقة التي كان يستطيع مكتبٌ ما أن يتابع بها خدمته ، في أشدّ ظروف المحنة، ويتخذ المبادرة إلى مبادرات تنتمي إلى عهود ماضية، بالخفية عن السلطات العليا غالباً ، لسبب واحد هو أنه انشىء لهذه الخدمة .

وقد كانت الحقبة التي تلت أسهل الحقب وأصعبها على رامبير في وقت واحد . كانت حقبة خدر واسترخاء . فقد رأى جميع المكاتب وقام بجميع المساعي ، فاذا المخارج كلها مسدودة في وجهه من هذه الناحية . فكان لا بد له من أن يتسكع من مقهى إلى مقهى . كان يجلس في الصباح على رصيف مقهى أمام كأس من الجعة الفاترة ، فيقرأ صحيفة يأمل أن يجد فيها بضع إمارات على قرب انتهاء الوباء ، وينظر في وجوه المارة ،فيصرف

نظره بنفور عن ملامح حزنهم ، وبعد أن يقرأ للمرة المئة أسماء المخازن التي كانت تواجهه والاعلان عن أنواع « المشروبات المقبّلة » التي كفّت المقاهي عن تقديمها منذ حين، كان ينهض ويمشي من غير هدف في شوارع المدينة الصفراء . ويظلّ يتنقل من نزهاته المتوحدة إلى المقاهي ومن المقاهي إلى المطاعم حتى يدركه المساء . وقد رآه ريو : ذات مساء ، عند باب مقهى كان الصحفي متردداً في دخوله . وبدا أنه يعزم ويمضي فيجلس في جوف القاعة . وكانت هي الساعة التي يتأخرون فيها ما أمكن التأخر في المقاهي ، نزولاً عند أمر عالٍ ، في إضاءة النور . وكان الشفق يغمر القاعة كأنه ماء رمادي ، والسماء الوردية تنعكس في الزجاج ، وعاج الطاولات يلتمع ضعيفاً في الظلمة المبتدئة . وكان رامبير وسط القاعة الخالية يبدو طيفاً تائهاً ، وقد فكر ريو بأنها كانت ساعة انخذاله ويأسه . ولكنها كانت أيضاً الساعة التي يشعر فيها جميع مسجوني هذه المدينة بانخذالهم ويأسهم وكان لا بدّ من عمل شيء لتعجيل تحريرهم . وانفتل ريو .

وكان رامبير يقضي كذلك وقتاً طويلاً في المحطة . وكان دخول أرصفة المحطة ممنوعاً ، ولكن قاعات الانتظار التي كانت تُبلَغ من الخارج كانت تظلّ مفتوحة،وكان بعض الشحاذين يدخلون اليها أحياناً في الايام الحارة يلتمسون الظل والرطوبة . وكان رامبير يأتي فيقرأ فيها مواقيت للسفر قديمة، ولافتات تمنع البُصاق ، ونظام شرطة القطارات . ثم ينتحي ركناً فيجلس فيه . وكانت القاعة مظلمة . وبين ركام من المرّشات القديمة كان ثمة مدفأة من المعدن المصبوب باردة منذ أشهر عديدة . وعلى الجدران عُلّقت إعلانات كانت تدعو إلى حياة سعيدة حرة في « باندول » أو « كان » ، وكان رامبير يلمس هنا هذا النوع من الحرية الرهيبة التي توجد في أعماق العوَز . وكان أشقّ ما يحمله في نفسه من الصور آنذاك هي صور باريس ، على ما قال لريو على الاقل : منظر مياه وأحجار قديمة ، حمام « الباليه رويال »،

محطة الشمال، أحياء البانتيون الخالية، وبضعة أماكن أخرى من مدينة لم يكن يظن أنه يحبها هذا الحب. كلها كانت تلاحقه وتمنعه من أن يعمل عملاً محدّداً. وكان ريو يفكر بأنه إنما كان يوحّد بين هذه الصور وبين صور حبّه. وحين قال له رامبير يوماً إنه كان يحب أن يستيقظ في الساعة الرابعة صباحاً ويفكّر بمدينته ، لم يصعب على الطبيب أن يترجم من أعماق تجربته الخاصة أنه كان يحب آنذاك أن يتصور المرأة التي كان قد تركها . فالواقع أنها الساعة التي كان يستطيع أن يتملكها فيها . فالناس لا يعملون شيئاً بصورة عامة في الساعة الرابعة صباحاً وإنما ينامون ، حتى ولو كان الليل ليل خيانة . أجل ، إنهم ينامون في تلك الساعة ، وإن هذا لمطمْئِن ما دامت الرغبة الكبرى لقلبٍ قلِق هي أن يمتلك إلى ما لانهاية الكائن الذي يحبّه أو أن يستطيع إغراق هذا الكائن ، إذ يحين وقت الغياب ، في نوم خالٍ من الاحلام لا ينتهي إلا يوم اللقاء .

وبدأت أيام الحرّ بعد وقت قليل من يوم العظة . وكان شهر حزيران يوشك أن ينتهي . وقد انفجر الصيف فجأة في السماء وفوق المنازل في اليوم التالي لهطول الامطار المتأخرة التي تميَّز بها يوم أحد العظة . وهبّت أول أول الأمر ريحٌ محرقة أنّت طوال يوم فجفّفت الجدران . وتسمّرت الشمس ، وغمرت المدينة موجات لا تنقطع من الحرارة والنور طول النهار. وبدا أنه لم يكن في المدينة جانب واحد إلا أدركته الحرارة المعمية ، باستثناء الشوارع المسقوفة والمنازل . كانت الشمس تطارد مواطنينا في جميع أركان الطرق ، فاذا وقفوا ، ضربتهم . ولما صادفت هذه الأيام الحارة ارتفاعاً في عدد الضحايا الذي بات سبعمئة في الاسبوع ، فقد استولى على المدينة نوع من الاحباط . فاذا النشاط يضعف في الدساكر وبين الشوارع والبيوت المسطّحة ، وإذا الناس الذين كانوا يعيشون دائماً في هـــذا الحيّ على عتبتهم يغلقون عليهم الابواب ويقفلون الشبابيك ، دون أن يُعرف أهم من الشمس أم من الطاعون يحتمون . على أن بعض الأنين كان يتصاعد من عدد من البيوت . وكان إذا حدثَ مثل ذلك من قبل ، روئي بعض الفضوليين يقفون في الشوارع مصغين . ولكن بدا بعد ذلك الذعر الطويل أن القسوة استولت على قلب كل انسان ، وراح الجميع يمشون ويعيشون إلى جانب الأنّات والشكاوى كما لو أنها كانت لغة الناس الطبيعية .

وقد وقعت منازعات عند الابواب اضطر الشرطة في أثنائها إلى استعمال سلاحهم ، فأثار ذلك اضطراباً شديداً . وقد وقع جرحى بكل

تأكيد . ولكن الناس كانوا يتحدثون عن أموات في المدينة حيث تدفع الحرارة والخوف إلى المبالغات . وقد كان صحيحاً على أي حال أن الاستياء لم يَنِ يتفاقم ، وأن سلطاتنا كانت قد خشيت الأسوأ ، فواجهت جدّيّاً تدابير تتخذها إذا اندفع الشعب الذي كان يمسكه الوباء حتى الآن، إلى التمرّد . ونشرت الصحف قرارات تجدّد منع الخروج وتنذر المخالفين بالسجن وأخذت الدوريات تطوف المدينة . وغالباً ما كان يُرى في الشوارع الخالية الملتهبة رجال حرس يمرّون على جيادهم بين صفوف من النوافذ المغلقة، تؤذن بمقدمهم ضجة الحوافر على بلاط الطريق . حتى إذا اختفت الدورية سقط على المدينة المهدّدة صمت ثقيل حذر . ومن وقت إلى آخر ، كانت تنبعث طلقات الفرق الخاصة التي عهدت اليها أوامر جديدة بقتل الكلاب والقطط التي قد تنقل البراغيث . وكانت هذه الطلقات الجافّة تساعد على إشاعة جوّ الإنذار في المدينة .

والحق أن كل شيء في الحرارة والصمت ، كان يتخذ في قلوب مواطنينا المذعورين أهمية أكبر .. وللمرة الأولى أحسّ جميع الناس بألوان السماء وروائح الأرض التي تؤذن بتغيير الفصول. وكان كلٌ يدرك بذعر أن الحرارة تساعد على نشر الوباء، ويرى في الوقت نفسه أن الصيف كان يحط رحاله . وأمست صرخات البنادق في سماء المساء أرهف صوتاً فوق المدينة، فباتت لا تتوافق مع أشفاق حزيران ، هذه التي كانت تبعد الأفق في بلدتنا . وكفّت الزهور عن أن تصل إلى الأسواق براعم، فهي تأتي متفتّحة، فاذا انتهى بيع الصباح ، ملأ نثارها الأرصفة المغبرّة . وكان واضحاً أن الربيع قد نُهك، وأنه قد جاد بنفسه في ألوف الأزهار المتفتحة دائرياً في كل مكان، وأنه موشك الآن على الإغفاء ، على الانسحاق الوئيد تحت عبء الطاعون والحرّ. وكانت هذه السماء وهذه الشوارع التي تصفرّ تحت طوابع الغبار والضجر كانت تنطوي في نظر مواطنينا على المعنى المنـــذر نفسه الذي كان يحمله

الاموات المئة الذين تثقل بهم المدينة كل يوم . وباتت الشمس التي لا تنقطع ، وهذه الساعات التي تشعر بمذاق النوم والعُطل لا تدعو بعد ، كما كانت من قبل ، إلى أعياد الماء والجسد . إنها لقد كانت بالعكس تبعث إحساساً فارغاً أجوف في المدينة المغلقة الصامتة . كانت قد فقدت اللمعان النحاسيّ للفصول السعيدة . لقد أخمدت شمس الطاعون جميع الألوان وطردت كل فرح .

كانت هذه إحدى ثورات الوباء الكبرى . لقد اعتاد جميع مواطنينا على استقبال الصيف بجذل . وكانت المدينة تنفتح إذ ذاك نحو البحر وتصب شبيبتها على الشواطىء . أما في هذا الصيف ، فقد كان البحر القريب ، على العكس ، ممنوعاً ، وفقد الجسم كل حقوقه بالمسرّات . فما العمل في هذه الظروف ؟ إن أصدق صورة عن حياتنا آنذاك ، إنما يعطيها تارو نفسه. وقد كان بالطبع يتابع تطور الطاعون اجمالاً ، ملاحظاً أن الراديو كان قد سجّل انعطافاً للوباء حين لم يكن يعلن ، بعد، مئات الوفيات في الأسبوع ، وإنما اثنتين وتسعين ، ومئة وسبعاً ، ومئة وعشرين في اليوم. « إن الصحف والسلطات تلاعب الطاعون ببراعة ، وهي تتصوّر أنها تكسب منه النقط لأن مئة وثلاثين هو رقم أدنى من تسعمئة وعشر ». وقد تحدث كذلك عن مظاهر الوباء المؤثرة أو المسرحية ، من مثل هذه المرأة التي تسكن حيّاً خالياً في بيت مغلق المصاريع ، والتي فتحت فجأة إحـــدى نوافذها فوقه ، وأرسلت صرختين كبيرتين قبل أن تعيد إغلاق المصاريع على ظلام الغرفة الكثيف . ولكنه سجّل من ناحية أخرى أن أقراص النعناع كانت قد اختفت من الصيدليات ، لأن كثيراً من الناس كانوا يمصّونها ليتّقوا بها عدوى ممكنة .

وقد استمرّ أيضاً يلاحظ أشخاصه المفضّلين . فقد عُلم أن العجوز القصير صاحب القطط كان هو أيضاً يعيش في المأساة . والواقع أن طلقات نارية انطلقت ذات صباح ، وأن بضع بصقات من رصاص ، كما كتب تارو ، قتلت معظم القطط وأرهبت الباقي فغادر الشارع . في اليوم نفسه كان الشيخ

القصير قد خرج إلى الشرفة، في الساعة المعتادة ، فأظهر بعض الدهشة ، وأطلّ يرقب أطراف الشارع ثم رضي بالانتظار . وكانت يده تضرب حاجز الشرفة ضربات صغيرة . ثم ترقّب ردحاً آخر ، وفتّت بعض الأوراق ، ثم دخل من جديد وخرج مرة أخرى ، وبعد لحظات اختفى فجأة ، مغلقاً خلفه أبوابه — النوافذ بغضب . وتجددت الحادثة في الأيام التالية ، ولكن كان بالامكان أن يقرأ الناظر على ملامح الشيخ القصير حزناً واضطراباً يتضحان ساعة بعد ساعة . وبعد مضي أسبوع ، انتظر تارّو عبثاً ظهور الشيخ المعتاد ولكن النوافذ ظلّت مغلقة بعناد على حزن ليس من الصعب فهمه . « في زمن الطاعون، ممنوع البصاق على القطط» ، تلك كانت خاتمة المذكرات .

ومن جهة أخرى ، حين كان تارّو يعود إلى منزله مساء ، كان دائماً على يقين من أنه سيلتقي في الفناء وجه الحارس الليلي الذي يرود المكان جيئة وذهاباً . وكان هذا الحارس لا يني يذكّر كل آتٍ أنه قد تنبأ بما كان يحدث . وقد اعترف تارّو بأنه قد سمعه وهو ينذر بشرّ مستطير ، ولكنه ذكّره بأنه كان يقصد هزّة أرضية ، فأجابه الحـــارس : « آه ! ليتها كانت هزة أرضية .. زلزلة قويّة ثم لا يتكلم عنها أحـــد .. يُعدّ الأموات والاحياء ، وينتهي الامر .. أما هذا الوباء الخنزير ! حتى الذين لم يصابوا به ، يحملونه في قلوبهم » .

و لم يكن المدير دون ذلك إرهاقاً . ففي البدء ، كان إغلاق المدينة يحتجز في الفنادق المسافرين الذين مُنعوا من مغادرة البلدة . ولكن كثيرين منهم ، إذ رأوا الوباء يتفاقم ، غدَوا يؤثرون السكنى لدى أصدقاء لهم شيئاً فشيئاً . ومنذ ذلك الحين خلت الفنادق للاسباب نفسها التي امتلأت بها ، ما دام المسافرون قد انقطعوا عن الوصول إلى مدينتنا . وكان تارّو أحد النزلاء القليلين ، ولم يكن المدير يترك فرصة إلاّ ويذكره بأنه كان يفضل إغلاق فندقه منذ وقت طويل لولا رغبته في إرضاء آخر زبائنه . وكان غالباً

ما يسأل تارّو أن يقدّر مدة بقاء الوباء ، فيجيب تارّو : « يقولون إن البرد يقاوم هذا النوع من الأوبئة » فيثور المدير قائلاً : « لكن هذا البلد ياسيدي لا يعرف البرد الحقيقي إطلاقاً . وعلى أيّ حال ، فانّ أمامنا بعدُ بضعةَ أشهر » وكان واثقاً من جهة أخرى من أن السيّاح سيعدلون وقتاً طويلاً عن زيارة المدينة . لقد كان هذا الطاعون كارثة على السياحة .

وبعد غياب قصير ، ظهر في المطعم السيد أوتون الرجل — البومة ، ولكن يتبعه فقط كلبان مدرّبان . وقد أفادت المعلومات أن المرأة كانت قد دفنت أمها وهي الآن تقضي مدة الحجر عليها . وقال المدير لتارّو :

— أنا لا أحب ذلك ، حجر أم لا ، فهي مشتبه بها ،وهم أيضاً بالتالي .

فنبهه تارّو إلى أن الناس كلهم ، من هذه الزاوية ، مشتبه بهم.ولكن الآخر كان حاسماً وكانت له في القضية آراء قاطعة :

— كلا ياسيدي . لا أنت ولا أنا مشتبه بنا . بعكسهم هم .

ولكن السيد أوتون لم يكن ليتغير بمثل هذه السهولة ، فكأن الطاعون كان، هذه المرّة، في صالحه . فهو يدخل بالطريقة نفسها إلى المطعم ، ويجلس قبل أولاده ويحدثهم دائماً بكلام متميّز عنيف اللهجة.وكان الصبي الصغير هو وحده الذي تغيّر مظهره ، فكأنه ، وهو مرتدٍ السواد كأخته، ومتجمع على نفسه ، الظلّ الصغير لأبيه . وكان حارس الليل،الذي لا يحب السيد أوتون ، قد قال لتارّو :

— آه .. إنه سيقضي وهو مرتدٍ كامل ثيابه،وبذلك لا حاجة له بالتزيين ، فهو سيمضي رأساً .

وتناول الحديث كذلك عظة بانولو ، ولكن مع التعليق التالي : « إنني أفهم هذه الغلواء المحبّبة . في بداية الأوبئة ، وفي نهايتها ، يجيء دائماً دور بعض الفصاحة والبلاغة . في الحالة الأولى، يبدو أن العادة لم تُفقد بعد ، وفي

الثانية تكون قد عادت ، وإنما يتعوّد الناس في ساعة المصيبة على الحقيقة ، أي على الصمت . فلننتظر » .

وسجّل تارّو أخيراً أنه قد جرى له حديث طويل مع الدكتور ريو اكتفى بأن يذكر أنه أدى إلى نتائج طيبة ، ويشير بهذه المناسبة إلى اللون الكستنائي الصافي لعيني للسيدة ريو الأم ، ويؤكد بهذا الصدد أن نظراً ينمّ عن مثل هذا القدر العظيم من الطيبة سيكون دائماً أقوى من الطاعون ، وهو يخصص أخيراً مقاطع طويلة بعض الشيء للشيخ المبهور الذي كان ريو يعالجه.

وكان قد ذهب لزيارته مع الطبيب بعد اجتماعهما . وكان الشيخ قد استقبل تارّو وهو يقهقه ويفرك يديه ، وكان في سريره مستنداً إلى وسادته، فوق قدرتيه المملوءتين حمصاً . وإذ رأى تارّو قال : « آه ! وهذا آخر .. إنه العالم بالمقلوب : الاطباء أكثر من المرضى .. وهذا يعني أن الأمور تجري بسرعة ، أليس كذلك ؟ إن الكاهن على حق . إننا نستحقه ، هذا الوباء ». وفي اليوم التالي ، عاد اليه تارّو دون ما موعد .

وإذا كان لنا أن نصدّق مذكراته ، فان الشيخ المبهور ، وهو تاجر خردوات ، حكَمَ ، إذ بلغ الخمسين ، أنه يكفيه ما عمل في حياته، فنام في سريره ولم ينهض منه بعد ذلك . ومع هـذا فان بُهره كان ينسجم مع بقائه واقفاً . وقد ضمن له دخلٌ صغير أن يبلغ الخامسة والسبعين التي كان يحملها بجذل . وهو لم يكن يحتمل رؤية ساعة ، والواقع أنه ليست لديه في البيت أية ساعة ، وكان يقول : « الساعة غالية وهي شيء سخيف » ! وإنما كان يقدّر الوقت ، ولا سيما مواعيد الطعام ، وهي وحدها التي تهمّه ، بواسطة قدرتيه اللتين تكون إحداهما ممتلئة بالحمّص لدى استيقاظه ، فكان يملأ الاخرى ، حبّة حبّة ، بالحركة المنتظمة المجدّة نفسها . وهكذا كانت القدر تتيح له أن يجد مقاييسه الزمنية في النهار . وهو يقول : « ينبغي أن أكسر الصفرة كلما عددت خمس عشرة قدراً : الامر بسيط جداً » ! .

وإذا كان لنا أن نصدّق امرأته ، فاننا نعلم أن إمارات موهبته هذه قد ظهرت منذ حداثته . فالواقع أنه لم يكن ليهتمّ بشيء ، لا بعمله ولا بأصدقائه ولا بالمقهى ولا بالموسيقى ولا بالنساء ولا بالنزهات . وهو لم يخرج أبداً من مدينته ، إلا يوماً واحداً اضطر فيه ، وهو في طريقه إلى الجزائر لشؤون عائلية ، إلى أن يتوقف عند أقرب محطة من وهران ، عاجزاً عن أن يمضي في مغامرته إلى أبعد مـــن ذلك ، فاذا هو يقفل إلى منزله في أول قطار .

وقد بدا على تارّو أنه عجب لهذه الحياة المغلقة التي يعيشها ، فأوضح له تقريباً أن النصف الأول من حياة إنسان هي في نظر الدين صعود ، والنصف الآخر نزول ، وأن أيام الانسان في النزول لا تخصّه بعد ، وأن بالامكان أن تنتزع منه في أية لحظة ، فهو لذلك لا يستطيع أن يصنع بها شيئاً ، وأن الخير في الحقيقة إلا يصنع بها شيئاً . لم يكن التناقض ، من جهة أخرى ، يخيفه لأنه قال بعد لحظات لتارّو إن الله غير موجود بكل تأكيد، والا لما كان ثمّة فائدة من الكهنة . على أن تارّو فهم من أفكار لاحقة أن هذه الفلسفة تمت بأضيق الاسباب إلى المزاج الذي كانت تضفيه عليه صدقات رعيّته ، وقد كانت كثيرة . ولكن الذي كان ينجز صورة الشيخ خطوطاً إنما هو تمنّ كان يبدو عميقاً ، عبّر عنه بضع مرات أمام محدثه : فهو يرجو أن يموت شيخاً معمّراً جداً .

وكان تارّو يتساءل : « أيكون قديساً؟ » ويجيب : « نعم ، إذا كانت القداسة مجموعة عادات ». ولكن تارّو يشرع في الوقت نفسه يصف وصفاً دقيقاً يوماً قضاه في المدينة المطعونة ، ويعطي بذلك فكرة صادقة عمّا كان يشغل مواطنينا خلال هذا الصيف ، ومما قال : « لا يضحك أحد إلا السكارى ، وهؤلاء يسرفون في الضحك ». ثم يمضي في وصفه :

« في الصباح الباكر ، تـُلمّ بالمدينة الساكنة نسائم خفيفة ، فيبدو في

هذه الساعة التي هي بين أموات الليل واحتضارات النهار أن الطاعون يقف عمله لحظة ويستعيد نفَسه . الحوانيت كلها مغلقة . ولكن اللوحة التي علقت على بعضها وكتب عليها : « مغلق بسبب الطاعون » تشهد بأنها لن تفتح عما قليل مع الحوانيت الاخرى . أما بائعو الصحف الذين لا يزال النوم يراودهم فلم يبدأوا بعد بالصياح معلنين الانباء ، وإنما هم مستندون إلى زوايا الشوارع يعرضون بضاعتهم للمصابيح في حركة من يمشي وهو نائم . وحين يفيقون بعد لحظات على صوت الترامات الاولى ، فسينتشرون في المدينة كلها باسطين على مدى أذرعهم الصحف التي تتفجر فيها كلمة « الطاعون » . « هل يستمر الطاعون حتى الخريف ؟ إن البروفسور ب ... يجيب : لا » . «مئة وأربع وعشرون وفاة، هذا هو تعداد اليوم الرابع والتسعين من الطاعون» .

« وبالرغم من أزمة الورق التي كانت تتفاقم يوماً بعد يوم والتي أجبرت بعض الصحف الموقوتة على أن تنقص عدد صفحاتها ، فقد صدرت صحيفة جديدة : « بريد الوباء » تتخذ مهمةً لها « إخبار مواطنينا عن تقدّم الوباء أو عن تراجعه ، بصورة موضوعيّة مدقّقة ، وتقديم أوثق الشهادات عن مستقبل الطاعون ، وإفساح صدرها لجميع الذين هم مستعدّون لمقاومة الوباء ، مجهولين كانوا أم معروفين ، ورفع المستوى المعنوي للسكان ، ونقل توجيهات السلطات ، وبكلمة واحدة ، تجنيد جميع الاردات الصادقة لمحاربة المصيبة التي تنزل بنا محاربة ناجعة ». ولكن الواقع أن هذه الصحيفة اقتصرت سريعاً على نشر اعلانات عن منتوجات جديدة ، ناجعة للوقاية من الطاعون .

« وحوالي السادسة صباحاً ، تبدأ جميع هذه الصحف تباع في الصفوف التي كانت تتشكل عند أبواب الحوانيت قبل فتحها بأكثر من ساعة ، ثم في الترامات التي كانت تصل من الضواحي غاصةً بالركاب. وقد باتت الترامات وسيلة النقل الوحيدة ، وهي تسير ببطء شديد مزدحمة المدارج والحواجز

حتى لتنفلق. على أن الشيء الذي يبعث الفضول هو أن جميع الركاب كانوا، على قدر ما يستطيعون ، يولون بعضهم ظهور بعض ليتجنّبوا أية عدوى ممكنة . وكان الترام عند المواقف يصبّ شحنةً من رجال ونساء يسرعون في الابتعاد والانفراد . وغالباً ما كانت تقع حوادث تـــرجع إلى المزاج السيء وحده ، وقد أصبح ذلك شيئاً مألوفاً .

« وبعد مرور الترامات الأولى ، تستيقظ المدينة رويداً رويداً ، وتفتح المشارب أبوابها عن بسطات غصّت باللوحات : « لا قهوة بعد »، « أجابوا معكم السكر » الخ ... ثم تفتح سائر الحوانيت وتضطرب الشوارع بالحياة . وفي الوقت نفسه ينتشر النور ويرصّص الحرّ سماء تموز رويداً رويداً . إنها الساعة التي ينتشر فيها على الجادّات من ليس لهم عمل . ويبدو أن معظم هؤلاء قد أخذوا على عاتقهم أن يطردوا الطاعون بعرض مظاهر تَرَفهم . فحوالي الساعة الحادية عشرة من كل يوم يتجمع في الطرق الرئيسية معرض للشبان والنساء الصبيات يستطيع المرء فيه أن يستشعر الرغبة في الحياة تنمو في ثنايا المصائب الكبرى . فاذا كان الوباء ينتشر، فان الروح المعنوية ستقوى أيضاً . إننا سوف نرى من جديد « أعياد إله الزمان » الميلانية على حفافي القبور .

« وكانت المطاعم تمتلىء ظهراً بطرفة عين . وكانت جماعات صغيرة لا تجد لها أمكنة تتحلّق بسرعة أمام أبوابها . وتبدأ السماء تفقد نورها من فرط الحرّ . ويظل المرّشحون للطعام ينتظرون في ظل الستائر دورهم على رصيف الشارع الملتهب بالشمس . حين تغص المطاعم ، فهذا يعني أنها تسهّل كثيراً قضية التموين . على أنها لا تمس قلق العدوى ، فقد كان الآكلون يضيعون دقائق كثيرة وهم يمسحون صحونهم وملاعقهم بصبر . ومنذ حين ، وضعت بعض المطاعم لوحات تقول : « هنا أوائل الطعام مغليّة »، ولكنها عدلت شيئاً فشيئاً عن كل دعاية ، مادام الزبائن مضطرين

إلى المجيء . وكان الزبون ، من جهة أخرى ، ينفق عن سعة . وكانت الخمور المعتقة ، أو المفروض أنها كذلك ، وأغلى المآكل الإضافية تشكل بدء سباق جامح . ويظهر كذلك أن حوادث ذعرٍ قد وقعت في مطعم ، لأن أحد الزبائن أصيب بضيق أصفرّ منه، فنهض وترنّح ثم توجه بسرعة إلى الباب .

« وكانت المدينة تفرغ حوالى الساعة الثانية شيئاً فشيئاً ، وهذا هو الموعد الذي يلتقي فيه السكون والغبار والشمس والطاعون في الشارع . ويظلّ الحرّ يسيل بلا انقطاع عبر البيوت الكبيرة الرمادية . إنها ساعات طويلة ساجنة تنتهي بأماسي ملتهبة تتدحرج على المدينة الغاصة الثرثارة . وفي الأيام الأولى من الحرّ ، خلت الاماسي شيئاً فشيئاً من الناس دون أن يُعرف السبب . أما الآن ، فان أول نسمة رطبة إن لم تجلب أملاً ، فانها تجلب انفراجاً، فيهبط الجميع إلى الشوارع ، وينهمكون في الحديث ويتنازعون أو يتحاسدون ، بينما تميل المـــدينة الصاخبة المحمّلة بالأزواج والصراخ ، تحت سماء تموز الحمراء ، إلى الليل اللاهث . وعبثاً يردد كل مساء في الشوارع ، شيخ ملهم يرتدي قبعة وعقدة رقبة ويخترق الجمهور : «الله كبير فتعالوا اليه». فان الجميع كانوا يمضون بالعكس إلى لا شيء يعرفونه جيّداً أو يبدو لهم أمسّ حاجةً من الله . وفي أول الامر ، إذ كانوا يعتقدون أنه مرض كسائر الامراض ، كان الدين في محله من الاحترام .ولكنهم إذ رأوا أنه أمرٌ خطير ،تذكّروا الملذات والمتع . فاذا القلق الذي ينطبع طوال النهار على الوجوه ينحلّ إذ ذاك ، في الشفق الملتهب المغبرّ إلى نوع من الاستثارة والهياج الشرس ، إلى نوع من الحرية الخرقاء التي تحمّ شعباً برمته .

« وأنا كذلك مثلهم . ولكن ماذا ؟ إن الموت لا يعدّ شيئاً في نظر أناس مثلي . إنه حادث يثبت بأنهم على حق ».

إنه تارّو الذي التمس من ريو المقابلة التي يتحدّث عنها في مذكراته .
وإذ كان الطبيب ينتظره ، كان ينظر إلى أمه وهي جالسة بهدوء على كرسي في ركن من غرفة الطعام . وقد كانت تقضي في ذلك الركن أيامها إذ تفرغ من أعمالها البيتية . وكانت تجلس منتظرة ، جامعة يديها على ركبتيها . ولم يكن ريو متأكداً من أنها إنما كانت تنتظره هو . ومع ذلك ، فقد كان شيء ما يتغير في وجه أمه إذ يظهر ، فيبدو إذ ذاك أن كل ما حبتها إياها الحياة المجدّة من صمت ينتفض ويحيا . ثم كانت تستغرق ثانية في الصمت . وفي ذلك المساء ، كانت تنظر عبر النافذة إلى الشارع الذي كان قد خلا . وكانت الاضاءة الليلية قد أنقصت مقدار الثلثين ، وكان مصباح ضعيف جداً يعكس من بعيد لبعيد بعض الأشعة على ظلال المدينة . فقالت السيدة ريو :

ـ هل سيبقون الاضاءة ناقصة طوال مدة الطاعون ؟

ـ على الأرجح .

ـ شرط أن لا يستمر ذلك حتى الشتاء . وإلا فسيكون الأمر محزناً .

فقال ريو : ـ نعم .

ورأى نظر أمه يستريح على جبينه . وكان يعرف أن قلق الايام الأخيرة وإرهاقها قد خدّدا وجهها . وقالت السيدة ريو :

ـ كيف كان الحال اليوم ؟

ـ أوه ... كالعادة .

كالعادة ! أي أن المصل الجديد المرسل من باريس كان كما يبدو أقل تأثيراً وفعالية من الأول ، وأن الارقام في صعود . ولم يكن بالامكان دائماً التلقيح بالامصال الوقائية في غير الاسر المصابة من قبل . وقد كان تعميم التلقيح يقتضي كميات صناعية كبيرة . والحق أن معظم الدمامل كانت تستعصي على الشق ، كما لو أن عهد تصلّبها قد أقبل ، وكانت تعذّب المصابين . ومنذ مساء أمس ظهرت في المدينة حالتان وبائيتان من نوع جديد. فاذا الطاعون يصبح رئوياً . وفي اليوم نفسه اجتمع الاطباء المتعبون بحضور محافظ مضطرب ، فطلبوا وحصلوا على تدابير جديدة لتجنّب العدوى التي كانت تنتقل من فم إلى فم ، في الطاعون الرئوي.وكالعادة ، لم يكن أحدٌ ليعرف شيئاً .

ونظر ريو إلى أمه . فاذا عيناها الجميلتان الكستنائيتان تحييان في نفسه سنوات من حنان .

– هل أنتِ خائفة يا أمي ؟

– من بلغ مثل عمري لا يخاف شيئاً كثيراً .

– إن النهارات لطويلة جداً ، وأنا قلما أكون هنا .

– إنه سيّان لديّ أن انتظرك إذا كنت أعرف أنك لا بدّ آتٍ .وحين لا تكون هنا أفكر فيما عساك تعمل . هل لديك أخبار ؟

– نعم ، كل شيء على ما يرام إذا كان لي أن أصدق البرقية الأخيرة. ولكني أعرف أنها تقول ذلك لتطمئنني .

ورنّ جرس الباب . فابتسم الطبيب لأمه وذهب يفتحه . وكان تارّو في ظل قرص الدرج يشبه دبّاً كبيراً يرتدي الرمادي من الثياب.وأجلس ريو الزائر أمام مكتبه ، وظلّ هو نفسه واقفاً خلف كرسيه ، وكان يفصل بينهما فقط مصباح القاعة المضاء على المكتب .

وقال تارو دون ما مقدمة :

ـ أعرف أن بوسعي أن أحدثك دون ما مواربة .

فوافق ريو بصمت .

ـ بعد خمسة عشر يوماً أو شهر ، لن يكون لوجودك هنا أي نفع ، فان الحوادث قد تجاوزتكم .

فقال ريو : ـ هذا صحيح .

ـ إن تنظيم الخدمة الصحية رديء . وأنتم تفتقرون إلى الرجال والوقت.

فاعترف ريو بأن هذا كان صحيحاً كذلك .

ـ علمت أن المحافظة تفكر بنوع من الخدمة المدنيّة لتجبر الأصحاء على المشاركة في الانقاذ العام .

ـ إن معلوماتك صحيحة . ولكن الاستياء قد تفاقم ، والمحافظ متردّد.

ـ لماذا لا تطلبون متطوّعين ؟

ـ لقد تمّ ذلك ، ولكن النتائج كانت هزيلة .

ـ لقد تمّ ذلك بطرق رسمية، ودون الايمان به إيماناً تاماً . إن مايفتقرون اليه ، إنما هو الخيال . إنهم دائماً مقصّرون عن اللحاق بالوباء . وتكاد العلاجات التي يتصورونها لا تنجع إلا للزكام . ولئن تركناهم يستمرّون، فسيهلكون ، ونحن معهم .

وقال ريو : ـ هذا ممكن. على أنه يجب أن أقول إنهم مع ذلك قد فكّروا بالمساجين لاستخدامهم فيما أسميه الاعمال الكبيرة .

ـ أفضل لو أنهم يعهدون في ذلك إلى رجالٍ طلقاء .

ـ وأنا كذلك . ولكن لماذا ، في الحق ؟

— اني أستفظع احكاماً بالأعدام .

فنظر ريو إلى تارو وقال :

— وإذن ؟

— إذن ، إن عندي مشروعاً لتنظيم تشكيلات صحية متطوّعة . فاسمحوا لي بأن أعنى بها ، ولندع الادارة الحكومية جانباً . إنهـا بعد كل شيء مرهقةٌ بالعمل . إن لي أصدقاء في كل مكان تقريباً ، وسيؤلفون النواة الأولى . وسوف أشترك فيها بالطبع .

قال ريو : — هذا مفهوم . وأنت تتوقع أن أقبل هذا العرض بفرح . إن المرء بحاجة إلى مساعدة ، ولا سيما في هذه المهنة . إنني آخذ على عاتقي إقناع المحافظة بالفكرة . والحق أنهم لا خيار لهم في الأمر . ولكن ...

وأخذ ريو يفكـّر .

— ولكن هذا العمل يُعرّض للموت ، وأنت تعرف ذلك جيداً . وعلى أي حال يجب أن أنبـّهك إلى ذلك . فهل فكّرت بالأمر مليّاً ؟

فجعل تارو ينظر اليه بعينيه الرماديتين الهادئتين :

— ما رأيك بعظة بانولو يا دكتور ؟

وقد طُرح السؤال بصورة طبيعية ، فأجاب عليه ريو بصورة طبيعية :

— لقد عشت في المستشفى وقتاً اطول مما ينبغي لأحب فكرة العقاب الجماعي . ولكنك تعرف أن المسيحيين يتكلمون هكذا أحياناً ، من غير أن يفكروا بما يقولون تفكيراً واقعياً . إنهم خيرٌ مما هم في الظاهر .

— على أنك تفكر كبانولو أن للطاعون جانبه الخيـّر ، وأنه يفتح العيون ويدعو إلى التفكير !

فهزّ الطبيب رأسه بنفاد صبر :

– كأي مرضٍ من أمراض هذا العالم . ولكن ما يصحّ على مصائب هذا العالم يصحّ كذلك على الطاعون . ربما كان فيه نفعٌ لرفع بعض الناس . ولكن من يرى الشقاء والعذاب اللذين يحملهما الطاعون في ركابه ، ينبغي أن يكون مجنوناً أو أعمى أو جباناً حتى يستسلم له !

وقد قال ريو ذلك وهو يرفع صوته قليلاً . ولكن تارّو أشار بيده كما لو أنه يهدّئه . وكان يبتسم . وعاد ريو يقول وهو يرفع كتفيه :

– أجل .. ولكنك لم تجبني . هل فكّرت ملياً بالأمر ؟

فاستراح تارّو قليلاً في مقعده ومدّ رأسه إلى النور :

– أتؤمن بالله يا دكتور ؟

وقد طُرح السؤال أيضاً بصورة طبيعية ، ولكن ريو تردّد هذه المرة :

– لا ، ولكن ماذا يعني ذلك ؟ إنني في الظلام ، وأنا أحاول أن التمس فيه الضياء . وقد انقطعت منذ زمن طويل عن اعتبار هذا أمراً مبتكراً .

– أليس هذا هو الذي يُبعدك عن بانولو ؟

– لا أعتقد . إن بانولو رجل دراسات . إنه لم يرَ – بما فيه الكفاية – أناساً يموتون ، وهو لهذا يتكلم باسم حقيقة . أما أقل كاهن جبلي يُدير رعاياه ، وقد سمع تنفّس انسان يحتضر ، فانه يفكر مثلي . إنه يُعالج المصيبة قبل أن يلتمس البرهان على روعتها .

ونهض ريو ، وكان وجهه الآن في الظلام ، فقال :

– لندع ذلك ، ما دمت لا تريد أن تجيب .

فابتسم تارّو من غير أن يتحرك في مقعده :

– هل أستطيع أن أجيب بسؤال ؟

فابتسم الطبيب بدوره وقال :

– إنك تحب الغموض . سلْ ما تريد .

فقال تارّو :

– لماذا تُظهر أنت نفسك هذا القدر الكبير من الاخلاص ما دمت لا تؤمن بالله ؟ لعلّ جوابك يساعدني أنا نفسي على الجواب .

ودون أن يخرج الطبيب من الظل ، قال إنه سبق له أن أجاب ، وأنه لو كان يؤمن بإله قدير لكفّ عن شفاء الناس ، تاركاً له هذا الأمر .ولكن أحداً في الدنيا ، وحتى بانولو نفسه الذي يحسب أنه يؤمن به ، لا يؤمن بإله من هذا النوع ، لأن أحداً لم يكن يستسلم كلياً ، وأنه ، هو ريو ، يعتقد هنا على الاقل بأنه على طريق الحقيقة إذ هو يكافح الخلق كما كان .

قال تارّو : – آه ! أهذا هو إذن اعتقادك بمهنتك ؟

فأجاب الطبيب وهو يعود إلى النور : – تقريباً .

فجعل تارّو يصفر بهدوء والطبيب ينظر اليه . ثم قال :

– أجل . لعلك تقول إن في ذلك تكبراً . ولكن صدّقني أنني لست متكبراً إلا بالقدر الذي يجب . أنا لا أعرف ما الذي ينتظرني ، ولا الذي يأتي بعد هذا كله . ولكن في الوقت الحاضر ، أمامنا مرضى وينبغي شفاؤهم . وفيما بعد سيفكرون ، وأنا أيضاً . إن أشدّ الامور استعجالاً هو شفاؤهم . وإني لأدافع عنهم قدر طاقتي . هذا كل شيء .

– تدافع عنهم ضدّ من ؟

فانفتل ريو نحو النافذة . ونفذ بنظره بعيداً إلى البحر فرآه في كثافته أشد ظلاماً من الافق . وكان إذ ذاك يشعر فقط بتعبه ويكافح في الوقت نفسه رغبة مفاجئة فاقدة التبصر في أن يتكشف أكثر من ذلك لهذا الرجل الفريد ،

والكن الاخوي ، على ما كان يشعر .

ـ لا أعرف من ذلك شيئاً يا تارّو ، أقسم لك إنني لا أعرف شيئاً . حين دخلت هذه المهنة ، فعلت ذلك بطريقة مجرّدة ، على نحوٍ ما ، لأنني كنت بحاجة اليها ، لأنها كانت مهنة كسائر المهن ، مهنة من المهن التي يفكر بها الشباب . وربما كان ذلك أيضاً لأنها كانت صعبة بصورة خاصة على ابن عاملٍ مثلي . ثم أني رأيت الناس يموتون . أتعلم أن هناك أناساً يرفضون أن يموتوا ؟ هل سمعت في حياتك امرأة تصيح « أبداً » في ساعة موتها ؟ أما أنا ، فقد سمعت . وأدركت إذ ذاك أنني لا أستطيع أن أتعوّده . كنت حينذاك شاباً ، وكان اشمئزازي يحسب أنه يتوجه إلى نظام العالم نفسه . ومنذ ذلك الحين أصبحت أشدّ تواضعاً ، لم أتعود دائماً أن أرى النـــاس يموتون ، ولست أعرف أكثر من ذلك .. ولكن على كل حال ...

وسكت ريو وجلس . وشعر بجفاف في فمه . فقال تارّو :

ـ على كل حال ؟

فاستتلى الطبيب وهو لا يزال متردداً ، متطلعاً إلى تارو بتنبّه :

ـ على كل حال .. هذا شيء يستطيع رجل مثلك أن يفهمه ، ولكن لما كان نظام العالم مُحكماً بالموت فربما كان خيراً للإله ألا يؤمن به الناس ، وأن يكافحوا الموت بكل قواهم ، دون أن يرفعوا أعينهم إلى السماء حيث هو صامت .

فقال تارّو موافقاً :

ـ نعم ، أستطيع أن أفهم . ولكن انتصاراتك ستكون دائماً موقتة . هذا كل شيء .

فاكفهرّ وجه ريو .

ـ دائماً ، أعرف ذلك . ولكنّ هذا لا يبرّر وقف الصراع .

— كلا ، هذا لا يبرّره . ولكني أتصور إذن ما عساه يكون هذا الطاعون في نظرك .

فقال ريو : — نعم . هزيمة لا تنتهي .

فحدّد تارو نظره لحظة في الطبيب ، ثم نهض ومشى متثاقلاً إلى الباب. وتبعه ريو حتى أدركه ، فقال له تارو وكأنه ينظر إلى قدميه :

— من الذي علمك هذا كله يادكتور ؟

فأتى الجواب فوراً :

— البؤس .

وفتح ريو باب مكتبه ، وإذ هما في الممر قال لتارّو إنه خارج هو أيضاً لرؤية أحد مرضاه في الضواحي . فعرض عليه تارّو أن يصحبه فقبل الطبيب. وفي نهاية الممر التقيا بالسيدة ريو فقدم لها الطبيب تارّو وهو يقول :

— صديق .

فقالت السيدة ريو : — أوه ! إنني سعيدة جداً بمعرفتك .

وحين مضت ، التفت اليها تارّو . وعند أول السلم حاول الطبيب عبثاً أن يُشغّل النور الموقوت. فظلت الأدراج غارقة في الظلام . وتساءل الطبيب عما إذا كان هذا نتيجة تدبير جديد للتوفير . ولكن لم يكن أحد يعرف . فان كل شيء في البيوت وفي المدينة كان يتعطل منذ حين من الزمن . ولعل ذلك معزوّ إلى أن البوابين ، ومواطنينا بصورة عامة ، باتوا لا يعنون بشيء. غير أن الطبيب لم يملك الوقت ليمضي في تساؤله أبعد من ذلك ، فان صوت تارو أنبعث وراءه :

— كلمة أخرى يادكتور ، حتى ولو بدت مضحكة: انك على حق تماماً .

وهز ريو كتفيه في الظلام :

ـ الحقيقة أنني لا أعرف من ذلك شيئاً . ولكن أنت ما يدريك ؟

فقال الآخر دون أن ينفعل : ـ أوه .. إن عندي أشياء قليلة أتعلّمها .

فتوقف الطبيب ، وزلقت قدم تارو خلفه على إحدى الدرجات ، ولكنه تماسك نفسه بالاعتماد على كتف ريو . وسأله هذا :

ـ أتعتقد أنك تعرف كل شيء عن الحياة ؟

فانبعث الجواب من الظلام يحمله الصوت الهادىء نفسه :

ـ نعم .

وإذ خرجا إلى الشارع أدركا أن الوقت قد مضى بهما بعيداً ، ولعلها الآن الحادية عشرة . وكانت المدينة خرساء يعمرها الحفيف فحسب . وفي البعيد رنّ جرس سيارة اسعاف . وصعدا إلى السيارة فادار ريو محركها وقال :

ـ يجب أن تأتي غداً إلى المستشفى للتلقيح الوقائي . ولكن ينبغي أن تعرف قبل أن ندخل في تفاصيل هذه الحكاية أن لك حظاً من ثلاثة لتنجو من المرض .

ـ لا معنى لهذه التقديرات يا دكتور . وأنت تعرف ذلك مثلي . منذ مئة سنة ، أهلك الطاعون جميع سكان مدينة في فارس ، باستثناء غسال الاموات الذي لم ينقطع عن ممارسة مهنته قط .

فقال ريو بصوت أصمّ : ـ كلّ ما في الأمر أنه احتفظ بحظه الثالث . ولكن من الصحيح أن ما زال علينا أن نتعلم كثيراً في هذا الموضوع .

وها هما الآن يدلفان إلى الضواحي . وكانت الأنوار تلمع في الشوارع الخالية . وتوقفا . وإذ ترجّلا أمام السيارة سأل ريو تارّو إذا كان بودّه أن

يدخل ، فأجاب الآخر أن نعم . وكانت أشعة من السماء تضيء وجهيهما . وضحك ريو فجأة ضحكة صداقة وقال :

– قل لي يا تارو ... ما الذي يدفعك إلى الاهتمام بهذا ؟

– لا أدري ... ربما كانت أخلاقيتي .

– وأيّة أخلاقية ؟

– التفهُّم .

والتفت تارّو نحو البيت ، فبات ريو لا يرى وجهه حتّى اللحظة التي دخلا فيها غرفة الشيخ المبهور .

ومنذ اليوم التالي، انصرف تارّو إلى العمل فألّف فرقة أولى ما ابثت أن لحقت بها فرقٌ أخرى كثيرة .

وليست رغبة الراوي هنا أن يكسب هذه الفرق الصحية أكثر مما كان لها من أهمية . ولا ريب في أن كثيرين من مواطنينا ، لو كانوا مكانه ، لاستسلموا اليوم إلى إغراء المبالغة في وصف دور هذه الفرق . أما الراوي فهو أميل إلى الاعتقاد بأن المبالغة في وصف أهمية الأعمال الجليلة تنتهي آخر الأمر بتكريم غير مباشر للشرّ . لأن في ذلك افتراضاً أنه ليس للاعمال الجليلة هذه القيمة العظيمة إلا لأنها نادرة ، وأن السوء واللامبالاة أشد وأوفر تحريكاً لتصرّفات الناس . وهذه في الواقع فكرة لا يشارك الراوي فيها . إن الشر القائم في الدنيا يصدر غالباً عن الجهل،وبوسع النية الصادقة إن لم تكن نيّرة متبصّرة أن تحدث من الاضرار مثلما يحدث الخبث وسوء النية . إن الناس أميل إلى الخير منهم إلى الشراب ، وليست هذه هي القضية في الحقيقة . وإنما هم يجهلون أكثر أو أقل ، ومن هنا يكون ما يسمونه فضيلة أو نقيصة ، ويكون أسوأ النقائص الجهل الذي يحسب أنه يعرف كل شيء والذي يسمح لنفسه إذ ذاك بأن يقتل . إن روح القاتل عمياء ،وليست هناك طيبة حقيقية ولا حب جميل من غير أكبر حظ ممكن من التبصّر .

من أجل ذلك ينبغي الحكم برضى موضوعي على فرقنا الصحية التي تحققت بفضل تارو . ومن أجل هذا لن ينصب الراوي نفسه شاعراً مفرط البلاغة يتغنى بالعزيمة الصادقة وببطولة لا يعلّق عليها إلا أهمية معقولة ، ولكنه

سيظلّ مؤرّخ القلوب الممزّقة المتطلّبة ، ذلك المؤرّخ الذي صنعه الطاعون لجميع مواطنينا .

وإن الذين انقطعوا إلى الخدمة في الفرق الصحية لم يكن لهم كبير فضل في أن يفعلوا ذلك ، لأنهم في الواقع كانوا يعرفون أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يُفعل ، وإنما كان يكون أمراً لا يصدّق لو أنهم لم يفعلوه .

وقد ساعدت هذه الفرق مواطنينا على أن يتغلغلوا في الطاعون وأقنعتهم جزئياً بأنهم يجب أن يفعلوا ما يفعلونه لمحاربة الوباء ، ما دام هذا الوباء قائماً بينهم . ولما أصبح الطاعون هكذا واجب بعض الأفـــراد ، تبدّى على حقيقته تماماً ، اي أنه قضية الجميع .

هـــذا شيء حسن . ولكن لا يُهنّأ معلّم على أنـــه علّم أن اثنين واثنين تساوي أربعة . ربما كان يهنأ على أنه اختار هذه المهنة الجميلة. فلنقل إذن إنه كان يُحمد لتارو ولآخرين أنهم اختاروا أن يثبتوا أن اثنين واثنين تساوي أربعة ، لا عكس ذلك ، ولكن لنقل أيضاً إن هذه النية الصادقة كانت أمراً يشاركون فيه المعلّم ، وجميع الذين يملكون قلباً كقلب المعلم والذين هم ، من أجل مجد الانسان ، أكثر عدداً مما يُتصوّر ،وهذا هو اعتماد الراوي على الأقل . والحق أن هذا الراوي مدرك تماماً الاعتراض الذي قد يوجّه اليه وهو أن هؤلاء الرجال كانوا يخاطرون بحياتهم . ولكن تأتي دائماً في التاريخ ساعة يُحكم فيها بالموت على الذي يجرؤ أن يقول إن اثنين واثنين تساوي أربعة . إن المعلم ليعرف ذلك جيداً ، وليست القضية معرفة العقاب أو الثواب الذي ينتظر من يقول هذا ، وإنما القضية معرفة ما إذا كان اثنان واثنان تساوي حقاً أربعة أم لا . وعلى ذلك ، كان ينبغي لهؤلاء الرجال من مواطنينا الذين كانوا يخاطرون بحياتهم أن يقرروا ما إذا كانوا في الطاعون أم لا ، وما إذا كان يجب عليهم أن يقاوموه أم لا .

والواقع أن كثيرين من الاخلاقيين الجدد في مدينتنا كانوا يذهبون

إذ ذاك قائلين أنه لا جدوى من شيء وأن على الناس أن يخرّوا راكعين . وقد كان بوسع تارو وريو وأصدقائهما أن يجيبوا بهذا أو بذاك ، ولكن النتيجة كانت دائماً ما يعرفونه : إن المقاومة واجبة على هذا الشكل أو ذاك وأن الاستسلام غير وارد . لقد كانت القضية كلها أن يُحال بين أكبر عدد ممكن من الناس وبين أن يموتوا ويعرفوا الفراق النهائي . ولم يكن ثمة إلا وسيلة واحدة ، هي محاربة الطاعون . ولم تكن هذه الحقيقة شيئاً رائعاً ، وإنما كانت أمراً محتوماً .

ومن أجل هذا كان طبيعياً أن يبذل كاستل العجوز كل طاقته وثقته في صنع الامصال المحلية من مواد مرتجلة . وقد أمل هو وريو بأن يكون لمصل مصنوع من زروع الجرثومة نفسها التي تلوّث المدينة فعالية أشد من فعالية الامصال المجلوبة من الخارج ، ما دامت الجرثومة تختلف اختلافاً بسيطاً عن قُصيمة الطاعون كما هي معرَّفة كلاسيكياً . وكان كاستيل يؤمل أن ينتهي سريعاً من صنع مصله الأول .

ومن أجل هذا أيضاً كان طبيعيّاً أن يؤمَّن غران ، الذي لم يكن ثمة ما يجعل منه بطلاً من الابطال ، مهمة أمانة السر للتشكيلات الصحية . والواقع أن قسماً من الفرق التي شكلها تارو قد خُصّصت للمساعدة الوقائية في الأحياء المكتظّة بالسكان ، وكانت تحاول أن تدخل في هذه الاحياء التدابير الصحية الضرورية ، وتقوم بتعداد العنابر والأقبية التي لم يكن التطهير قد زارها . وكان قسم آخر من الفرق يرفد الاطباء في زيارة البيوت ، ويؤمّن نقل المطعونين بل ويقود سيارات المرضى والموتى في غياب الموظفين المختصين وقد كان ذلك كله يقتضي عمل تسجيل وإحصاء قَبِلَ غران أن يقوم به .

ويعتبر الراوي أن غران ، من هذه الزاوية ، كان أكثر من ريو وتارو الممثل الحقيقي لهذه الفضيلة الهادئة التي كانت تحرّك الفرق الصحية . ولقد

قال دون ما تردد « نعم » بما كان يتصف به من عزيمة وارادة صادقة . وقصارى ما طلبه أن تُتاح له الخدمة في الاعمال الصغيرة ، لأن سنّه الكبيرة كانت لا تناسب سائر الاعمال . وكان بوسعه أن يعطي وقته من الساعة الثامنة عشرة حتى العشرين . وقد عجب أن يشْكره ريو على ذلك بحرارة وقال : « ليس ذلك أصعب ما في الأمر . إن هناك الطاعون ، وواضح أننا يجب أن ندافع عن أنفسنا . ليت الأمر كان سهلاً إلى هذا الحد ! » وفي المساء ، حين كان ينتهي عمل البطاقات ، كان ريو يتحدث أحياناً إلى غران . وقد انتهى بهما الامر إلى أن يشركا تارو في الحديث ، فكان سرور غران يتفاقم إذ يـأخذ في نفض خفايا نفسه إلى رفيقيه . وكان هذا الاخيران يتابعان باهتمام العمل الذي يمضي فيه غـران صابراً مثابراً وسط الطاعون . وكانا هما أيضاً يجدان في ذلك ، آخر الامر ، لوناً من التفريج .

وكان تارو يسأل غالباً « كيف حال الفارسة ؟ » فيجيب غران جواباً لا يتغيّر « إنها تخبّ ، إنها تخبّ » ويغتصب بسمة . وقال غران ذات مساء إنه قد ترك نهائياً نعت « رشيقة » الذي كان يصف به فارسته واستبدل به كلمة « ممشوقة » وأضاف يقول : « هذه صفة أكثر حسيّة » وقرأ ذات مساء آخر على مستمعيه الاثنين العبارة الاولى معدّلة بهذا الشكل : « ذات صبيحة جميلة من نوار ، كانت فارسة ممشوقة تجتاز على فرس رائعة صهباء ممرات غابة بولونيا المزدهرة ». وقال غران موضحاً :

– أليست هذه خيراً من السابقة ؟ ولقد فضلت « ذات صبيحة من نوار لأن « شهر نوار » يُطيل الخبب قليلاً .

ثم بدا مهتماً جداً بنعت « رائعة » . إنها في رأيه « لا تتكلم » وأنه ليبحث عن التعبير الذي يصوّر دفعةً واحدة الفرس الفارهة التي يتصوّرها . أما

كلمة « بدينة » فلم تكن تصلح ، ولئن كانت حسيّة فهي وضيعة . ولقد أغرته كلمة « ملتمعة »، حيناً من الزمن ، لكنها لم تكن لتنسجم مع الايقاع . أخيراً أعلن ذات مساء منتصراً أنه وجد عبارة « فرس سوداء صهباء ». إن السواد ليدلّ خفيةً على الرشاقة في رأيه . ولكن ريو اعترض قائلا :

ـ إن هذا غير ممكن .

ـ ولماذا ؟

ـ إن « صهباء » لا تدل على العِرق ، وإنما على اللون .

ـ أي لون ؟

ـ لونٌ ليس هو الاسود على أي حال !

فبدا غران متأثراً جداً ، وقال :

ـ شكراً لك . من حسن الحظ أنك هنا . إنك لترى كم أن هذا صعب .

قال تارو : ـ ما عساه يكون رأيك بـ « فاخرة » ؟

فنظر اليه غران وجعل يفكر ، ثم قال :

ـ نعم .. نعم !

وبدأت بسمة ترتسم على شفتيه .

وبعد حين من الزمن ، اعترف بأن كلمة « مزدهرة » كانت تُربكه. ولما كان لم يعرف إلا وهران ومونتليمار ، فقد كان يسأل أصدقاءه أحياناً بعض الارشادات عن الشكل الذي كانت ممرات الغابة تزدهر به . والحقيقة أن هذه الممرات لم تشعر ريو أو تارو مطلقاً أنها كانت مزدهرة ، ولكن إيمان الموظف كان يزعزعهما . لقد كان يعجب من عدم تيقنها . « ليس من يعرف أن ينظر غير الفنانين ».

ولكن الطبيب الفاه مرةً في اهتياج عظيم . وكان قد استبدل بـ «مزدهرة» عبارة « ملأى بالزهور » وكان يفرك يديه : « وأخيراً انها لَتُرى ،وتُشمّ . ارفعوا قبعاتكم أيها السادة ! » وقرأ العبارة بلهجة المنتصر : « ذات صبيحة جميلة من نوار كانت فارسة ممشوقة ممتطية فرساً فاخرة صهباء تجتاز ممرات غابة بولونيا الملأى بالزهور » ولكنّ الاضافات الثلاث التي تنتهي بها الجملة كانت ، إذ تليت بصوت مرتفع ، ذات ايقاع سيء جعل غران يتأتىء قليلاً . وجلس منهوكاً . ثم استأذن الطبيب في الذهاب ، فقد كانت به حاجة إلى التفكير .

وعُلِمَ فيما بعد أنه ظهرت عليه في المكتب ، في هذه الحقبة من الزمن ، أمارات شرود اعتبرت شيئاً يؤسف له في وقت كان على المحافظة فيه أن تجابه واجبات عظيمة بعددٍ مخفّض من الموظفين.وقد تأثرت خدمته من ذلك ، فأخذ عليه رئيس المكتب هذا الشرود بقسوة ، مذكّراً إياه بأنه إنما يُدفع له ليقوم بعمل لا يقوم به في الحقيقة . وكان مما قاله رئيس المكتب « يبدو أنك تخدم ، في غير ساعات العمل ، متطوعاً في الفرق الصحية . إنّ هذا لا يعنيني . وإنما الذي يعنيني هو عملك وإن خير طريقة تستطيع أن تشعرنا بها بأنك مفيد في هذه الظروف المريعة ، هي أن تحسن القيام بعملك ، والا فلا جدوى في الباقي ».

وقال غران لريو : — إنه على حق .

فوافق الطبيب : — أجل ، إنه على حق .

— و لكني شارد ، ولا أدري كيف أخرج من نهاية عبارتي .

وكان قد فكّر بأن يحذف كلمة « بولونيا » مقدّراً أن الناس جميعاً سيفهمون . ولكن الجملة إذ ذاك لا تخلو من لبس . وقد كان يبدو عليه في بعض الاماسي أنه أكثر تعباً من ريو .

أجل كان يتعبه هذا التحرّي الذي كان يستغرقه كلياً، على أن ذلك لم يكن يمنعه من أن يُعدّ الاحصاءات التي كانت الفرق الصحية تحتاج اليها . فكان كل مساء يهيء البطاقات بصبر ، ويرفق بها خطوطها ويدقق في عرض الحالات عرضاً أقرب ما يكون إلى الوضوح . وكان غالباً ما يذهب إلى لقاء ريو في أحد المستشفيات فيطلب اليه طاولة في بعض المكاتب أو دور التمريض، فيجلس اليها مع أوراقه كما يجلس إلى طاولته في مركز المختاريّة، ويلوّح بأوراقه ليجفّف حبرها في الهواء الذي تثقله المطهّرات والـوباء نفسه . وكان يحاول إذ ذاك بكل نبل ألاّ يفكر بعد بفارسته ، وأن يقصر جهده على ما ينبغي عمله .

نعم ، لئن كان صحيحاً أن الناس يحرصون على أن يتمثلوا نماذج يسمونها أبطالاً ، ولئن كان من الواجب المحتّم أن يكون في هذه القصة أحد هؤلاء الابطال ، فان الراوي يقترح حقاً هذا البطل التافه الممحوّ الذي لم يكن يملك لنفسه إلا بعض الطيبة في القلب ومثلاً أعلى مضحكاً في ظاهره. إن ذلك ليعطي الحقيقة ما يعود اليها ، ويعطي إضافة اثنين واثنين مجموع أربعة ، ويعطي البطولة المكان الثانوي الذي ينبغي أن تحله دائماً بعد مطلب السعادة السخيّ لا قبله . وهذا ما يعطي هذه القصة أيضاً طابعها ، وهو طابع وصف كُتب بعاطفة طيبة ، أي بعاطفة ليست هي رديئة جهراً ولا هي محرّكة مهيّجة على غرار المشاهد المسرحية الرديئة .

كان هذا على الاقل رأي الدكتور ريو حين كان يقرأ في الصحف أو يسمع في الراديو النداءات والتشجيعات التي كان يُبلغها العالم الخارجي إلى المدينة المصابة بالطاعون . وفي كل مساء كان يرافق الامدادات المرسلة جواً وبراً تعليقات تنقلها الاذاعة والصحف إلى المدينة المعزولة وفيها حيناً لهجة إشفاق وحيناً آخر لهجة إعجاب . وكانت اللهجة الملحميّة او لهجة الخطبة الجوائزيّة تستنفد كل مرة صبر الطبيب . كان يعرف أن هذا

الاهتمام والعناية ليسا متكلفين ، هذا لا شك فيه . ولكن لم يكن ثمة سبيل إلى التعبير عنها بغير اللغة الاصطلاحية التي كان الناس يحاولون بواسطتها أن يعبروا عمّا يربطهم بالانسانية . وما كان لهذه اللغة أن تنطبق على الجهود الصغيرة اليومية التي كان يبذلها غران مثلاً ، لأنها لا تستطيع أن تبيّن ما كان يعنيه غران نفسه وسط الطاعون .

وكان الطبيب إذ يأوي أحياناً إلى فراشه عند منتصف الليل، في السكون الكبير للمدينة المقفرة، يدير زرّ الراديو قبل أن ينام نومه القصير . فتحاول إذ ذاك أصوات أخوية مجهولة تأتي من أقاصي الدنيا عبر آلاف الكيلومترات أن تعبّر برعونة عن شعورها بالتضامن، وتعبّر عنها في الواقع ولكنها تبيّن في الوقت نفسه العجز الفاضح الذي يلقاه كل انسان بأن يشارك حقاً في ألمٍ لا يستطيع أن يراه : « وهران ، وهران »... ولكن النداء كان عبثاً ما يجتاز البحار ، وعبثاً ما كان ريو يقف على استعداد ، فسرعان ما يرتفع صوت الفصاحة ويكشف خير ما يكون الكشف عن الاتصال الجوهري الذي يجعل من غران ومن الخطيب رجلين غريبين . « وهران . نعم . وهـــران » ويفكّر الطبيب : « ولكن لا . الحب أو الموت معاً . ليس هناك أيّ ملاذ آخر . إنهم بعيدون أكثر مما ينبغي » .

قبل أن يبلغ الطاعون ذروته ، إذ حشد كل قواه ليقذف بها المدينة ويستولي عليها نهائياً ، بقي أن نصوّر الجهود الموصولة الراتبة اليائسة التي كان يبذلها آخر الأشخاص ، كرامبير ، ليستعيدوا سعادتهم وينتزعوا من الطاعون هذا الجزء من أنفسهم الذي كانوا يدافعون عنه ضد كل هجوم . تلك كانت طريقتهم لرفض العبودية التي كانت تتهددهم . وعلى الرغم من أن هذا الرفض لم يكن في الظاهر في مثل جدوى الآخر ، فان الراوي يعتقد أنه قد كان له مغزاه الحق ، وأنه كان يشهد ، في عدم جدواه ومناقضاته نفسها ، على ما كان في نفس كل منا آنذاك من اعتزاز .

كان رامبير يكافح ليمنع الطاعون من أن يدركه . فبعد أن تبين له أنه لا يستطيع الخروج من المدينة بالوسائل المشروعة ، عزم على أن يلجأ إلى الوسائل الأخرى كما أخبر ريو . وقد بدأ الصحفي بخدم المقاهي . وخادم المقهى واقف دائماً على كل شيء . ولكن الاوائل الذين سألهم ، كانوا واقفين خصوصاً على العقوبات الشديدة التي تتعلق بهذا النوع من الأعمال . بل إنه قد اعتُبر في إحدى الحالات محرّضاً . وقد ترتّب عليه أن يلتقي بكوتار لدى ريو ليتقدّم قليلاً . وقد تحدّثا ذلك اليوم ، هو وريو ، عن الخطوات التي قام بها الصحفي عبثاً في المراكز الادارية . وبعد أيام ، التقى كوتار برامبير في الشارع واستقبله بالصراحة التي كان يسبغها آنذاك على جميع علاقاته ، فسأله :

ـ دائماً لا شيء ؟

ـ لا شيء .

ـ لا يستطيع المرء أن يعتمد على المكاتب . فهي لم تُصنع لتتفهّم .

ـ هذا صحيح . ولكني أبحث عن شيء آخر . وإن هذا لصعب .

قال كوتار : آه . أفهم ذلك .

وكان هو يعرف طريقة ما ، وقد دهش رامبير حين أوضح له أنه منذ وقت طويل يتردّد على جميع مقاهي وهران ، حيث كان له أصدقاء ، وأنه كانت لديه معلومات عن وجود منظمة تتعاطى هذا النوع من العمليات. والحقيقة أن كوتار الذي كانت نفقاته تتجاوز منذ ذلك الحين عائداته، كان قد اشترك في عمليات تهريب تناولت المواد المقننة . من ذلك أنه كان يشتري ثم يبيع السكاير والخمر الرديء الذي كان ثمنه يرتفع بلا انقطاع ، فيعود عليه ذلك بثروة صغيرة . وسأله رامبير :

ـ هل أنت متأكد من ذلك تماماً ؟

ـ طبعاً ، ما داموا قد عرضوا عليّ ذلك !

ـ أو لم تُفِدْ منه ؟

فقال كوتار بلهجة بسيطة : ـ لا تكن حذراً . إنني لم أفِد منه لأنني لا أودّ أن أذهب . وإن لي وجهة نظري .

ثم أضاف بعد صمت :

ـ أراك لا تسألني عمّا هي وجهة نظري ؟

فقال رامبير : ـ انني أفترض أنّ هذا لا يعنيني .

ـ الحق أن هذا لا يعنيك من إحدى النواحي . ولكن من الناحية الاخرى ... على كل حال ، إن الشيء الوحيد هو أنني أشعر بأني أشدّ

ارتياحاً هنا منذ أن حلّ بنا الطاعون .

وقال الآخر بعد أن استمع إلى خطابه :

– وكيف السبيل إلى الاتصال بهذه المنظمة ؟

فأجاب كوتار : – ليس هذا بالأمر اليسير . تعال معي .

وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر . وكانت المدينة تنضج على مهل تحت سماء ثقيلة. وكانت جميع الحوانيت مُسدلةً أستارها. وكانت أرصفة المقاهي خالية.وسلك كوتار ورامبير شوارع مسقوفة ومشيا طويلا من غير أن يتكلما . كانت تلك إحدى الساعات التي لا تظهر فيها أمارات الطاعون . وإن هذا الصمت وهذه الالوان والحركات الميتة يمكن أن تنتمي إلى الصيف كما تنتمي إلى الوباء . ولم يكن يُعرفُ إذا كان الجو مثقلاً بالانذارات أم بالغبار والاحتراق . وكانت المراقبة والتفكير لازمين لادراك الطاعون ، لأنه لم يكن يكشف عن نفسه إلا بأمارات سلبية . وقد كانت لكوتار صلات بالطاعون ، فنوّه مثلاً لرامبير عن اختفاء الكلاب التي كانت في الأوقات الطبيعية تملأ الممرات ، وهي متمددةتلتمس لاهثةً رطوبة مستحيلة.

وسلكا « جادّة النخيل » واجتازا « ساحة السلاح » ودلفا إلى « حي البحرية ». وإلى الشمال ، كان ثمة مقهى مطليّ بالأخضر يحتمي في ظل ستار موارب من القماش الأصفر الغليظ . ودخله كوتار ورامبيرو وهما يمسحان جبينهما ، فاتخذا لهما مقعدين على كرسيين من كراسي الحديقة القابلة للطيّ ، أمام طاولتين من الحديد المصفّح الأخضر . وكانت القاعة خالية تماماً ، والجوّ يئنّ بالذباب ، وفي قفص أصفر موضوع على المشرب ، كانت ثمة ببغاء متداعية على مجثمها مضمومة الريش . وكان معلقاً على الجدران لوحات قديمة تمثل مشاهد عسكرية ، تغطيها الادران وخيوط العنكبوت في امتدادات كثيفة . وكانت تجفّ عل جميع الطاولات المصفحة ، وحتى

امام رامبير نفسه ، بقايا من ذرق دجاج لم يفهم مصدرها حقاً حتى خرج من زاوية مظلمة ديك جميل وهو يقفز وقد سبق ظهوره تشويش وبلبلة .

وبدا أن الحرّ يتفاقم في تلك اللحظة . ونزع كوتار سترته وضرب على الطاولة ، فخرج من الداخل رجل قصير ضائع في مريول طويل أزرق، وحيّا كوتار من أبعد ما رآه ، ثم تقدّم وهو يزيح الديك برفسة شديدة ، وسأل هذين السيدين ، وسط ضوضاء الطائر ، ما عساه يقدّمه لهما . فطلب كوتار خمراً أبيض وسأل عن شخص يُدعى غارسيا ، فكان جواب القزم إنه لم يأت إلى المقهى منذ بضعة أيام .

— أتظنّ أنه سيأتي هذا المساء ؟

فأجاب الآخر : — ايه..إنني لست في قميصه .ولكن هل تعرف أوانه؟

— نعم : ولكن هذا ليس هاماً جداً . وإنما لي صديق أريد أن أقدّمه له.

ومسح الخادم يديه الرطبتين بمقدّم مريوله .

— آه ، وهل يهتم السيّد أيضاً بالاعمال ؟

فأجاب كوتار : — نعم .

وعاد القزم يتنفّخ :

— إذن عودا هذا المساء . سوف أرسل له الصبي .

وإذ خرجا ، سأل رامبير عمّا عساها تكون الاعمال التي ذكرها؟

— أعمال التهريب طبعاً . إنهم يهربّون بضائع عبر أبواب المدينة ، ويبيعونها بأسعار فاحشة .

فقال رامبير : — حسناً . ولكن هناك من يشاركهم ؟

— طبعاً .

وفي المساء ، كان الستار قد رُفع ، وكانت الببغاء تثرثر في قفصها ، وطاولات الحديد المصفّحة يكتنفها رجـــال قصيرو الأكمام . ولدى دخول كوتار نهض أحدهم ، وكان واضعاً قبعته إلى خلف ، وفاتحاً قميصه الأبيض عن صدر لونه لون الارض المحروقة . وكان له وجه عادي مدبوغ ، وعينان سوداوان صغيرتان ، وأسنان بيض ، وفي أصابعه خاتمان أو ثلاثة ، وكان يبدو في الثلاثين تقريباً . وقد قال :

ــ تحية . لنذهب إلى المشرب .

وشربوا ثلاث نوبات صامتين . وإذ ذاك قال غارسيا :

ــ ما رأيكما في أن نخرج ؟

وهبطوا نحو المرفأ ، وسأل غارسيا عما كانا يريدان منه ، فقال له كوتار إنه لا يريد أن يقدم له رامبير من أجل الاعمال على وجه التحقيق ، وإنما من أجل ما سمّاه « خروجاً ». وكان غارسيا يمشي أمامه مستقيماً وهو يدخن ، وجعل يطرح الاسئلة قائلاً « وهو » في حديثه عن رامبير كأنه لا يشعر بوجوده . وقال :

ــ وما سبب خروجه ؟

ــ إن زوجته في فرنسا .

ــ آه !

وبعد فترة :

ــ ما مهنته ؟

ــ صحفي .

ــ إنها مهنة يتكلمون فيها كثيراً .

وظل رامبير صامتاً ، فقال كوتار :

ــ إنه صديق .

وتابعوا تقدّمهم في صمت ، فاذا هم يبلغون أرصفة المحطة التي كان الدخول اليها ممتنعاً بحواجز كبيرة . ولكنهم توجهوا نحو مشرب صغير يباع فيه السردين المقلي الذي كانت رائحته تنبعث في أنوفهم .

وانتهى غارسيا إلى القول :ــ مهما يكن من أمر ،فإن هذا الأمر لايعنيني ، وإنما يعني راوول ، وينبغي لي أن أجده ، ولن يكون هذا أمراً سهلاً .

فسأله كوتار بحيوية : ــ آه ! هل هو مختبىء ؟

فلم يجب غارسيا . وتوقف بالقرب من المشرب والتفت نحو رامبير للمرة الأولى :

ــ بعد غدٍ ، الساعة الحادية عشرة ،في زاوية ثكنة الكمارك في أعلى المدينة .

وهمّ بأن يمضي ، ولكنه التفت مرة أخرى إلى الرجلين وقال :

ــ ولا بدّ من بعض النفقات .

فأجاب رامبير مُقرّاً : ــ طبعاً .

وبعد قليل شكر الصحفي كوتار ، فأجابه الآخر بجذل :

ــ أوه ! كلا . إنه ليسرني أن أقدّم لك خدمة . ثم إنك صحفي ، ولا بدّ أن تبادلني إياها يوماً .

وفي اليوم التالي ، كان رامبير وكوتار يسلكان الشوارع الكبيرة الخالية من الظلال المؤدية إلى أعلى مدينتنا . وكان جزء من ثكنة الكمارك قد حوّل إلى دار للتمريض ، وكان يقف أمام الباب الكبير أناس أتوا يرجون زيارة لا سبيل للسماح بها أو التماساً لمعلومات ستبطل بين ساعة وأخرى . ومهما يكن من أمر ، فان هذا التجمّع كان يتيح كثيراً من الذهاب والاياب ،

وبالامكان الافتراض بأن هذا الاعتبار لم يكن غريباً على الطريقة التي حُدّد بها موعد لقاء غارسيا ورامبير . وقال كوتار :

ــ غريبٌ هذا الإصرار على الذهاب .. وإن ما يحدث بالاجمال جديرٌ بكل اهتمام .

فأجاب رامبير : ــ لا بالنسبة إليّ .

ــ أوه طبعاً ، فان في القضية بعض المخاطرة . ولكن كان ثمة مخاطرة كهذه أيضاً ، قبل الطاعون ، في اجتياز حيّ آهل .

وفي تلك اللحظة توقفت سيارة ريو بالقرب منهم . وكان تارو يقودها ، وريو يكاد أن ينام فيها . وقد أفاق ليعرّف الناس فيما بينهم ، فقال تارو :

ــ إننا نعرف بعضنا ، فنحن نسكن في فندق واحد .

وعرض على رامبير أن يقوده إلى المدينة .

ــ كلا ، إن عندنا هنا موعداً لمقابلة .

فنظر ريو إلى رامبير ، فاذا هو يهزّ رأسه بالاقرار . وبدت الدهشة على كوتار :

ــ آه ... إن الطبيب على علم بالأمر ؟

وقال تارو وهو ينظر إلى كوتار :

ــ ها هو ذا قاضي التحقيق .

فتغيّرت سحنة كوتار . والواقع أن السيد أوتون كان يهبط الشارع تلك اللحظة متجهاً اليهم بخطوة قوية ولكنها موزونة . ورفع قبعته إذ ألمّ بهم فقال تارو :

ــ مرحباً يا سيدي القاضي .

فردّ القاضي التحية لركاب السيارة ، ثم نظر إلى كوتار ورامبير اللذين كانا لا يزالان في الخلف ، فحيّاهما برأسه تحية رصينة . وقدّم له تارو المتمولَ والصحفي . ونظر القاضي إلى السماء لحظة ثم تنهّد وهو يقول : إنها حقبةٌ حزينةٌ جداً .

ـ قيل لي يا سيّد تارو إنك تهتم بتطبيق التدابير الوقائية ، ولا يمكنني أن أقرّك على ذلك . أتظن يا دكتور أن الوباء سيتفاقم انتشاره ؟

فقال ريو إن الامل كبير في ألاّ يتفاقم ، وردّد القاضي بأنه ينبغي للمرء دائماً أن يؤمّل الخير ، ما دام من المستحيل النفاذ إلى أهداف العناية الإلهية . وسأله تارو عما إذا كانت الحوادث قد سبّبت له مزيداً من العمل.

ـ بالعكس ، فإن الاعمال التي نسمّيها « حقاً عاماً » تتناقص . إنني لا أحقّق بعدُ إلاّ في التقصير الشديد في التدابير الجديدة . أما القوانين القديمة فلم تكن يوماً محترمة كما هي اليوم .

فقال تارو : ـ ذلك راجع إلى أنها لابدّ من أن تكون صالحة بالمقارنة.

فكفّ القاضي عن الهيئة الحالمة التي كان غارقاً فيها وكأنما نظره معلّق بالسماء ، ونظر إلى تارو يتفحصه بنظرة باردة ثم قال :

ـ وما شأن ذلك ؟ ليس الاعتماد على القانون ، وإنما على الدينونة ، وليست لنا فيها من حيلة .

وحين ذهب القاضي قال كوتار :
ـ إن هذا هو العدوّ رقم واحد .
وانطلقت السيارة .

وبعد ذلك بقليل ، رأى رامبير وكوتار أن غارسيا يصل اليهما من غير أن يشير أية إشارة ويقول كأنما يحيّيهما : « يجب الانتظار ».
وكان الجمع حولهم ، وأكثره من النساء ، يترقب في صمت مطلق .

وكانت جميع النساء يحملن سلالاً يأملن أملاً لا جدوى فيه أن يهرّبنها إلى ذويهن المرضى ، ويعتقدن اعتقاداً أشدّ جنوناً بـأن هؤلاء يستطيعون أن يستعملوا هذه المؤن . وكان يحرس الباب حراس مسلّحون، وكانت صرخة غريبة تخترق بين آن وآن الساحة التي تفصل الثكنة عن الباب ، فتلتفت إلى دار التمريض إذ ذاك وجوهٌ من الحضور قلقة .

وكان الرجال الثلاثة يتأملون هذا المشهد حين انبعث من ورائهم صوت رصين صافٍ يحييهم فالتفتوا اليه . فإذا هو راوول الذي كان يرتدي ثياباً كاملة بالرغم من الحرارة . كان طويلاً قوياً ، يلبس ثوباً تتقاطع ألوانه الغامقة وقبعة من اللّبد مثنية الاطراف، وكان وجهه ممتقعاً بما فيه الكفاية ، وعيناه قاتمتين وفمه مزموماً . وقد جعل يتكلم بسرعة ودقة :

ـ اتجهوا نحو المدينة . وأنت بوسعك أن تتركنا يا غارسيا .

وأشعل غارسيا سيكارة وتركهم يبتعدون . وسارا بسرعة لتنسجم مشيتهما مع مشية راوول الذي كان يسير وسطهما . وقال :

ـ لقد شرح لي غارسيا القضية . وبالامكان القيام بها . وهي على أي حال تكلفكما عشرة آلاف فرنك .

فأجاب رامبير إنه يقبل .

ـ ستتناولان الغداء معي غداً في مطعم البحرية الاسباني .

فقال رامبير إنه موافق وشدّ راوول على يده ، مبتسماً للمرة الأولى. وبعد ذهابه اعتذر كوتار ، فهو لم يكن حـراً في اليوم التالي ، ثم إن رامبير لم يكن بحاجة اليه بعد .

وحين دلف الصحفي في اليوم التالي إلى المطعم الاسباني التفتت لمروره الرؤوس جميعاً . ولم يكن يتردد إلى هذا الكهف المعتم الواقع في مؤخرة

شارع أصفر جففته الشمس إلا رجالٌ معظمهم من الطراز الاسباني . ولكن ما ان أومأ راوول ، وكان جالساً إلى طاولة في الداخل ، إلى الصحفي ، وما أن اتجه إليه رامبير ، حتى اختفى الفضول عن الوجوه التي عادت إلى صحونها . وكان يجلس إلى طاولة راوول شاب طويل هزيل غير محفوف الذقن ، ذو كتفين مغرقتين في العرض ووجه حصاني وشعر خفيف .وكانت ذراعاه الطويلتان النحيلتان اللتان يغطيهما الشعر الاسود ، تخرجان من قميص مشمّر الكمّين . وقد هزّ رأسه ثلاث مرات حين قُدّم رامبير اليه، ولم ينطق راوول باسمه وإنما كان يكتفي بالقول : « صديقنا ».

– إن صديقنا يعتقد أن بوسعه أن يساعدك ، وهو سوف ...

وتوقف راوول لأن الخادمة قاطعته سائلة رامبير عما يطلب .

– إنه سوف يَصِل بينك وبين اثنين من أصدقائنا سيعرّفانك على حرّاس كسبنا ودّهم . ولن ينتهي كل شيء إذ ذاك . فان على الحرّاس أنفسهم أن يحكموا على اللحظة المناسبة . وخير الأمور أن تنزل بضع ليالٍ في منزل واحد منهم يسكن بالقرب من الابواب . ولكن ينبغي لصديقنا قبل ذلك أن يقوم بالاتصالات اللازمة . فاذا تمّ كل شيء ، فانما تجري معه هو الحساب .

وهزّ الصديق مرة أخرى وجهه الحصاني من غير أن يكفّ عن مضغ « سلطة » البندورة والفليفلة التي كان يلتقمها . ثم تكلم بلهجة تشوبها لكنة اسبانية خفيفة ، فعرض على رامبير أن يأخذ معه موعداً لليوم الذي يلي اليوم التالي ، في الثامنة صباحاً ، في ساحة الكاتدرائية المسقوفة . فقال رامبير :

– أي بعد يومين .

قال راوول : –ذلك أن الأمر ليس سهلاً .يجب عليّ أن أجد الأشخاص.

وهزّ « الحصان » رأسه مرة أخرى ووافق رامبير من غير حماسة .

وانقضى الوقت الباقي من الغداء بحثاً عن موضوع للحديث. ولكن كل شيء أصبح سهلاً حين اكتشف رامبير أن الحصان كان لاعباً في كرة القدم. وكان هو نفسه قد مارس طويلاً هذه الرياضة. وكان أن جرى الحديث عن بطولة فرنسا، وعن قيمة الفرق الانكليزية المحترفة، وعن التكتيك W. وما أن انتهى الغداء حتى كان الحصان بالغ الحماسة، وقد نزع الكلفة بينه وبين رامبير وأخذ يقنعه أن خير مكان في فرقة ما هو مكان لاعب نصف — الوسط. وقد قال له: « إن لاعب نصف — الوسط هو الذي يوزّع اللعب، وتوزيع اللعب هو في الحق كرة القدم كلها ». وكان رامبير من هذا الرأي، وإن كان قد لعب دائماً في مركز ما قبل الوسط. ولم يقطع المحادثة إلا آلة راديو أذاعت أول الأمر أغاني عاطفية، ثم أعلنت أن ضحايا الطاعون بلغت ليلة أمس مئة وسبعاً وثلاثين. فلم يُبدِ أحدٌ من الحضور حراكاً، وإنما رفع ذو الوجه الحصاني رأسه ونهض، فحذا راوول ورامبير حذوه.

وقبل أن يمضي، شدّ اللاعب نصف—الوسط بقوة على يد رامبير وقال:

— إن اسمي هو غونزاليس.

وبدا لرامبير أن هذين اليومين لن ينتهيا. وقد توجّه إلى ريو وروى له مساعيه بالتفصيل، ثم صحب الطبيب في إحدى زياراته، وودّعه على باب البيت الذي كان ينتظره فيه مريضٌ مشبوه. وقد انبعث في الرواق ضجيج ركض وأصوات تعلن للأسرة وصول الطبيب. وتمتم ريو:

— آمل ألاّ يتأخر تارو.

وكان التعب بادياً عليه. فسأله رامبير:

— هل يسرع الوباء في سيره اكثر مما ينبغي؟

فأجاب ريو بأن الأمر ليس هو هذا، وإن خط الاحصاءات يبطيء في صعوده عما كان. كل ما في الأمر أن وسائل مكافحة الطاعون لم تكن

كافية . وقد قال :

— إننا بحاجة إلى المعدّات . وفي جميع جيوش العالم يحل الرجال عادة محل المعدّات الناقصة . ولكننا نحتاج إلى رجال أيضاً .

— لقد أتى من الخارج أطباء وموظّفون صحّيون .

فقال ريو : — نعم . عشرة أطباء وزهاء مئة رجل . وهذا في الظاهر كثير . ولكنه في الحقيقة لا يكاد يفي بالحاجة في حالة المرض الراهنة . ولن يكفي إطلاقاً إذا تفاقم الوباء .

وأعار ريو سمعه إلى ضوضاء الداخل ثم ابتسم لرامبير وقال له :

— أجل ، عليك أن تعجّل في النجاح .

فمرّ ظلّ على وجه رامبير ، وقال بصوت أصمّ :

— إنك تعرف أنّ الذي يدعوني إلى الذهاب ليس هو هذا .

فأجاب ريو إنه يعرف السبب ، ولكن رامبير تابع يقول :

— أحسب أنني لست جباناً ، في غالب الأحيان على الأقل . ولقد أتيح لي أن أثبت ذلك . وإنما هناك أفكار لا أستطيع أن أتحملها .

فنظر الطبيب اليه مواجهة وقال :

— سوف تلقاها من جديد .

— قد يكون ذلك ، ولكني لا أستطيع أن أتحمل فكرة أن هذا سيطول وأنها ستشيخ طوال هذا الوقت . إن المرء يبدأ يشيخ إذا بلغ الثلاثين ، وينبغي له أن يفيد من كل شيء . لست أدري إن كان بوسعك أن تفهم .

فتمتم ريو أنه يحسب بأنه يفهم . وإذ ذاك وصل تارو ناشطاً حيّاً .

— طلبت إلى بانولو أن ينضمّ الينا .

فسأله الطبيب : وماذا كانت النتيجة ؟

ـ لقد فكر ثم قال نعم .

قال الطبيب :ـ إن هذا ليسرني. إنه يسرني أن أعرف أنه خيرٌ من وعظه.

فقال تارو : كل الناس كذلك . وإنما ينبغي أن يعطوا الفرصة .

وابتسم وهو يغمز بعينه نحو ريو :

ـ إن مهمتي في الحياة هي أن أتيح الفرص .

قال رامبير : أعذرني . يجب أن أذهب .

وذهب رامبير يوم الخميس الذي تواعداه إلى رواق الكتدرائية قبل الساعة الثامنة بخمس دقائق . وكان الهواء لا يزال رطباً . وكانت سحائب صغيرة مستديرة بيض تتقدم في السماء ، ولن تلبث طويلاً حتى تلتهمها الحرارة الصاعدة . وكانت لا تزال تنبعث من أعشاب الحديقة ، بالرغم من جفافها ، رائحة رطبة . ولم تكن الشمس لتدفيء ، خلف بيوت الشرق ، إلا قبعة تمثال جان دارك المذهّب الذي يزين الساحة . ودقّت ساعةٌ الثامنة، فخطا رامبير بضع خطوات في الرواق الخالي . وبلغت سمعه تراتيل تنبعث من الداخل، غامضة مختلطة بروائح بخور وكهوف . وانقطعت التراتيل فجأة، وخرجت من الكنيسة عشرة أطياف سود جعلت تقفز نحو المدينة . وبدأ صبر رامبير ينفد . وكانت ثمة أطياف سود أخرى تصعد السلالم الكبيرة وتتجه نحو الرواق . وأشعل سيكارة ثم استدركها بدعوى أن المكان لا يسمح له بذلك على الأرجح .

وفي الثامنة والربع ، بدأت أراغن الكاتدرائية تصعّد أنغامها ، فدلف رامبير تحت القبة المظلمة . واستطاع أن يرى بعد لحظات في صحن الكنيسة الأطياف الصغيرة السود التي كانت كلها متجمعة في زاوية، بالقرب من شبه مذبح مرتجل نصبت فيه صورة للقديس روش صُنعت على عجل في أحد

محارف مدينتنا . وبدت الأطياف وهي راكعة كأنما هي منطوية على نفسها بعد ، ضائعة في الصورة كأنما هي قطع من الظل متخثّرة تكاد لا تكون أكثف من الضباب الذي كانت تسبح فيه هنا وهناك . وكانت الاراغن فوقها تبعث أنغاماً متنوّعة لا نهاية لها .

وحين خرج رامبير ، كان غونزاليس يهبط السلالم ويتجه نحو المدينة . وقد قال للصحفي :

— حسبت أنك قد ذهبت . وهذا طبيعي .

وأوضح أنه كان قد انتظر أصدقاءه لموعد آخر أعطاهم إياه ، غير بعيد من هناك ، في الثامنة إلا العاشرة . ولكنه انتظرهم عشرين دقيقة عبثاً .

— لا بد أن يكون هناك مانع ما . إن عملاً كالذي نقوم به لا يوفّر دائماً الراحة .

واقترح موعداً آخر لليوم التالي ، في الساعة نفسها ، أمام مبنى الأموات. فتنهد رامبير ودفع قبعته اللبديّة إلى خلف . وانتهى غونزاليس إلى القول وهو يضحك :

— ليس هذا بذي بال . فكر قليلاً بجميع الحيل والنزلات والتمريرات التي يجب القيام بها قبل تسجيل هدف ما .

فقال رامبير : — بكل تأكيد . ولكن المباراة لا تدوم إلا ساعة ونصف الساعة .

وكان مبنى الأموات في وهران يقوم في المكان الوحيد الذي تمكن منه رؤية البحر ، وهو أشبه بمنتزه يمتد على مسافة قصيرة بحذاء الاجراف التي تُطل على المرفأ . وقد وصل رامبير في اليوم التالي ، أول من وصل ، إلى مكان الموعد ، فأخذ يقرأ بتنبّه لائحة الموتى في ساحة الشرف . وبعد بضع

دقائق اقترب رجلان فنظرا اليه من غير اكتراث ثم ذهبا يرتفقان حاجز المتنزه فبدوا أنهما مستغرقان تماماً في تأمل الأرصفة الخالية المهجورة . وكانا كلاهما في طول واحد ، يرتديان بنطلونين متشابهين أزرقين وسترة بحرية ذات كمّين قصيرين . وابتعد الصحفي قليلاً ، ثم جاس على مقعد ،فأتيح له أن يراهما على هواه . ولاحظ إذ ذاك أنهما لم يكونا يتجاوزان العشرين من غير ريب . وفي تلك اللحظة رأى غونزاليس يمشي في اتجاهه وهو يعتذر .

وقال له « هذان هما صديقانا » وقاده إلى الشابين اللذين قدّمهما له باسم مرسيل ولويس . وكانا متشابهين مواجهةً ، مما جعل رامبير يعتقد بأنهما أخوان . وقال غونزاليس :

ــ ها نحن إذن . بعد أن تمّ التعارف ، يجب تدبير القضية نفسها .

وعند ذاك قال مرسيل أو لويس إن دورهما في الحراسة يبدأ بعد يومين ويستمر أسبوعاً وأنه يجب اختيار أنسب الأيام . وكانوا أربعة لحراسة الباب الغوبي ، أما الآخران فكانا من العسكريين . ولم يكن ثمة تفكير في أن يُشركا في العملية ، فهما ليسا موثوقين ، فضلاً عن أن إشراكهما يزيد في النفقات . وإنما يحدث في بعض الأماسي أن يذهب الزميلان فيقضيا شطراً من الليل في قاعة مخفية من حانة يعرفانها . وهكذا اقترح مرسيل أو لويس على رامبير أن يأتي فيقيم عندهما ، على مقربة من الأبواب ، وينتظر ريثما يأتيان اليه ، إذ يسهل حينئذ مروره . ولكن العجلة ضرورية لأن الحديث يجري منذ حين حول إقامة مراكز مزدوجة خارج المدينة .

فوافق رامبير وقدّم لهما بعض سكايره الاخيرة . وإذ ذاك سأل الذي لم يكن قد تكلم حتى ذلك الحين ، سأل غونزاليس عما إذا كان أمر النفقات قد رُتّب ، وعما إذا كان بالامكان تقاضي بعض المال سلفاً ، فأجاب غونزاليس :

ــ كلا ، لا حاجة إلى ذلك . إنه صديق . وستُدفع التكاليف لدى الرحيل .

واتفق على موعد جديد للقاء . واقترح غونزاليس تناول العشاء في مطعم اسباني ، بعد غد ، ومن هناك يمكن الذهاب إلى بيت الحارسين . وقال لرامبير :

ــ سأكون في رفقتك في الليلة الأولى .

وفي اليوم التالي ، التقى رامبير وهو صاعدٌ إلى غرفته بتارو على درج الفندق ، فقال له هذا :

ــ سألقى ريو عما قليل ، فهل تأتي معي ؟

فقال رامبير وهو يتردد : ــ لست أبداً على يقين من أنني لا أزعجه .

ــ لا أظن ذلك . لقد حدّثني عنك كثيراً .

ففكر الصحفي ثم قال :

ــ اسمع ، إذا كان لديك بعض الوقت عقب العشاء ، ولو كان ذلك متأخراً ، فتعاليا إلى مشرب الفندق معاً .

فقال تارو : ــ هذا يتوقف عليه وعلى الطاعون .

ومع ذلك ، فقد دخل ريو وتارو عند الساعة الحادية عشرة إلى المشرب الصغير الضيق . وكان فيه زهاء ثلاثين شخصاً متقاربين جداً ، يتحدثون بصوت مرتفع جداً . وتوقف القادمان الآتيان من سكون المدينة المطعونة ، نَزِقين بعض الشيء ،فأدركا سبب هذا الهياج حين رأيا أن الكحول لا تزال تُقدّم . وكان رامبير قائماً عند طرف من المشرب فأومأ لهما من فوق كرسيه المرتفع ، وما أن أحاطا به،بعد أن دفع رامبير بهدوء جاراً صاخباً .

ــ ألا يخيفك الخمر ؟

فأجاب تارو : — لا ، بالعكس .

واستنشق ريو رائحة العشب المرّ من كأسه . وكان من الصعب التحدّث في هذا الصخب ، ولكن رامبير كان على ما يبدو منهمكاً خصوصاً في الشراب . ولم يكن بوسع الطبيب أن يحكم بعد إذا كان ثملاً . وكان جالساً على إحدى الطاولتين اللتين تشغلان سائر المكان الضيّق ضابطٌ من البحرية ، عن يمينه وشماله امرأتان ، يروي لمتحدّثٍ ضخم الجثة مصاب بعسر الهضم قصة وباء تيفوس عصف بالقاهرة فيقول : « لقد أقاموا للسكان معسكرات ، مع خيمات للمرضى يحيط بها حرس ، كانوا يطلقون النار على الأسرة التي تحاول أن تهرّب عقاقير أعدّتها العجائز . كان هذا قاسياً ولكنه كان عادلا ». أما على الطاولة الأخرى التي كان يجلس اليها شبان أنيقون ، فقد كان الحديث غير مفهوم ، وكان يضيع في إيقاع أغنية يبعثها حاكٍ علّق في مكان مرتفع .

قال ريو رافعاً صوته : — هل أنت مسرور ؟

فأجاب رامبير : — إن الفرَج يقترب . ربما في الأسبوع القادم .

فصاح تارو : — إن هذا مؤسف !

— لماذا ؟

فنظر تارو إلى ريو ، فقال هذا الاخير :

— أوه ! إن تارو يقول ذلك لأنه يعتقد أننا كنا نستطيع أن نفيد منك هنا . أما أنا فأفهم تماماً رغبتك بالذهاب .

وقدم لهما تارو كأساً أخرى . ونزل رامبير عن كرسيه المرتفع ونظر اليه مواجهة للمرة الأولى :

— بمَ أستطيع أن أكون مفيداً لك ؟

فقال تارو وهو يمدّ يده إلى كأسه من غير عجلة :

ــ في تشكيلاتنا الصحيّة .

فاستعاد رامبير طابع التفكير العنيد الذي كان معتاداً عليه وصعد مرة أخرى إلى كرسيه المرتفع .

وكان تارو قد شرب من كأسه ونظر إلى رامبير بتنبّه فسأله :

ــ أليست هذه التشكيلات في نظرك مفيدة ؟

فقال الصحفي : ــ مفيدة جداً .

وجعل يشرب ، فلاحظ ريو أن يده ترتعش ، ففكر أنه لا بدّ أن يكون قد ثمل تماماً .

وفي اليوم التالي ، حين دخل رامبير للمرة الثانية إلى المطعم الاسباني ، مرّ في وسط جمع صغير من الرجال كانوا قد أخرجوا كراسي أمام المدخل ليتمتعوا بمساء أخضر ذهبي بدأ الحرّ فيه يهبط . وكانوا يدخّنون تبغاً ذا رائحة حامزة . أما في الداخل ، فكان المطعم خالياً تقريباً . ودلف رامبير فجلس إلى الطاولة التي التقى عندها بغونزاليس للمرة الأولى . وقال للخادمة إنه سينتظر . وكانت الساعة التاسعة عشرة والنصف . وما لبث الرجال أن دخلوا إلى قاعة الطعام واتخذوا فيها مجالسهم ، فبدأ الطعام يُقدّم لهم ، وامتلأ المكان بضجيج الصحون والملاعق والأحاديث . وبلغت الساعة العشرين ورامبير قائمٌ ينتظر .

وأضيئت الأنوار ، فجلس زبائن جدد على طاولته . وطلب عشاءه ، وفرغ منه عند الساعة العشرين والنصف من غير أن يرى غونزاليس أو الشابين . وجعل يدخن السكائر بينما أخذت القاعة تفرغ شيئاً فشيئاً . وكان الليل في الخارج يهبط سريعاً ، وأقبلت نسمة فاترة من البحر فرفعت ستائر

الأبواب ــ النوافذ قليلاً .وحين بلغت الساعة الحادية والعشرين لاحظ رامبير أن القاعة أمست خالية وأن الخادمة كانت تنظر اليه بدهشة . فدفع وخرج . وكان ثمة مقهى مفتوح مواجه للمطعم ، فأقام رامبير على المشرب ، وراح يراقب مدخل المطعم . وفي الساعة الواحدة والعشرين والنصف ، توجه نحو فندقه، يتساءل من غير جدوى كيف له أن يلتقي بغونزاليس وهو لا يملك عنوانه ، وشعر بقلق وهو يفكر بجميع المساعي التي ينبغي له أن يقوم بها من جديد .

وقد قال لريو فيما بعد إنه أدرك في تلك اللحظة من الليل الذي كانت تجتازه سيارات الاسعاف أنه قد نسي زوجته طوال تلك المدة ، لينصرف كلياً إلى البحث عن فتحة في الجدران التي كانت تفصله عنها . ولكنه في تلك اللحظة أيضاً ، وقد سُدّت جميع المنافذ مرة أخرى ، وجدها من جديد قائمة وسط رغائبه، بانفجار عذاب بلغ من فجاءته أنه دفعه إلى أن يعدو نحو فندقه فراراً من هذا الحرق الفظيع الذي يحمله معه والذي كان يتأكل صدغيه.

ومع ذلك ، فقد قصد ريو في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ليسأله كيف له أن يجد كوتار .

ــ كل ما بقي لي أن أفعله هو أن أتبع من جديد « الشبكة » .

فقال له ريو : ــ تعال مساء غد . فقد سألني تارو أن أدعو كوتار ، ولا أدري لماذا . وهو سيأتي في العاشرة ، فتعال أنت في العاشرة والنصف.

وحين وصل كوتار إلى بيت الطبيب في اليوم التالي ، كان تارو وريو يتحدثان عن شفاء لم يكن منتظراً تمّ لأحد مرضى هذا الأخير . وكان تارو يقول :

ــ واحد على عشرة . إنه محظوظ .

فقال كوتار : ــ آه ... حسناً . لم يكن الطاعون .

فأكدوا له أن الأمر لم يكن إلا الطاعون :

– ليس هذا ممكناً ما دام قد شفي . أنت تعرف ذلك مثلي ، فالطاعون لا يصفح .

قال ريو : – هذا صحيح بصورة عامة . ولكن المفاجآت تأتي عَقِبَ شيء من العناد .

فضحك كوتار :

– لا يبدو ذلك . هل سمعت الأرقام ، هذا المساء ؟

وكان تارو ينظر إلى التاجر بتيقّظ ، فقال إنه يعرف الأرقام وإن الوضع خطر ، ولكن عمّ يكشف ذلك ؟ إن ذلك كان يكشف عن وجوب اتخاذ تدابير استثنائية أكثر صرامة .

– ايه ! لقد سبق أن اتخذتموها .

– هذا صحيح ، ولكن ينبغي لكل انسان أن يتخذها لحسابه .

فجعل كوتار ينظر إلى تارو من غير أن يفهم . فقال هذا إن عدداً أكبر مما ينبغي من الرجال لا يعملون شيئاً ، وإن الوباء هو قضية كل انسان ، وإن كل على انسان أن يقوم بواجبه . إن التشكيلات تستقبل كل متطوع .

قال كوتار : – إنها فكرة ، ولكنها لن تفيد شيئاً . إن الطاعون أقوى من ذلك كله .

فقال تارو بلهجة صابرة : – سنعرف ذلك متى حاولنا كل شيء .

وكان ريو في ذلك الوقت ينسخ البطاقات أمام مكتبه . وكان تارو لايزال ينظر إلى التاجر المتموّل الذي يضطرب في كرسيه :

– لماذا لا تأتي معنا ، يا سيد كوتار ؟

فنهض الآخر وعليه سيماء الانزعاج ، وتناول قبعته المستديرة وقال :

ـ ليست هي مهنتي .

ثم قال بالهجة استعداء :

ـ ثم إنني سعيد في الطاعون ، ولا أفهم أن أتدخّل في سبيل وقفه !

فضرب تارو جبينه ، كأنما برقت له حقيقة مفاجئة :

ـ آه ! هذا صحيح .. لقد نسيت . لولا ذلك لأوقفوك .

فعرت كوتار انتفاضة ، وأمسك بالكرسي كما لو أنه موشاك على السقوط . وكفّ ريو عن الكتابة وجعل ينظر اليه بجدية واهتمام. وصاح التاجر :

ـ من قال لك ذلك ؟

فبدت على تارو الدهشة وقال :

ـ أنت نفسك . أو على الأقل . هذا ما فهمناه ، أنا والطبيب .

وغشيت كوتار فجأة عاصفة من غضب لم يَقْوَ على تحمّاها ، فجعل يتمتم كلمات غير مفهومة . فأضاف تارو :

ـ لا تَثُرْ أعصابك . لن نشي باك ، لا أنا ولا الطبيب . إن قصتاك لا تعنينا . ثم اني لا أحبّ رجال الشرطة على الاطلاق . فلتهدأ نفسك ، ولتجلس .

فنظر المتموّل إلى كرسيه وجلس بعد تردّد . وتنهّد بعد لحظات ، ثم قال معترفاً :

ـ إنها قصة قديمة أخرجوها الآن . وقد كنت أظنّ أنها نُسيت . ولكن هناك واحداً تكلّم ، فاستدعوْني وطلبوا مني أن أكون تحت تصرّفهم حتى نهاية التحقيق ، ففهمت أنه سينتهي بهم الأمر إلى القبض عليّ .

فسأل تارو : ـ وهل في القضية خطورة ؟

– هذا يتوقف على ما تعنيه . ليس في الأمر قتلٌ على أي حال .

– أسجنٌ أم أشغال شاقة ؟

فبدا كوتار شديد الغمّ :

– سجنٌ إذا كنت محظوظاً ...

ولكنه عاد بعد لحظات يقول بحماسة :

– إنها غلطة . وجميع الناس يرتكبون الغلطات . وأنا لا أستطيع أن أتحمل فكرة القبض عليّ بسببها ، أن أُفصل عن بيتي ، عن عاداتي ، عن جميع الذين أعرفهم .

فسأله تارو : – أمن أجل ذلك فكّرت بأن تشنق نفسك ؟

– نعم . هذه حماقة دون ريب .

فتكلم ريو للمرة الأولى وقال لكوتار إنه يفهم قلقه ، ولكن ربما سُوّي كل شيء .

– أوه ! أعرف أنه ليس ثمة ما أخشاه في الوقت الحاضر .

قال تارو : – أرى ذلك . إنك لن تنخرط في تشكيلاتنا .

وكان كوتار يقلّب قبعته بين يديه ، فرفع إلى تارو نظرة قلقة .

– ينبغي ألاّ تؤاخذني على ذلك .

فقال تارو وهو يبتسم : – بكل تأكيد لا . ولكن حاول على الأقل ألا تنشر الجرثومة بارادتك .

فاحتجّ كوتار بأنه لم يُرد الطاعون ، وإنما وصل الطاعون هكذا ، وأنه ليس الخطأ خطأه إذا كان الوباء يرتّب أعماله الآن . وحين وصل رامبير إلى الباب أضاف التاجر بكثير من الحيوية في صوته :

– ويبقى بعد ذلك أنكم لن تصلوا الى شيء على ما أعتقد .

وعلم رامبير أن كوتار يجهل عنوان غونزاليس ، وأن بالامكان مع ذلك العودة إلى المقهى . وقد أخذ موعد لقاء في اليوم التالي . وإذ أظهر ريو رغبته في أن يقف على مجرى الامور ، دعاه رامبير هو وتارو إلى غرفته ، في أية ساعة من الليل ، في نهاية الاسبوع .

وفي الصباح ، قصد كوتار ورامبير المقهى الصغير وتركا فيه لغارسيا موعداً للمساء ، أو لليوم التالي في حال قيام مانع ما . وقد انتظراه في المساء دون ما طائل . ولكن غارسيا كان هناك في اليوم التالي . وقد استمع وهو صامت إلى قصة رامبير ، ولم يكن مطلعاً على القضية ، ولكنه كان يعرف أن أحياء برمّتها قد حُوّطت طوال أربع وعشرين ساعة لإجراء تحقيقات منزلية ، وربما لم يستطع غونزاليس والشابان أن يجتازوا الحواجز . على أن كل ما كان بوسعه هو أن يصلهم مجدداً براوول . وهذا لن يتم طبعاً قبل بعد غد . قال رامبير :

– وإذن ، ينبغي أن نبدأ كل شيء من جديد .

وفي اليوم التالي ، في ركن من شارع ، أكّد راوول افتراض غارسيا ، فإن الاحياء السفلى قد حُجزت . وكان لا بدّ من الاتصال ثانية بغونزاليس. وبعد يومين ، كان رامبير يتناول الغداء مع لاعب كرة القدم . وقد قال له هذا :

– إن ما حدث أمرٌ بليد . كان ينبغي أن نتفق على طريقة للقاء .

وكان هذا أيضاً رأي رامبير :

– سنذهب صباح الغد إلى الشابين ونحاول أن نسوّي كل شيء .

ولكن الشابين لم يكونا صباح اليوم التالي في منزليهما ، فتُرك لهما موعد للقاء ظهر اليوم التالي في ساحة الليسيه . وقد عاد رامبير إلى منزله وعلى

وجهه سيماء عجب لها تارو حين التقى به بعد الظهر فسأله :

— ألا تجري الامور وفق المراد ؟

فقال رامبير : — ما دمنا نبدأ من جديد ...

ثم جدّد دعوته :

— تعال هذا المساء .

وكان رامبير متمدداً إذ دخل عليه الرجلان في المساء . فنهض وملأ كؤوساً كان قد أعدّها . وحين تناول ريو كأسه ، سأله إن كان الأمر يجري في سبيله السويّ ، فقال الصحفي إنه قام مجدداً بدورة كاملة ، وإنه بلغ النقطة نفسها ، وإنه سيحصل عمّا قليل على آخر موعد للقاء . وشرب من كأسه وأضاف :

— وبالطبع ، فإنهم لن يأتوا .

فقال تارو : — لا ينبغي أن تتخذ من ذلك مبدأ .

فأجاب رامبير وهو يهزّ كتفيه : — إنك لم تفهم بعد .

— ماذا ؟

— الطاعون .

قال ريو : — آه ...

— كلا ... لم تفهم أن هذا يتطلب البدء من جديد كل مرة .

وذهب رامبير إلى ركن من غرفته وأدار حاكياً صغيراً . فسأله تارو :

— ما هذه الاسطوانة ؟ إني أعرفها .

فأجابه رامبير : — إنها « دار تمريض سانت جيمس » .

وفيما الاسطوانة دائرة ، سمع طلقان ناريان من بعيد . فقال تارو :

ـ إنه كلب أو فرار .

وانتهت الاسطوانة بعد لحظة ، فاتضح رويداً صوت سيارة اسعاف . وتفاقم الصوت وهو يمرّ تحت نوافذ غرفة الفندق ، ثم تناقص وانطفأ أخيراً.
قال رامبير :

ـ هذه الاسطوانة ليست طريفة . ثم أني سمعتها اليوم للمرة العاشرة .

ـ أتحبها إلى هذا الحد ؟

ـ لا ، ولكني لا أملك سواها .

وبعد لحظة :

ـ إني أقول لكم إن الأمر يتلخص في البدء من جديد كل مرة .

وسأل ريو عن سير التشكيلات . كان هناك خمس فرق تعمل ، وكان الامل أن تتشكل فرق أخرى . وكان الصحفي قد جلس على سريره وبدا منشغلاً بأظافره . وكان ريو يتفحص شكله القصير القوي المتجمّع على حافة السرير . ولاحظ فجأة أن رامبير كان ينظر اليه ، فقال له :

ـ أتعرف يادكتور ؟.. لقد فكرت طويلا بمنظمتكم . وإذا لم أكن معكم ، فلأن لي أعذاري . أما ما يبقى ، فأحسب أني قادر على المخاطرة بنفسي . لقد اشتركت في حرب اسبانيا .

فسأله تارو : مع أي فريق ؟

ـ مع فريق المنهزمين . ولكني منذ ذلك الحين ، فكرت قليلاً .

فسأله تارو : ـ وبمَ ؟

ـ بالشجاعة . وأنا الآن أعلم أن الانسان جدير بالاعمال العظيمة . ولكنه إن لم يكن جديراً بعاطفة كبيرة ، فهو لا يهمّني .

قال تارو : ـ يخيل الينا أنه جدير بكل شيء .

ـ لا . إنه غير جدير بأن يتألم أو يكون سعيداً مدة طويلة . فهو إذن

غير جدير بشيء ذي أهمية .

ونظر اليهم ثم أضاف :

ــ اسمع يا تارو . هل أنت جدير بالموت من أجل حب ؟

ــ لا أدري . ولكن يخيّل إليّ أني لست كذلك الآن .

ــ هكذا . إنك لجدير بالموت من أجل فكرة ، هذا ظاهر للعيان . أما أنا ، فحسبي من هؤلاء الناس الذين يموتون من أجل فكرة . إنني لا أؤمن بالبطولة ، فأنا أعرف أن هذا أمر سهل ، وقد تعلّمت أنه أمرٌ مُتلِف خَطِر . إن الذي يهمني أن يعيش الانسان ويموت من أجل ما يحبّ .

وكان ريو قد استمع إلى الصحفي باهتمام . ومن غير أن يكفّ عن النظر اليه قال بلطف :

ــ إن الانسان ليس فكرة ، يا رامبير .

فقفز الآخر من سريره ، وقد التهب وجهه حماسة :

ــ إنه فكرة ، وفكرة قصيرة ، منذ اللحظة التي ينصرف فيها عن الحب . والحقيقة أننا بتنا غير جديرين بالحب . فلنستسلم يا دكتور . ولننتظر أن نصبح جديرين به ، فاذا كان هذا غير ممكن حقاً ، فلننتظر الخلاص العام من غير أن نمثّل دور البطولة . إنني أنا لن أذهب إلى أبعد من ذلك .

ونهض ريو وقد بدا عليه عياء مفاجيء :

ــ أنت على حق يا رامبير ، على حق تام ، وليس بودي على الاطلاق أن أصرفك عما تنوي أن تعمله ، وهو يبدو لي عادلاً وجيداً . ولكن ينبغي أن أقول لك : ليست القضية في هذا كله قضية بطولة ، وإنما هي قضية شرف . ولعل هذه فكرة تبعث على الضحك ، ولكن الطريقة الوحيدة لمحاربة الطاعون هي الشرف .

قال رامبير بلهجة رصينة : ــ وما هو الشرف ؟

ـ لا أدري ما هو على العموم . ولكن أعلم أنه ـ في مثل وضعي ـ يتلخص في أن أقوم بمهنتي .

قال رامبير مزمجراً : ـ آه..أنا لا أدري ما هي مهنتي . ربما كنت حقاً على ضلال في اختيار الحب .

فجابهه ريو بقوة يقول : ـ كلا .. لست على ضلال .

ونظر رامبير اليهما وهو يفكر :

ـ أظن أنكما ليس لكما ما تخسرانه في هذا كله . فالأمر أيسر إذا كان المرء في الجانب الطيّب .

وأفرغ ريو كأسه وقال :

ـ لنذهب . إن عندنا أعمالاً .

وخرج فتبعه تارو ، ولكنه عدل قبل أن يخرج والتفت إلى الصحفي وقال له :

ـ هل تعرف أن زوجة ريو موجودة في دار للاستشفاء على بعد بضع مئات من الكيلومترات ؟

فبدت من رامبير حركة اندهاش ، ولكن تارو كان قد مضى .

وفي الساعة الأولى من اليوم التالي ، اتصل رامبير تلفونياً بالطبيب وسأله :

ـ هل تقبل بأن أعمل معكم إلى أن أجد وسيلة للخروج من المدينة ؟

فمرّت لحظة صمت في طرف الخطّ الآخر ، ثم قال ريو :

ـ نعم يا رامبير . وإني أشكرك .

٣

وهكذا ظـــلّ أسرى الطاعون طـــوال الاسبوع يتخبّطون على قدر استطاعتهم . وقد توصل بعضهم ، كرامبير ، إلى أن يتصوّروا أنهم إنما كانوا يتصرّفون بعدُ كرجال أحرار ،وأنهم يستطيعون بعدُ أن يختاروا. ولكن بالامكان القول إن الطاعون،في تلك الفترة ، منتصف شهر آب ، كان قد اكتسح كل شيء . لم تبق ثمة إذ ذاك أقدار فردية ، وإنما تاريخ جماعي هو الطاعون ، ومشاعر يتقاسمها الجميع . وكان أكبر هذه المشاعر الافتراق والنفي ، مع ما يحتمل ذلك من خوف وتمرّد . من أجل هذا يعتقد الراوي أنه يحسن به ، في تلك الذروة من الحرّ والوباء ، أن يصف الوضع العامّ ، وعلى سبيل المثال ، فورات مواطنينا الاحياء العنيفة، ودفن الموتى ، وألم العشاق الذين فـُرّق بينهم .

في منتصف ذلك العام ، هبّت الريح على المدينة المطعونة وأنّت طوال بضعة أيام . والواقع أن سكان وهران كانوا يخشون الريح خشية خاصة لأنها لا تلاقي أي حاجز طبيعي على النجد الذي أقيمت عليه المدينة ، فإذا هي تغور في الشوارع بكل عنفها . وقد غشي المدينة بعد هذه الأشهر الطويلة التي لم ترطّب فيها الأرضَ قطرةُ ماء واحدة، طلاءٌ أربد أخذ يتفتّت تحت عصف الريح . وهكذا كانت هذه الريح تثير موجات من الغبار والأوراق التي كانت تصفق سيقان المتنزهين القلائل ، فإذا هم يحثّون الخطى في

الشوارع ، حانين إلى الامام ظهورهم ، رافعين أيديهم أو مناديلهم إلى فمهم . حتى إذا أقبل المساء حلّت محلّ التجمّعات التي كانوا يحاولون فيها تمديد هذه الايام التي قد يكون كلّ منها هو الأخير ، فرقٌ صغيرة تستعجل العودة إلى البيت أو الدخول إلى المقاهي ، حتى أن الشوارع كانت تُقفر حين يبدو الشفق الذي كان يبكّر في الظهور تلك الفترة ، وتأخذ الريح وحدها تبثّ شكاواها الموصولة . وكانت تنبعث من البحر الهائج الذي لا يُرى رائحة أشنة وملح . إذ ذاك كانت هذه المدينة المقفرة المبيضة بالغبار الراشحة بالروائح البحرية ، المصدية بصرخات الريح ، تئن كأنها جزيرة تعيسة .

وحتى الآن ، كان الطاعون قد خلّف من الضحايا في الاحياء الخارجية الأوفر سكاناً والأقل عمراناً، عدداً أكبر مما خلفه في وسط المدينة. ولكنه بدا فجأة يقترب من الاحياء التجارية أيضاً ثم يقيم فيها . وكان السكان يتّهمون الريح بحمل جراثيم العدوى . وكان مدير الفندق يقول « إن الريح تخلط الورق! » . ومهما يكن من أمر ، فقد كانت أحياء الوسط تعرف أن دورها قد أتى ، إذ كانت تسمع بالقرب منها أجراس سيارات الاسعاف التي كانت تدقّ تحت نوافذها نداء الطاعون الكئيب .

وقد فكروا في عـــزل بعض الاحياء المصابة بشكل خاصّ في داخل المدينة نفسها ،وفي ألاّ يسمحوا بالخروج منها إلاّ للرجال الذين كانت خدمتهم لا غنى عنها . فـــأما الذين كانوا يعيشون فيها حتى الآن ، فلم يتمالكوا من اعتبار هذا التدبير إزعاجاً موجهاً اليهم، وأخذوا على أي حال يفكرون مقابل ذلك بسكان باقي الاحياء كأناس أحرار. أما هؤلاء فقد كانوا في أوقاتهم الصعبة يتعزّون بأن يتصوّروا أن آخرين كانوا دونهم حريّة ، وكانت العبارة التي تلخص الأمل الوحيد الممكن هي : « إنّ هناك سجناً أضيق من سجني » .

وفي تلك الحقبة تقريباً ، ارتفع عدد الحرائق أيضاً وخاصة في الاحياء المفتوحة للتنزه ، عند أبواب المدينة الغربية . وقد تبين بعد حين أن الأشخاص الذين عادوا من المحاجر ارتاعوا لما أصاب المدينة من حداد وشقاء ، فأخذوا يشعلون ببيوتهم النار ظناً منهم أنهم يميتون بذلك الطاعون . وقد صَعُبَ جداً مقاومة هذه الأعمال التي كانت كثرتها تخضع أحياء المدينة كلها لخطر دائم نظراً لقوة الريح . وبعد أن بذل المسؤولون عبثاً جهوداً كثيرة للتدليل على أن تطهير البيوت الذي أجرته السلطات كان يكفي لإبعاد خطر أيّ عدوى ، اضطروا إلى وضع عقوبات قاسية جداً ضد مشعلي هذه الحرائق الأبرياء . ولا ريب في أن هؤلاء الاشقياء لم يتراجعوا خوفاً من فكرة السجن ، وإنما يقيناً منهم جميعاً بأن عقوبة السجن كانت تعادل عقوبة الموت ، نظراً لارتفاع عدد الوفيات في الحبس البلدي . ولم يكن هذا الاعتقاد طبعاً دون ما أساس . فقد كان يبدو ، لأسباب بديهية ، أن الطاعون يختصّ ببلائه جميع الذين اعتادوا على العيش جماعات ، كالجنود ورجال الدين والمساجين . ذلك أن السجن ، بالرغم من عزل بعض الموقوفين ، هو مكان مشترك ، ومما يثبت ذلك أن الحرس في سجننا البلدي كانوا يدفعون للوباء جزيتهم كما يدفعها المساجين أنفسهم . لقد كان جميع الناس ، من المدير حتى آخر موقوف ، محكوماً عليهم ، من وجهة نظر الطاعون العليا ، وهكذا كان يسود السجن عدلٌ مطلق ، وربما كان ذلك للمرة الأولى .

وعبثاً حاولت السلطات أن تقيم تراتباً في هذه المعادلة بأن تمنح الأوسمة لحراس السجن الذين يموتون في أثناء تأدية عملهم . ولما كانت حالة الحصار معلنة ، وكان يمكن اعتبار حراس السجن ، من زاوية ما ، مجنّدين ، فقد كانوا يُمنحون الوسام العسكري بعد موتهم . ولكن إذ لم يصدر عن المساجين أي احتجاج ، فان الاوساط العسكرية لم تنظر بعين الرضى إلى القضية ونوّهت بحقّ بأن بلبلة مؤسفة ربما قامت في أذهان الجمهور . ولذلك أقرّ طلب هذه

السلطات ، وروئي أن أيسر الامور هو منح الحرّاس الذين يموتون « وسام الوباء ». أما بالنسبة إلى الاولين ، فان القضية كانت قد تمت ، فلم يكن ثمة سبيل إلى سحب الأوسمة منهم ، وظلت الاوساط العسكرية مصرّة على وجهة نظرها . ومن جهة أخرى ، فان وسام الاوبئة كانت له سيئة واحدة ، هو أنه لم يكن ليحدث التأثير المعنوي الذي تمّ بمنح وسام عسكري ، لأنه من التافه في فترة الوباء الحصول على وسام من هذا النوع . وهكذا كان الجميع مستائين .

وبالاضافة إلى ذلك ، فان إدارة السجون الاصلاحية لم تستطع أن تتصرف كالسلطات الدينية والعسكرية . فالواقع أن رهبان الديرين الوحيدين في المدينة كانوا قد توزّعوا وسكنوا موقتاً في منازل أسرٍ تقيّة . وكذلك ، وكلما أمكن ذلك ، فُصلت فصائل صغيرة من الثكنات وعسكرت في مدارس أو بنايات عامة . وهكذا تمكّن الوباء الذي أجبر السكان في الظاهر على تكافل المحاصرين ، من أن يحطم في الوقت نفسه التجمّعات التقليدية وأن يردّ الافراد إلى عزلتهم . وقد شاع من جراء ذلك الاضطراب .

وبالامكان التفكير بأن جميع هذه الظروف ، مضافة إلى الريح ، نقلت الحريق أيضاً إلى بعض الأذهان . فاذا بجماعات صغيرة ، مسلّحة هذه المرّة ، تهاجم أبواب المدينة مرة أخرى في الليل . وقد حدث تبادل إطلاق للنار وجُرح البعض وفرّ آخرون . وعُزّزت مراكز الحراسة وسرعان ما توقّفت تلك المحاولات . على أنها كانت كافية لأن تثير في المدينة نفحة ثورة أدت إلى بضعة حوادث من العنف . فنُهبت بيوت كانت قد أحرقت أو أغلقت لدواعٍ صحية . ومن العسير في الحق الافتراض بأن هذه الأعمال كانت مبيّتة . فغالب الأحيان كانت فرصة مفاجئة تدفع أناساً ، محترمين حتى ذلك الحين ، إلى أعمال ذميمة سرعان ما كانت تُقلّد. وهكذا كان بعض الغاضبين الحمقى يهجمون على بيت لا يزال يحترق ، بوجود صاحبه نفسه

الذي أذهله الألم . وتجاه لامبالاته ، حذا كثيرون من المشاهدين حذو الأولين ، وهكذا كانت تُرى في ذلك الشارع المظلم ، على نور الحريق ، أشباحٌ شوّهها اللهب المتلاشي وقطع الأثاث والحاجات التي كانت تحملها على أكتافها ، تفرّ من كل مكان . وهذه الحرائق هي التي دفعت السلطات في الحق إلى أن تشبّه حالة الطاعون بحالة الحصار وأن تطبّق القوانين التي تترتب عليها . وقد أعدم سارقان بالرصاص،ولكن المشكوك فيه أن يكون ذلك قد أثّر على الآخرين ، لأن هذين الإعدامين لم يؤبه لهما وسط ذلك العدد الكبير من الاموات : كانا قطرة ماء في البحر . والحقيقة أن حوادث مشابهة تجدّدت غالباً دون أن تهتم السلطات للتدخل . ويبدو أن التدبير الوحيد الذي أثّر على جميع السكان هو إقرار منع التجول ، فاذا المدينة تستغرق بعد الحادية عشرة في ليلٍ مطلق ، فتبدو كأنها من حجر .

كانت تحت سماوات القمر ، تصفّ جدرانها المبيضّة وشوارعها المستقيمة التي لا تشوبها كتلة شجرة سوداء ، ولا تعكّرها قدم متنزّه ولا نبحة كلب . وإذ ذاك لم تكن الحاضرة الكبيرة الصامتة إلا مجموعة من المكعبات المتراكمة الجامدة ، تحاول بينها تماثيل المحسنين المنسيين أو الرجال العظام القدامى المختنقة أنفاسهم إلى الأبد في البرونز ، أن توحي بوجوهها المستعارة من الحجر أو الحديد صورةً تالفة لما كان عليه الانسان . كانت هذه الأصنام الدون منتصبة تحت سماء كثيفة ، في المفارق الميتة ، وحوشاً لا تحسّ ، تمثّل تمثيلاً جيداً العهد الجامد الذي دخلناه ، أو على الأقل شكله الاخير ، شكل مقبرة خنق فيها الطاعون والحجر والليل كلّ صوت .

ولكن الليل كان كذلك في جميع القلوب ، ولم تكن الحقائق ، كالأساطير التي تُتناقل في موضوع الدفن، لتطمئن مواطنينا . لأن من الواجب التحدّث عن الدفن ، والراوي يعتذر عن ذلك . إنه يدرك ما قد يؤخذ عليه في هذا الشأن ، ولكنّ مبرّره الوحيد أنه قد تمّ في هذه الحقبة دفن كثير من

الاموات ، وأنه قد اضطر اضطراراً ، كما اضطر جميع مواطنيه ، إلى الاهتمام بالدفن . وعلى أي حال ، فان ذلك لا يعود إلى أنه يتذوّق هذا النوع من الحفلات ، فهو بالعكس يوئثر مجتمع الاحياء ويوئثر حمامات البحر إذا كان لا بدّ من مثال . ولكن حمامات البحر كانت قد ألغيت في الحقيقة ، وكان مجتمع الاحياء يخشى طول النهار أن يضطر آخر الأمر إلى التخلي عن مكانه لمجتمع الاموات . كان هذا هو البديهي . ومن الممكن دائماً ، بالطبع ، بذل الجهود للتغاضي عنه واغلاق العيون دون رفضه ، ولكن للبديهي قوة هائلة تنتهي آخر الأمر بالتغلب على كل شيء . من ذلك مثلاً الطريقة لرفض الدفن ، في اليوم الذي يحتاج فيه الذين تحبّهم إلى أن يدفنوا ؟

وأياً ما كان ، فانّ ما كان يطبع احتفالاتنا بادىء الامر إنما هي السرعة ! جميع الشكليات قد اختُصرت ، والغيت مواكب الدفن بشكل عامّ . كان المرضى يموتون بعيداً عن أسرهم ، وكانت قد مُنعت طقوس السهر على الأموات ، بحيث أن من كان يموت مساء يقضي ليله وحيداً ومن كان يموت في النهار يُدفن دون ما تأجيل . وكانت الاسرة تُبلّغ بالطبع ، ولكنها كانت غالب الاحيان عاجزة عن الانتقال ، نظراً إلى أنها كانت تكون محجوراً عليها إذا سبق أن عاشت بقرب المريض . أما إذا لم تكن الأسرة ساكنة مع الميت ، فانها كانت تحضر في الوقت المعيّن الذي هو وقت الذهاب إلى المقبرة ، بعد أن يكون الجثمان قد غُسل ووضع في التابوت .

ولنفرض أن هذه الشكليات قد تمت في المستشفى المساعد الذي كان الدكتور ريو يشرف عليه . كان للمدرسة مخرجٌ قائم خلف البناء الرئيسي ، وكان ثمة ركنٌ كبيرٌ للمهملات يفضي إلى الرواق وضعت فيه التوابيت . وفي الرواق نفسه كانت الاسرة تجد تابوتاً واحداً مغلقاً . وسرعان ما ينتقلون إلى الأهمّ ، أي أنهم كانوا يدعون رب الاسرة إلى توقيع الاوراق ، ثم يُحمل الجثمان إلى سيارة تكون إما عجلة حقيقية أو سيارة

اسعاف معدّلة . وكان الاهل يستقلّون سيارة أجرة من تلك التي كانت لا تزال مسموحاً بها ، فتتجه السيارتان بسرعة عظيمة إلى المقبرة من الطرق الخارجية . فاذا بلغوا باب المقبرة أوقف الحرس موكبهم ، وختموا الإذن بالمرور الذي لم يكن مواطنونا بدونه يستطيعون الحصول على ما يسمونه المقر الاخير ، ثم يخلون الطريق ، فتمضي السيارتان لتقفا أمام مربّع تنتظر فيه حُفرات عديدة أن تُملأ . وكان ثمة كاهن يستقبل الجثمان نظراً إلى أن الطقوس الموتية كانت قد ألغيت في الكنائس . وكانوا إذ ذاك يُخرجون التابوت وسط الصلوات فيربطونه ويجرّونه ويدخلونه الحفرة ، بينما يحرك الكاهن مرشة الماء المقدس وما يلبث التراب أن يعلو الغطاء . وتكون سيارة الاسعاف قد انطلقت منذ حين لتخضع لرش مطهّر ، وبينما يرتفع صوت المجارف وهي تهيل التراب ، تستقل الاسرة السيارة . وإن هي إلا ربع ساعة حتّى تبلغ منزلها .

هكذا كان يتم كل شيء حقاً بأقصى ما يمكن من السرعة وأدنى ما يمكن من الاخطار . ولا شك في أنه كان بديهياً أن يُصاب شعور الأُسَر الطبيعي من جراء ذلك بالغمّ والكمد ، في أول الامر على الاقل . على أن هذه اعتبارات لا يمكن في وقت الطاعون الاهتمام بها : فكلّ شيء مضحّى به لحساب الفعاليّة . ولئن كانت معنويات الشعب قد تألمت من هذه التصرفات بادىء الأمر ، بسبب أن الرغبة في أن يُدفن المرء بلياقة هي أشد قوة وانتشاراً مما يُظن ، فمن حسن الحظ أن قضية التموين أصبحت بعد ذلك بقليل قضية دقيقة ، فتحوّل اهتمام السكان إلى شواغل الصق بهم . فقد استغرق الناس في التفكير بالوقوف في الصفوف وبانجاز المساعي والشكليات التي ينبغي لهم القيام بها إذ أرادوا أن يأكلوا ، وهكذا لم يُتح لهم الوقت للتفكير بالطريقة التي يموت الناس فيها حولهم والتي سيموتون هم بها يوماً . ومن أجل ذلك ، فان هذه الصعوبات المادية التي كان ينبغي أن تكون شراً ،

تكشّفت فيما بعد عن أنها خير . وقد كان كل شيء يكون حسناً لو لم يتفاقم الوباء كما سبق أن رأينا .

ذلك أن التوابيت قد أصبحت نادرة ، ومسّت الحاجة للقماش من أجل الأكفان وللمكان في المقبرة . وكان لا بدّ من التروّي فيما يجب عمله . وقد بدا أن أيسر الامور ، ولأسباب تتعلّق دائماً بالفعاليّة ، هو في جمع الاحتفالات ، ومضاعفة الرحلات ، عند اللزوم ، بين المستشفى والمقبرة . وهكذا كان المستشفى ، فيما يتعلق بعمل ريو ، يملك في ذلك الحين خمسة توابيت . حتى إذا امتلأت ، تولّت سيارة الاسعاف نقلها إلى المقبرة حيث تُفرغ الصناديق ، وتحمل الاجسام الحديدية اللون على المحامل وتأخذ بالانتظار في سقيفة أقيمت لهذا الغرض . ثم إن التوابيت كانت تُرشّ بمحلول مطهّر ، وتُعاد إلى المستشفى . وهكذا كانت العملية تُعاد كلما اقتضى الامر . وهذا يعني أن التنظيم كان جيداً ، وقد سُرّ منه الوالي . بل إنه قد قال لريو إن هذا ، آخر الامر ، خيرٌ من مركبات الموتى التي يقودها الزنوج والتي تنصّ عليها روايات الطواعين القديمة . وقال ريو :

— نعم ، إنه الدفن نفسه . ولكننا نحن نملأ بطاقات . فالتقدم أمرٌ لا جدال فيه .

وبالرغم من هذا النجاح الذي أحرزته الادارة ، فان الطابع الكريه الذي كانت الشكليات تتلبسه الآن قد أجبر الولاية على إبعاد الاقارب عن الحفلات . وإنما سمح لهم فقط بالقدوم إلى باب المقبرة ، وحتى هذا الأمر لم يكن رسمياً . ذلك أن الأمور تغيّرت قليلاً فيما يخصّ الاحتفال الاخير . ففي طرف المقبرة ، شُقّت حفرتان كبيرتان في قطعة أرض مكشوفة يغطيها المصطكا . كانت هناك حفرة الرجال ، وحفرة النساء . والواقع أن الإدارة الحكومية كانت من هذه الناحية تحترم المواضعات ، ولم يختفِ هذا الاحتشام إلا بعد حين من الزمن ، بقوة الاشياء ، وأصبح الدفن يجري دون ما تمييز ، بعضهم فوق بعض ، نساء ورجالاً ، من غير اهتمام بالحشمة . ولكن هذا

الاختلاط النهائي إنما طبع لحسن الحظ آخر لحظات الوباء . على أن تفريق الحفر كان قائماً في الفترة التي تهمنا الآن ، وكانت الولاية تحرص كثيراً على هذا التفريق . وقد كانت كمية كبيرة من الكاس الحارّ تغلي في جوف كل من هاتين الحفرتين وترسل الدخان. وكان على حافة كل حفرة كثيب من الكلس نفسه تنفجر منه الفقاقيع في الهواء الطلق. وكانت المحامل، إذا ما انتهت رحلات سيارة الاسعاف ، تُحمل في موكب ، فتسقط عنها الاجسام العارية الملوّية بعض الشيء، جنباً إلى جنب في جوف الحفرة، وإذ ذاك كانت تغطى بالكلس ثم بالتراب ولكن إلى ارتفاع معين فقط ، لافساح المجال للضيوف القادمين . وكان ذوو الميت يُدعون في اليوم الثاني إلى التوقيع على سجلّ ، وهذا هو الفرق الذي يمكن أن يقوم بين الناس وبين الكلاب مثلاً : فان المراقبة هي دائماً أمرٌ ممكن .

وقد كانت هذه العمليات كلها تتطلب موظفين يكادون دائماً لا يكفون. فقد مات بالطاعون كثير من هؤلاء الممرضين وحفاري القبور الذين كانوا رسميين بادىء الامر، ثم مرتجلين . وقد كان لا بد للعدوى من أن تنتقل يوماً، أياً كانت الاحتياطات . ولكننا إذا فكرنا بالوضع ، فان أدعى الامور إلى الدهشة أن هذه المهنة لم يعوزها الرجال قط ، طوال مدة الوباء . وقد وقعت الفترة الحرجة قبل أن يبلغ الطاعون ذروته ، فكان قلق الدكتور ريو إذ ذاك في محله . والواقع أن اليد العاملة لم تكن كافية لا للملاكات ، ولا لما كان يسميه الاعمال الضخمة . ولكن منذ اللحظة التي استولى فيها الطاعون حقاً على المدينة كلها ، فانّ تجاوزه نفسه أدّى إلى عواقب ذات بال ، إذ أفسد نظام الحياة الاقتصادية كلها ، وخلق بذلك عدداً كبيراً من العاطلين. ولم يكن هؤلاء ليصلحوا غالب الاحيان للتعيين في الملاكات ، ولكنهم سهّلوا سير الاعمال الوضيعة . والواقع أن البؤس بدأ منذ تلك اللحظة يبدو أقوى من الخوف ، بمقدار ما كان العمل يُجازى بنسبة الاخطار . وقد استطاعت

الخدمات الصحية أن تحصل على قائمة للطلبات ،وكانت ما ان تتاح الفرصة، تستدعي أصحاب أولى الطلبات في القائمة ، وكان هؤلاء يسرعون في الحضور إلا إذا كانوا في هذه الأثناء قد دخلوا هم أيضاً في العطلة . هكذا تمكن الوالي ، وكان قد تردّد وقتاً طويلاً في استخدام المحكومين الموقتين أو المؤبدين لهذا النوع من العمل ، من أن يتفادى بلوغ هذا الحدّ . فقد كان رأيه أن بالامكان الانتظار ما دام ثمة عاطلون .

وإذن فان مواطنينا استطاعوا حتى آخر شهر آب أن يُقادوا إلى مقرهم الأخير ، إن لم يكن ذلك بلياقة ، فعلى الأقل بصورة كافية لأن تجعل الإدارة تحتفظ براحة الضمير في أنها كانت تقوم بواجبها ،ولكن يجب أن نتجاوز قليلاً تتمة الاحداث لنصف الطرائق الاخيرة التي وجب اللجوء اليها . والواقع أن تراكم الضحايا ، على الصعيد الذي بلغه الطاعون ابتداءً من شهر آب ، قد تعدّى كثيراً الامكانيات التي يمكن لمقبرتنا الصغيرة أن تتحملها . فعبثاً هُدمت شقق جدران ، وفتحت للاموات منافذ في الأراضي المجاورة ، وكان لا بدّ من إيجاد وسائل أخرى . وقد تقرّر أولاً أن يتم الدفن ليلاً وهذا ما يوفر دون ريب اتخاذ بعض العنايات . وقد تمكنوا من ركم عدد من الأجسام المتزايدة في سيارات الاسعاف . وكان بعض المتنزهين الذين كانوا يتأخرون ، خلافاً لكل قانون ، في الأحياء الخارجية بعد منع التجوّل (أو الذين كانت مهنتهم تقضي عليهم بهذا التأخير) يلتقون أحياناً بسيارات اسعاف طويلة بيضاء تجري بأقصى السرعة ، فتصدي بصوت أجراسها الباهتة شوارع الليل الجوفاء . وكانت الاجسام تُرمى بعجلة في الحفر ، فلا تكاد تنتهي من حركتها حتى ينسحق على وجهها ركام الكلس ، ويغطيها التراب من غير تمييز ،في حفر كانت تُشق أعمق فأعمق .

على أنهم ما لبثوا أن اضطروا إلى التوسّع والتماس الأرض هنا وهناك . وصدر قرار من الولاية بمصادرة الأراضي التي كانت الحكومة قد وهبتها من

مالكيها الدائمين ، وسيقت إلى فرن حرق الجثث جميع البقايا المستخرجة من القبور . ووجب بعد حين سوق ضحايا الطاعون أنفسهم إلى فرن الحرق، ولكنهم اضطروا إذ ذاك إلى استعمال فرن الترميد الذي كان يقوم في شرق المدينة ، خارج الابواب . وقد نقلت فرقة الحرس إلى مكان أبعد ، وسهّل أحد موظفي المختارية مهمة السلطات تسهيلاً كبيراً إذ نصح باستعمال الترامات التي كانت تُسيّر في الماضي على الافريز البحري والتي كانت آنذاك واقفة عن العمل . ومن أجل ذلك ، نزعت مقاعد القاطرات ،وحوّلت السكة باتجاه الفرن الذي أصبح بذلك بمثابة رأس الخطّ .

وطوال أواخر الصيف، كانت تُرى على مدى الافريز ،في قلب الليل، مركبات ترامات غريبة ليس فيها مسافرون ، تتأرجح فوق البحر . وقد فهم السكان أخيراً ما شأن هذه الترامات . وبالرغم من الدوريات التي كانت تحول دون الوصول إلى الافريز ، كانت بعض الجماعات تتسالل غالباً إلى الصخور التي تشرف على الأمواج ، وترمي بالزهور إلى الترامات لدى مرورها. وكانت المركبات إذ ذاك تُسمع وهي ترتجّ في ليالي الصيف بمحمولها من الزهور والاموات .

وعلى أي حال ، فقد كان بخار كثيف كريه ينتشر حوالي الصباح ، في الأيام الأولى ، فوق أحياء المدينة الشرقية . وكان جميع الاطباء يعتقدون أن هذه الابخرة لا يمكن أن تضرّ أحداً بالرغم من أنها كريهة . ولكن سكان هذه الاحياء أخذوا يهدّدون بهجرها ، مقتنعين بأن الطاعون يهبط عليهم هكذا من أعالي السماء ، مما اضطر السلطات إلى تحويل الأبخرة بواسطة تقنيات معقّدة ، فهدأ السكان . على أن أيام الريح الكبرى كانت تُصعّد من الشرق رائحة غامضة كانت تذكّرهم بأنهم إنما بدأوا يعيشون في عهد جديد ، وأن ألسنة الطاعون اللاهبة كانت تلتهم نصيبها منهم كل مساء .

تلك كانت عواقب الوباء في أبعد حدودها . ولكن من حسن الحظ أنها

لم تتفاقم فيما بعد ، لأن بالامكان التفكير بأن براعة مكاتبنا وتدابير الولاية وحتى مقدرة الفرن على الاستهلاك ، كل ذلك قد لحق به التقصير . وكان ريو يعلم أنهم كانوا قد واجهوا لمثل تلك الامكانية حلولاً يائسة، كالقاء الجثث في البحر ، وكان يتصوّر بسهولة زبدها الشيطاني فوق الماء الازرق . وكان كذلك يعلم أنه إذا ظلت الارقام ترتفع ، فلن تستطيع أية منظمة مهما كانت قوية أن تقاومها ، وأن الناس سيأتون ليموتوا في الركام وينحلّوا في الشارع ، بالرغم من الولاية ، وأن المدينة ستشاهد في الساحة العامة المحتضرين يتعلقون بالاحياء في مزيج من الكره المشروع والأمل البليد .

هذا النوع من الحقيقة البدهية أو من المخاوف المبهمة هو الذي كان يعزّز في نفوس مواطنينا شعور نفيهم وانفصالهم . وإن الراوي ليدرك تماماً، بهذا الصدد ، كم هو مؤسف ألاّ يتمكن هنا من أن يورد ما يستحقّ الاهتمام ، كبعض الابطال المشجِّعين أو بعض الاعمال الباهرة ، شبيهة بتلك التي نجدها في القصص القديمة . ذلك أنه ليس أقلّ استحقاقاً للاهتمام من منظر وباء . وإن المصائب الكبرى تُشعِرُ دائماً بالرتابة إذ يمتدّ مداها . إن أيام الطاعون الرهيبة لم تكن تبدو في ذهن الذين عاشوها كألسنة لهيب باذخة وقاسية ، وإنما تبدو كوطء شديد دائم يسحق كل شيء تحته .

كلا ، لم يكن للطاعون أية علاقة بالصور الكبيرة المؤثرة التي لاحقت الدكتور ريو في بدء الوباء . كان أول الأمر إدارة متبصّرة حكيمة حسنة التصريف . ولذلك نزع الراوي ، حتى لا يخون الحقيقة ولا يخون نفسه خصوصاً ، إلى الموضوعية في وصفه . فهو لم يُرد أن يحوّر تقريباً أي شيء بدافع من الفن ، باستثناء ما يمت إلى ما يقتضيه السرد المنسّق . وإن هذا التجرّد نفسه هو الذي يدفعه الآن إلى القول بأنه إذا كان الفراق هو أشدّ آلام تلك الحقبة وأعمها ، وإذا كان من الضروري إيرادُ وصف جديد له في هذه المرحلة من الطاعون ، فمما لا يقلّ عن ذلك حقيقةً إنّ هذا الألم

نفسه أخذ يفقد من تأثيره في النفس وتحريكه للعاطفة .

فهل ترى مواطنينا ، أو على الأقل أولئك الذين تألموا من هذا الفراق أكثر من سواهم ، كانوا يعتادون على الوضع ؟ إن تأكيد ذلك لن يكون صحيحاً كل الصحة . وإنما من الادقّ القول إنهم كانوا يتألمون معنوياً ومادياً من الهزال والنحول . ففي بدء الطاعون ، كانوا يتذكرون جيّداً الكائن الذي فقدوه فيتحسّرون عليه ، ولكن إذا كانوا يتذكرون بوضوح الوجه المحبوب وضحكته ويوماً يعترفون بأنه كان فيه سعيداً ، فقد كان يصعب عليهم أن يتصوروا ما عساه يفعل في الساعة التي يتذكرونه فيها وفي أمكنة بعيدة بعد اليوم . وبالاجمال ، كانت لهم في تلك الفترة ذاكرة جيدة ، ولكن كان لهم كذلك خيال قاصر . وفي المرحلة الثانية من الطاعون فقدوا الذاكرة كذلك . وليس ذلك لكونهم قد نسوّا هذا الوجه ، وإنما لكونه قد فقد هو لحمه ، فباتوا لا يرونه في داخل أنفسهم . وبينما كانوا في الأسابيع الأولى يميلون إلى الشكوى من أنهم باتوا لا يواجهون إلا أشباحاً في أمور حبّهم ، أدركوا فيما بعد أن هذه الاشباح يمكن أن تصبح أشد هزالاً إذ تفقد حتى الالوان اليسيرة التي تحفظها لهم الذكرى . فاذا هم في نهاية فترة هذا الفراق لا يتصورون بعد هذه الصميمية التي كانوا ينعمون بها ، ولا كيف استطاع أن يعيش بالقرب منهم كائن كان بوسعهم في كل لحظة أن يضعوا عليه اليد .

والواقع أنهم من هذه الناحية قد دخلوا في نظام الطاعون نفسه ، هذا النظام الذي كان مجدياً بقـــدر ما كان أقرب الى الرداءة . لم يبق لأحد عندنا عواطف كبيرة . ولكن الجميع كانوا يستشعرون عواطف راتبة . وكان مواطنونا يقولون : « لقد آن لهذا أن ينتهي » لأن من الطبيعي ، في فترة الوباء ، أن يتمنّوا نهاية الآلام الجماعية ، ولأنهم كانوا يتمنّون في الواقع أن ينتهي ذلك . ولكن ذلك كله كان يُقال من غير الحماس أو

الشعور المرير الذي كان يُقال بهما في البدء ، وكان يقتصر الآن فقط على بعض الاسباب التي كانت تحتفظ بوضوحها فيما هي لا تزال فقيرة ضعيفة. فقد عَقِبَ الاندفاع العنيف الذي طُبعت به الاسابيع الأولى إحباط يخطىء من يعتبره خضوعاً ، ولكنه لم يكن مع ذلك إلاّ لوناً من القبول الموقت .

لقد التزم مواطنونا الخط ، و « تأقلموا » كما يقال ، لأنهم لم يكونوا يملكون أن يفعلوا غير ذلك . كانوا بالطبع لا يزالون يحتفظون بطابع المصيبة والعذاب ، ولكنهم لم يكونوا يستشعرون بعدُ وخزه . غير أن الدكتور ريو كان مثلاً يرى إن هذه هي المصيبة حقاً ، وأن عادة اليأس أسوأ من اليأس نفسه . فان الاحبّاء المفرّقين لم يكونوا من قبل أشقياء حقاً ، فقد كان في عذابهم اشراقٌ قد خمد ، امـــا الآن ، فقد كانوا يُرون في زوايا الشوارع ، في المقاهي أو لدى أصدقائهم ، هادئين شاردين شديدي الضجر ، حتى أن المدينة بسببهم كانت تشبه قاعة انتظار . فالذين كانت لهم مهنة ، كانوا يؤدونها ، وفقاً لمجرى الطاعون ، بدقة ومن غير حماس . كان الجميع متواضعين . وللمرة الأولى ، لم يعد المفصولون يشعرون بأي نفور من التحدث عن الغائب أو يتكلمون بلغة الجميع أو يدرسون فراقهم مـــن الزاوية نفسها التي يدرسون منها أرقام الوباء . فبينا كانوا حتى ذلك الحين قد فصلوا عذابهم فصلاً ضارياً عن المصيبة الجماعية ، نراهم الآن يرضون أن يمزجوه بها . لقد فقدوا الذاكرة والأمل ، فعاشوا في الحاضر .

والحق أن كل شيء كان يصبح لهم حـــاضراً . وينبغي أن نعترف بأن الطاعون قد انتزع من الجميع القدرة على الحب ، بل حتى على الصداقة . ذلك أن الحب يتطلب شيئاً من مستقبل ، ولم يكن باقياً لنا بعد إلاّ اللحظات .

وبالطبع ، لم يكن شيء من هذا كله مطلقاً حاسماً . فاذا كان صحيحاً أن جميع المفترقين قد وصلوا إلى هذه الحالة ، فمن العدل أن نضيف أنهم لم يبلغوها كلهم في وقت واحد ، ثم إن لمعات وعوْدات للصحو مفاجئة كانت تردّ المرضى ، إذ هم في هذا الوضع الجديد، إلى حساسية أنضر وآلم .

وكان لا بدّ من هذه الفترات من الشرود التي يفكـّرون فيها بمشروع يقتضي أن ينتهي الطاعون به . كان لا بدّ من نعمةٍ تشعرهم على غفلةٍ بنهش غيرة ليس لها من موضوع .وكان بعضهم يشعر كذلك بأنهم يولدون فجأةً من جديد، ويخرجون من خدرهم بضعة أيام في الاسبوع بينها طبعاً يوم الاحد وبعد ظهر السبت ، لأن هذين اليومين كانا مخصصين لطقوس معيّنة ، في عهد الغائب . أو هي أيضاً كآبةٌ ما كانت تستحوذ عليهم في أواخر اليوم لتمنحهم إيذاناً ، ليس دائماً مؤكـّداً ، بأن الذاكرة ستعود اليهم . هذه الساعة المسائية التي هي ساعة محاسبة النفس بالنسبة إلى المؤمنين ، هي ساعة قاسية بالنسبة للسجين أو المنفي اللذين ليس لهما أن يحاسبا غير الفراغ . فقد كانت تتركهما معلـّقين لحظة ، ثم يعودان إلى الانهيار ، وينغلقان في الطاعون .

وقد بات مفهوماً أن هذا كان يتلخص بالعدول عن أعمق ما كانوا يملكون من عواطف شخصية . فبينما كانوا في عهود الطاعون الاولى مستغرقين في مجموع الاشياء الصغيرة التي كان لها في نفوسهم شأن كبير ، من غير أن يكون لها أي وجود لدى الآخرين ، وكانوا بهذا يقومون بتجربة الحياة الشخصية ، إذا هم الآن بالعكس لا يهتمون إلاّ بما يهتمّ به الآخرون، ولا يحتفظون إلاّ بأفكارٍ عامة ، وحتى حبـّهم نفسه قد اكتسب في نظرهم طابعاً مغرقاً في التجريد . لقد بلغ من استسلامهم للطاعون أنهم كانوا يتفق لهم أحياناً ألاّ يعلـّقوا أمالهم إلا بنـــومه ، وأن يفاجئوا أنفسهم وهم يفكرون : « لتُشقّ الدمامل ، ولينته الامر »! ولكنهم يكونون في الحقيقة نائمين ، ولم يكن هذا الوقت كله إلا نوماً طويلاً . كان يعمر المدينة نائمون يقظون لا يفلتون حقاً من مصيرهم إلا في هذه المرات النادرة التي تنفتح فيها فجأة في الليل جراحاتهم المغلقة في الظاهر فاذا هم ينتفضون مستيقظين ، فيتلمسون ، بنوع من الشرود ، أطراف هذه الجراحات المهتاجة، ويستعيدون، في ومضة، عذابهم وقد شبّ فجأة و شب معه وجه

حبهم المضطرب . حتى إذا أصبح الصباح ، عادوا إلى الوباء ، أي إلى الروتين .

ولكن قد يسأل سائل : ما كان يبدو على هؤلاء المفترقين ؟ إن الجواب سهل : لم يكن يبدو عليهم شيء . أو ، إذا كنتم تفضلون ، كان يبدو عليهم ما يبدو على جميع الناس ، هيئة عامّة كليّاً . كانــوا يقاسمون المدينة سكينتها واضطراباتها الصبيانية . كانوا يفقدون مظاهــر الحسّ النقدي ، فيما كانوا يربحون مظاهر ربــاطة الجأش . وقد كان ممكناً مثلا أن يُرى أذكاهم وهم يتصنعون كجميع الناس البحث في الصحف أو في الاذاعات عن أسباب تجعلهم يعتقدون بنهاية قريبة للطاعون ويؤمنون ظاهراً بآمال خيالية أو يستشعرون مخاوف لا أساس لها إذ يقرأون تقديرات كتبها صحفي وهو يتثاءب من الضجر . أما الباقون فقد كانوا يشربون جعتهم أو يعتنون بمرضاهم ، يتكاسلون أو يستنفدون قواهم ، يرتبون البطاقات أو يديرون الاسطوانات من غير أن يتميّز بعضهم عن بعض بشكل آخر . وبعبارة أخرى ، لم يكونوا يختارون ، بعد ، شيئاً . كان الطاعون قد حذف أحكام القيمة . وهذا ما كان يُلحظ في كون الناس قد كفوا عن الاهتمام بنوع الثياب أو المآكل التي تُبتاع . كانوا يقبلون كل شيء جملة .

ونستطيع أخيراً أن نقول إن المفترقين قد فقدوا ذلك الامتياز الغريب الذي كان يعصمهم في البدء . لقد فقدوا أنانية الحب وما كانوا يفيدون من هذه الانانية من ربح . فعلى الأقل أصبح الوضع الآن واضحاً : إن الوباء يعني الناس جميعاً . فوسط الانفجارات التي كانت تفرقع عند أبواب المدينة ، والتصادمات التي كانت تقطع حياتنا أو ميتاتنا ، ووسط الحرائق والبطاقات والذعر والشكليات ، مهيئين لموت مشين ولكنه مسجل ، وبين الابخرة المروعة وأجراس سيارات الاسعاف الهادئة ، جميعنا كنا نتغذى بخبز النفي ذاته ، مترقبين دون أن ندري الاجتماع والسلام المقلقين ذاتهما . ولا ريب

إن حبنا كان دائماً موجوداً . ولكنه لم يكن يصلح للاستعمال إذ هو ثقيل على الحمل ، جامدٌ فينا ، عقيم كالجريمة أو كالدينونة . فليس هو بعد إلا صبراً لا مستقبل له وانتظاراً مصدوماً . وقد كان وضع بعض مواطنينا ، ومن وجهة النظر هذه ، يُذكر بهذه الصفوف الطويلة في أربع زوايا المدينة ، أمام حوانيت التغذية . إنه الاستسلام نفسه والاصطبار ذاته لا حدود لهما ولا خداع فيهما في وقت معاً . أما فيما يتعلق بالفراق ، فقد كان ينبغي رفع هذا الشعور إلى صعيد أكبر بألف مرة ، لأن القضية تمتُّ إذ ذاك إلى جوع آخر يستطيع أن يلتهم كل شي .

وفي جميع الاحوال ، ينبغي لمن شاء أن يأخذ فكرة صحيحة عن الحالة المعنوية التي كان يعيش فيها المفترقون في مدينتنا ، أن يذكر من جديد هذه الأماسي الخالدة المذهبة المغبرة التي كانت تهبط على المدينة الخالية من الشجر بينما يتدفق الرجال والنساء في جميع الشوارع . ذلك أن ما كان يسود الأرصفة المشمسة بعد ، في غياب ضوضاء المركبات والمحركات التي تشكل عادة لغة جميع المدن ، إنما هو ضجيج هائل لأقدام وأصوات صماء ، وانزلاق موئلم لآلاف النعال ، ذلك الانزلاق الذي يوقعه هزيز الوباء في السماء المثقلة ، ومشيٌ خانق لا ينتهي يملأ المدينة شيئاً فشيئاً ، ويمنح مساء بعد مساء صوته الأكثر أمانة وكآبة إلى العناد الاعمى الذي كان يحلّ في قلوبنا ، آنذاك ، محلّ الحب .

٤

ظلّت المدينة في شهري أيلول وتشرين الأول مطوية تحت الطاعون . وما دام الامر أمر مشي ووقع أقدام ، فقد مضى بضعة مئات من آلاف السكان يمشون طوال أسابيع لم تكن تنتهي . وكان الضباب والحرّ والمطر تتعاقب في السماء . وكانت عصائب صامتة من الزرازير والسمانيات تُحلّق في السماء ، قادمة من الجنوب ، ولكنها كانت تدور حول المدينة ، كما لو أن وباء بانولو ، القطعة الخشبية العجيبة التي كانت تدور فوق البيوت وهي تصفر ، يبقيها بعيدة . وفي مطلع تشرين الأول ، كنّس الشوارع وابل من الامطار . وطوال هذا الوقت لم يحدث شيء أهم من هذا المشي الكثيف.

وإذ ذاك اكتشف ريو وأصدقاؤه إلى أي حدّ كانوا متعبين . والواقع أن رجال التشكيلات الصحية باتوا لا يهضمون هذا التعب . وقد لاحظ الدكتور ريو ذلك وهو يتأمل لامبالاة غريبة تعتريه واصدقاءه تدريجياً . فان هؤلاء الرجال الذين أظهروا حتى الآن هذا الاهتمام البالغ بجميع الانباء التي تتعلق بالطاعون باتوا لا يحفلون بها على الاطلاق . وكان رامبير الذي عُهد اليه موقتاً في أمر إدارة دار من دور الحجر أقيمت منذ حين في فندقه ، يعرف تماماً عدد الذين كانوا تحت رقابته . وكان واقفاً على أدنى تفاصيل نظام الاخلاء المباشر الذي كان قد أقامه للذين كانت تبدو عليهم فجاة

أعراض المرض . وكانت أرقام نتائج المصل على المحجورين محفورة في ذاكرته . ولكنه كان عاجزاً عن معرفة الرقم الاسبوعي لضحايا الطاعون ، وكان يجهل حقاً إذ كان إلى ارتفاع أو هبوط . ورغم كل شيء ، كان هو يحتفظ بأمل فرار قريب .

أما الآخرون فقد كانوا ، لشدّة استغراقهم في أعمالهم ليل نهار ، لا يقرأون الصحف ولا يستمعون إلى الراديو. وكانوا إذا أعلنت لهم نتيجة ما مايتصنعون الاهتمام بها ، ولكنهم إنما كانوا يستقبلونها حقاً بهذه اللامبالاة الشاردة التي يحمل طابعها مقاتلو الحروب الكبرى الذين استنفدت الاعمال قواهم ، والذين يجهدون فقط لئلا يقصّروا في واجبهم اليومي ، غير مؤملين في المعركة الحاسمة ولا في يوم الهدنة .

ولا ريب في أن غران الذي كان ماضياً في إجراء الحسابات التي يقتضيها الطاعون كان يكون عاجزاً عن معرفة نتائجه العامة . وخلافاً لتارو ورامبيرو وريو الذين كانوا يقوون على التعب ، لم تكن صحته قط جيّدة . والواقع أنه كان يجمع مهامّه كمساعد في المختارية وسكرتير لريو وأعماله الليلية . وهكذا كان يُرى في حالة من الارهاق الدائم ، وإنما كانت تنهض به فكرتان راسختان أو ثلاث ، كأن يمنح نفسه عطلة كاملة بعد الطاعون ، طوال أسبوع على الأقل ، وأن يشتغل إذ ذاك بطريقة إيجابية ، « والقبعة خافضة » ، فيما كان بسبيله . وكان كذلك موضوع حنوّ مفاجئ يستولي عليه ، فيتحدث في المناسبات إلى ريو عن جان ، ويتساءل عن المكان الذي عساها تكون فيه في تلك اللحظة بالذات ، وعمّا إذا كانت تفكّر فيه بينا هي تقرأ الصحف . وذات يوم ، فاجأ ريو نفسه وهو يحدثه عن زوجته بأتفه لهجة ، الأمر الذي لم يفعله من قبل قط . وقد كان يشكّ بالقيمة التي ينبغي له أن يعلّقها على البرقيات المطمئنة دائماً التي كان يتلقاها من زوجته ، فعزم على أن يبرق إلى رئيس أطباء دار الصحة التي كانت تُعالج فيها .

وقد تلقى برقية تعلمه تفاقم سوء حالة المريضة والتأكيد بأن كل جهد سيبذل من أجل وقف هذا التردّي . وكان قد احتفظ لنفسه بالنبأ لم يعرف كيف أفضى به إلى غران ، إلاّ أن يكون ذلك بدافع التعب . وبعد أن حدثه الموظف عن جان ، سأله عن زوجته ، فأجابه ريو . فقال له غران : « تعرف أنّ ذلك يشفى شفاءً تاماً الآن » . فوافق ريو قائلاً ببساطة إن الفراق قد بدأ يطول ، وإنه كان بامكانه هو أن يساعد زوجته على قهر مرضها ، في حين أنها لابدّ لها الآن أن تشعر بالوحدة . ثم صمت ولم يجب على أسئلة غران إلا أجوبة مُجانبة .

وكان الآخرون في مثل هذه الحال . وكانت مقاومة تارو أشد ، ولكن مذكراته كانت تنمّ عن أن فضوله إن لم يكن ينقص عمقاً فهو قد خسر من تنوعه. والحق أنه لم يكن ليهتمّ في هذه الفترة كلها إلاّ بكوتار اهتماماً ظاهراً. أما عند ريو حيث انتهى به الامر إلى الاقامة منذ أن حُوِّل الفندق إلى دار للحجر ، فكان لا يكاد يلقي بالاً في المساء إلى غران أو إلى الطبيب يتحدثان عن النتائج . وكان سرعان ما يسوق الحديث إلى التفاصيل الصغيرة في حياة وهران التي كانت تشغله بصورة عامة .

أما كاستيل فقد أقبل يوماً على الطبيب يعلن له أن المصل كان مهيّأ ، وبعد أن عزما على إجراء التجربة الأولى على ابن السيد أوتون الذي كان قد أحضر إلى المستشفى ،والذي بدا لريو أن حالته كانت تدعو إلى اليأس ،اطلع الطبيب صديقه القديم على آخر الارقام ، وفيما هو يفعل لاحظ أن محدّثه قد استغرق في نوم عميق في جوف كرسيه . وقد شعر ريو بغصّة في حلقه أمام هذا الوجه الذي تكسوه عادة سيماء عذوبة وسخرية فتكسبه فتوة دائمة ، والذي تُرك الآن فجأة ، فكانت تصل بين شفتيه المفتوحتين أثارة من رضاب تشعر بشيخوخته وبلاه .

عَبْر مثل هذه الالوان من الضعف والخور كان ريو يستطيع أن يحكم بتعبه . كانت حساسيّته تفلت منه . فبعد أن كانت معقوده غالب الوقت ، قاسية جافة ، إذ بها تنفجر من بعيد وتتركه لعواطف لم يكن له بعدُ عليها سلطان ، وكان دفاعه الوحيد أن يحتمي بهذه القسوة وأن يشدّد أوصال العقدة التي تكوّنت في نفسه . وكان يدرك تماماً أن هذه خير طريقة للاستمرار. وأما فيما عدا ذلك ، فلم تكن له أوهام كثيرة ، وكان تعبه ينتزع منه الاوهام التي كان ما يزال يحتفظ بها . ذلك أنه كان يعرف أن دوره ، في حقبة لم يكن يدرك نهايتها ، ليس بعد في أن يشفي . كان دوره في أن يشخّص الامراض . كانت مهمته أن يكتشف ويرى ويصف ويسجّل ، ثم يدين . وكانت زوجات يأخذن يده ويصحن : « امنحه الحياة أيها الطبيب ! » ولكنه لم يكن هناك ليمنح الحياة ، بل كان هناك لينظّم الوحدة . فما جدوى هذه الكراهية التي كان يقرأها إذ ذاك في الوجوه ؟ لقد قيل له يوماً : « ليس لك من قلب ». ولكن بلى ،كان له قلب . وكان يستعمله ليحتمل العشرين ساعة في اليوم التي كان يرى فيها ناساً يموتون . ناساً خلقوا ليعيشوا . كان يستعمله ليبدأ كل يوم من جديد . ومنذ ذلك الحين كان ذلك القلب يكفي فقط لهذا ، فأنّى لهذا القلب أن يكفي لأن يمنح الحياة ؟

كلا . لم يكن يوزّع نجدات طوال النهار ، وإنما كان يوزع ارشادات . ولا يمكن أن تُسمى هذه مهنة رجل بالطبع . ولكن من ذا الذي أُمهل بين هذا الجمع المذعور المقتول لكي يمارس مهنة الرجال ؟ إن من حسن الحظ أن يكون التعب هناك . لو أنّ ريو كان أكثر نضارة ، لكان بوسع رائحة الموت هذه المنتشرة في كل مكان أن تحيله رجلاً عاطفياً . ولكن الرجل الذي لا ينام إلا أربع ساعات ، لا يكون رجلاً عاطفياً . إن الأشياء تُرى كما هي ، أي أنها ترى وفق العدالة ، العدالة القبيحة المصنوعة من الهزء . وقد كان الآخرون ، المحكوم عليهم ، يشعرون بذلك جيداً هم

أيضاً . وقد كانوا يتقبلونه قبل الطاعون كأنه منقذ . إنه ايسوّي الامور كلها بواسطة ثلاثة أقراص ومحقنة ، وقد كانوا يشدّون على ذراعه إذ هم يقودونه عبر الممرات . كان هذا مثيراً للغرور ولكنه خطر . أما الآن فهو يَـمثُل ، على العكس، مع جنود، ولا تقرر الأسرة أن تفتح إلا بعد ضربات من أعقاب البنادق . وكم ان بودّهم لو يجرّوه ويجرّوا الانسانية كلها معهم إلى الموت . آه ! كان صحيحاً أن الناس ما كان لهم أن يستغنوا عن الناس، وانه كان هو نفسه مـُعدماً مثل هؤلاء المساكين ، وأنه كان يستحق رجفة الشفقة هذه التي كانت تكبر فيه حين تركهم .

تلك كانت على الاقل الافكار التي كان الدكتور ريو ، في تلك الأسابيع التي لا تنتهي ، يقلّبها مع الافكار التي تتعلق بحالته كمفارق . وكانت كذلك الافكار التي كان يقرأ انعكاسها على وجوه أصدقائه . على أن أخطر نتيجة للانهاك الذي كان يستولي رويداً رويداً على جميع أولئك الذين كانوا يواصلون صراعهم ضد الوباء ، لم تكن عدم الاكتراث هذا تجاه الأحداث الخارجية وعواطف الآخرين، وإنما كانت في الاهمال الذي كانوا يستغرقون فيه . ذلك أنهم كانوا يميلون إلى تفادي جميع الحركات التي لم تكن ضرورية جداً والتي كانت تبدو لهم دائماً فوق طاقتهم . وهكذا انتهى الأمر بهؤلاء الناس إلى أن يمعنوا في إهمال قواعد الصحة التي اشترعوها ، وفي نسيان بعض عمليات التطهير التي يجب عليهم أن يخضعوا لها أنفسهم ، وفي الركض أحياناً، دون أن يتّقوا خطر العدوى ، إلى مرضى مصابين بالطاعون الرئوي، بعد أن أخطروا في آخر لحظة بوجوب الذهاب إلى البيوت المصابة ، فبدا لهم مرهقاً أن يعودوا إلى بعض الامكنة ليقوموا بعمليات التقطير الضرورية . هنا كان الخطر الحقيقي ، لأنه كان الصراع نفسه ضد الطاعون الذي كان يجعلهم إذ ذاك أشدّ الناس تعرضاً لخطر الطاعون . كانوا يـُراهنون بالاجمال على الحظّ ، وليس الحظ لأحد .

بيد أنه كان في المدينة رجل لم يكن يبدو عليه الارهاق ولا اليأس ، وكان يظلّ الصورة الحيّة للرضى . إنه كوتار . لقد استمرّ واقفاً على الحياد، بينا ظلت علاقاته مع الآخرين قائمة . ولكنه كان قد اختار أن يرى تارو ما سمح عمل هذا الاخير بذلك ، لأن تارو كان واقفاً على حالته تماماً من جهة ، ولأنه كان يعرف من جهة أخرى كيف يستقبل الملاّك الصغير بصداقة خالصة . كانت معجزة دائمة، ولكن تارو كان بالرغم من النشاط الذي يبذله دائم التنبه واليقظة . وحتى حين كان التعب يسحقه في بعض الاماسي ، فقد كان يستعيد حيوية جديدة في الصباح التالي . وقد قال كوتار لرامبير : « هذا شخص يحسن الحديث معه لأنه رجل يفهمنا دائماً » .

من أجل ذلك كانت مذكرات تارو ، في هذه الحقبة ، تلتقي شيئاً فشيئاً في شخص كوتار . وقد حاول تارو أن يرسم لوحةً عن أرجاع كوتار وأفكاره كما استودعه إياها أو كما فهمها هو . وكانت هذه اللوحة تحتل، تحت عنوان «علاقات كوتار والطاعون» بضع صفحات من المذكرات ؛ ويعتقد الراوي أن من المفيد ايراد ملخص لها . لقد كان رأي تارو العام في الملاّك الصغير يتلخص بهذا الحكم : « انه شخص يكبر» والواقع أنه كان يكبر ظاهراً في الدماثة والبشاشة . ولم يكن مستاء من الوجهة التي كانت تتخذها الاحداث . وكان أحياناً ما يعبّر عن صميم فكرته ، أمام تارو ، بملاحظات من مثل « بالتأكيد ، الأمر ليس إلى تحسّن ، ولكن الناس جميعاً هم على الأقل في المغطس ».

ويضيف تارو قائلاً : « بالطبع هو مهدّد كالآخرين ، ولكنه مهدّد كذلك مع الآخرين . ثم إنه لا يفكّر جدياً بأن الطاعون يمكن أن يصيبه ، وأنا من ذلك على يقين. ويبدو أنه يعيش على فكرة ليست بليدةً، في الحق، وهي أن الانسان إذ يكون فريسة مرض عظيم أو ضيق عميق ، فانه معفىً في الوقت نفسه من جميع ألوان المرض والضيق الاخرى . وقد قال لي :

« هل لاحظت أن الانسان لا يستطيع أن يجمع الامراض ؟ إفرض أنك مريض بمرض خطير أو لا يرجى شفاؤه ، كسرطان مخيف أو سلّ خبيث ، فمن المستحيل أن تصاب بطاعون أو بتيفوس . بل إن الأمر لأبعد من ذلك ، إذ أنك لم تَرَ قط مصاباً بسرطان يموت بحادث اصطدام سيارة » . وسواء كانت هذه الفكرة صائبة أم مخطئة ، فانها تجعل كوتار طيّب المزاج . وإن الشيء الوحيد الذي لا يريده ، هو أن يُفصل عن الآخرين . وهو يؤثر أن يُحاصر مع الجميع على أن يُسجن وحده . ومع الطاعون ، لا سبيل بعدُ إلى التحقيقات السرّية ولا إلى الملفّات والبطاقات والمعلومات الخفية والاعتقال الوشيك. بل لم يبق هناك شرطة ولا جرائم قديمة أو جديدة ، ولا مجرمون .. لم يبق إلا محكومون ينتظرون أشدّ ألوان العفو اعتباطاً ، وفيهم رجال الشرطة أنفسهم . » وهكذا كان مسموحاً لكوتار ، على ما يذهب اليه تارو أيضاً ، بأن ينظر الى اعراض القلق والذعر التي كانت تبدو على مواطنينا ، بهذا الرضى السمح المتفهّم الذي كان يستطيع أن يعبّر عن نفسه بمثل عبارة : « قل ما بدا لك ، لقد أصبت بالطاعون قبلك » .

« وقد حاولت عبثاً أن أقنعه بأن الطريقة الوحيدة لعدم الانفصال عن الآخرين ، كانت بعد كل شيء في أن يملك المرء ضميراً طيباً ، فاذا هو ينظر إليّ بخبث ويقول : « على هذا الاعتبار ، ليس هناك أحدٌ مع أحدٍ أبداً ». ثم أضاف « تستطيع أن تطمئن ، فأنا الذي أقول لك ذلك . إن الطريقة الوحيدة لجمع الناس فيما بينهم ، هي انزال الطاعون عليهم . انظر فيما حولك » . والحق أني أفهم جيداً ما يعنيه وكم كانت حياة اليوم تبدو له مرضية . فكيف له ألاّ يتعرّف ، في هذه الأثناء ، الارجاع التي كانت أرجاعه ؟ والمحاولة التي كان كل امرىء يقوم بها ليكون الناس كلهم معه ؟ والمعروف الذي يُبذل أحياناً لإرشاد مارّ ضال ، أو الاستياء الذي يُظهَر له أحياناً أخرى ؟ وتسارع الناس إلى المطاعم الفخمة ، وشعورهم بالرضى إذ

يجلسون فيها ويتأخرون ؟ والتدفق غير المنتظم الذي يؤلف كل يوم صفوفاً، أمام دور السينما ، والذي يملأ جميع دور المشاهد والمراقص نفسها ، والذي ينتشر كمدّ منفلت في جميع الأماكن العامة ؟ والتراجع أمام كل تماس ّ،وجوع الحرارة البشرية التي تدفع الناس مع ذلك بعضهم إلى بعض ، المرافق نحو المرافق ، والأجناس نحو الأجناس؟لقد عرف كوتار هذا كله قبلهم ، وهذا طبيعي . باستثناء النساء ، لأنه على ما هو عليه ... وأحسب أنه حين شعر بأنه على وشك أن يمضي إلى الفتيات ، رفض ذلك ، حتى لا يكتسب عادة يمكن فيما بعد أن تضرّ به .

« وبالاجمال ، فان الطاعون كان يلائمه . فقد حوّله من رجل متوحّد لم يكن يرغب في أن يكون كذلك ، إلى شريك له. وهو كما هو ظاهر تماماً شريك بالفعل ، وشريك يتلذّذ . إنه شريكٌ لكل ما يراه ، للوساوس والمخاوف غير المشروعة ولحساسيات النفوس المنذَرة ، وحرصها على أن تتحدث أقل ما يمكن عن الطاعون وعلى ألا تكفّ مع ذلك عن التحدث عنه ، ولذعرها واصفرارها لدى أقل صداع منذ أن عرفت أن المرض يبدأ بألوان من الرؤاس، ولإحساسها المهتاج المرهف اللامستقرّ الذي يحوّل النسيانات إلى إهانة والذي يكدّره فقدان زرّ من أزرار سروال » .

وقد اتفق لتارو كثيراً أن خرج مساءً مع كوتار . وهو يروي بعد ذلك في مذكراته كيف أنهما كانا يتغلغلان في الحشد الداكن المتجمّع وقت الشفق أو في الليل ، كتفاً الى كتف ، ويغرقان في جمع أبيض وأسود ترسل عليه المصابيح المتباعدة أنواراً ضئيلة ، ويرافقان القطيع البشري نحو اللذائذ الحارة التي كانت تقيه بَرْدَ الطاعون . إن ما كان كوتار يبحث عنه منذ أشهر خلت في الاماكن العامة،الحياة العريضة والرفاه ، ما كان يحلم به دون أن يتمكن من تحقيقه ، أعني المتعة الجموح،إنما كان يتجه اليه الآن شعب برمّته . وبينا كان ثمن كل شيء يرتفع دون ما مقاومة ،

تبيّن أنه لم يبذّر من المال مثلما كان يبذّر إذ ذاك ، وإذ كان معظم الناس يفتقرون إلى الضروري ، ظهر أنّ الفائض لم يُبدّد خيراً مما بُدّد وقتئذ . كان الناس يرون تعاظم مظاهر الفراغ التي لم تكن مع ذلك إلاّ عطلة .وكان تارو وكوتار يتبعان أحياناً ،لبضع دقائق طويلة،أحد هذه الازواج التي كانت فيما مضى تحرص على اخفاء ما يربط فيما بينها ، والتي هي الآن مشدودة إلى بعضها ، تسير بعناد عبرّ المدينة ، دون أن ترى الجمهور الذي يكتنفها ، شاردة شرود عواطف الحب الكبرى . وكان الحنان يغلب إذ ذاك على كوتار فيقول : « آه ! يا للسعداء! » ويرفع صوته بالحديث ، متفتّحاً وسط الحمى الجماعية والهبات الملكية التي ترنّ حولهم والدسائس التي تحبك أمام أنظارهم .

على أن تارو كان يعتقد أنّ مسلك كوتار كان يداخله بعض الخبث . فقد كانت عبارة « لقد عرفت ذلك قبلهم » تحمل من الشقاء أكثر مما تحمل من الزهو . يقول تارو : « أظنّ أنه بدأ يحب هؤلاء الرجال المسجونين بين سماء مدينتهم وجدرانها . فهو لو كان يستطيع لشرح لهم مثلاً أن الأمر ليس رهيباً إلى هذا الحد . وقد قال لي مؤكداً : انك لتسمعهم يقولون : بعد الطاعون سأفعل كذا ، بعد الطاعون سأفعل كيت ... إنهم يسممون حياتهم بدلاً من أن يظلوا هادئين ، بل إنهم لا يدركون ما ينعمون به من حسنات . هل أستطيع أنا أن أقول : بعد اعتقالي سأفعل كذا ؟ إن الاعتقال بداءة ، وليس نهاية . في حين أن الطاعون ... أتريد رأيي ؟ إنهم أشقياء لأنهم لا يدعون الامور تجري في أعنّتها . وأنا مدرك ما أقول » .

ويضيف تارو : « إنه يدرك حقاً ما يقول . إنه يحكم حكماً صحيحاً على تناقضات سكان وهران الذين فيما هم يستشعرون بعمق حاجة الحرارة التي تقرّب فيما بينهم ، لا يستسلمون مع ذلك لها بسبب من الحذر الذي يباعد فيما بينهم . من أعرف المعروف أن المرء لا يستطيع أن يثق بجاره ،

وأن هذا الجار جدير بأن يعطيك الطاعون خفية عنك وأن يفيد من تساهلك ليعديك . إن من قضى وقته ككوتار في الوقوع على واشين بين جميع الذين كان يلتمس عندهم الرفقة والصداقة ، يستطيع أن يفهم هذا الشعور . ما أسهل العطف على أشخاص يعيشون في التفكير بأن الطاعون قادرٌ بين ليلة وضحاها أن يضع يده على أكتافهم ، بل لعله يتهيأ لأن يفعل ذلك ، في وقت يشعرون فيه بالسعادة أنهم ما زالوا في صحة وخير . بقدر مايكون هذا ممكناً هنا ، فهو مرتاح في الرعب . غير أني أحسب أنه ، لكونه قد استشعر ذلك كله قبلهم ، لا يستطيع أن يحسّ معهم احساساً كاملاً بقسوة هذا التشكك . فهو بالاجمال يشعر معنا ، نحن الذين لم يموتوا بعدُ بالطاعون، بأن حريته وحياته هما كل يوم على وشك أن تهدما . ولكنه لما كان هو نفسه قد عاش في الرعب ، فإنه يجد من الطبيعي أن يعرفه الآخرون بدورهم . وبعبارة أدقّ ، إن الرعب يبدو له أخف حملاً مما لو عاش فيه وحده. وهو إنما يخطىء في ذلك ، ويظهر أشدّ صعوبة على الفهم من سواه . ولكنه بهذا إنما يستحق أكثر من سواه ، بعد كل شيء ، أن يحاول الناس فهمه » .

وأخيراً ، تنتهي صفحات تارو بحكاية تمثل هذا الوعي الفريد الذي أدرك كوتار والمطعونين في وقت واحد . وترسم هذه الحكاية تقريباً جو هذه الحقبة الصعبة ، ومن أجل هذا يعلق الراوي عليها أهمية خاصة .

كانوا قد قصدوا مسرح الاوبرا البلدي حيث تمثل مسرحية « أورفيه وأوريديس » . وكان كوتار قد دعا تارو . وكانت تقوم بالتمثيل فرقة سبق لها أن جاءت ، في ربيع الطاعون ، لتقدّم بضع حفلات في مدينتنا . وبعد أن احتجزها الطاعون ، ألفت نفسها مضطرة ، بعد عقد مع دار الاوبرا، أن تعيد تمثيل المسرحية مرة كل أسبوع . وهكذا دأب مسرحنا البلدي منذ أشهر يردد كل يوم جمعة، شكاوى « أورفيه » الغنائية ونداءات «أوريديس» العاجزة . ومع ذلك فقد ظلت هذه المسرحية حائزة على حظوة الجمهور ،

وظلت تدر أرباحاً كبيرة . وقد جاس كوتار وتارو في مقعدين من أغلى المقاعد ، فكانا يشرفان على أسفل المسرح الذي كان يغص بآنق مواطنينا. وكان الذين يصلون يجهدون جهداً ظاهراً في الإبانة عن دخولهم . فبينما كان الموسيقيون يدوزنون آلاتهم خفية ، تحت نور المسرح الباهر ، كانت الاطياف تنفصل من المجموع بدقة ، وتعبر من صف إلى آخر ، وتنحني برشاقة . وفي تمتمة حديث هادىء ، كان الرجال يستعيدون الطمأنينة التي كانوا يفتقدونها لساعات خلت ، وسط شوارع المدينة السوداء . لقد كان اللباس يطرد الطاعون .

وفي الفصل الأول كله ظلت « أورفيه » تبث شكاواها بسهولة ، وجعلت بعض النساء المرتديات الغلائل يفصّلن شقاءها تفصيلاً شائقاً ، ثم ارتفعت أغاني الحب خفيفة رقيقة . واهتزت القاعة بحرارة خفيّة .وكاد الحضور لا يلاحظون أن « أورفيه » أدخلت في لحن فصلها الثاني ارتجافات لم تكن فيه ، وطلبت بلهجة مفرطة التأثير إلى سيد جهنم أن يتأثر لدموعها . بل إن بعض الحركات المتقطعة التي أفلتت منها قد بدت لأفطن الحضور كأنها أثر من تنميق يُضاف كذلك إلى تمثيل المغني .

وكان لا بدّ من ثنائيّ « أورفيه » و « أوريديس » في الفصل الثالث (وكان ذلك حين أفلتت أوريديس من حبيبها) ليغمر القاعة بعض الإندهاش. وكما لو أن المغني لم يكن ينتظر إلا هذه الحركة من الجمهور ، أو كما لو أن الضجة الآتية من أسفل المسرح قد ثبتته في شعوره ، فقد اختار هذه اللاحظة ليتقدم نحو الدرج بطريقة مضحكة ، مباعداً ما بين ذراعيه وساقيه في ثوبه القديم ، لينهار وسط حظائر الديكور ، تلك الحظائر التي ما كفّت أبداً عن أن تكون مخالفة للتقاليد ، ولكنها كفت الآن للمرة الأولى في أعين النظارة عن أن تكون كذلك ، وبشكل فظيع . ذلك لأن الفرقة الموسيقية صمتت في الوقت نفسه ، ونهض جمهور أسفل المسرح وبدأ يخلي القاعة ،

بصمت أول الأمر، كما يخرج الناس من الكنيسة بعد انتهاء المراسيم، أو من غرفة للموت بعد زيارة، النساء مجمّعات تنانيرهن خارجات والرأس خافض، والرجال قائدين مرافقاتهم من المرفق حائلين بينهن وبين صدم الكراسي. ولكن ما لبثت الحركة أن تسارعت، وانقلبت التمتمة إلى صراخ، فتدفق الجمع نحو المخارج متدافعاً متزاحماً صائحاً. أما كوتار وتارو، فكانا قد اكتفيا بالنهوض، وظلاّ تجاه صورة من الصور التي كانت عليها حياتهما آنذاك: الطاعون على المسرح في مظهر مهرّج مفكّك المفاصل، وفي القاعة بذخ بات عديم الفائدة، بشكل مراوح منسية ومناديل مخرّمة متروكة على المقاعد الحُمْر.

في الأيام الأولى من أيلول ، كان رامبير قد انصرف إلى العمل انصرافاً جدّياً إلى جانب ريو . وإنما اكتفى بأن يطلب يوم عطلة حين كان عليه أن يلتقي بغونزاليس وبالشابين أمام مدرسة الذكور .

وظهر ذلك اليوم ، رأى غونزاليس والصحفي هذين الشابين يصلان وهما يضحكان . وقالا إن الحظ لم يكن مؤاتياً في المرة السابقة . ولكن ينبغي الآن أن يترقبّوه لأن دورهم في الحراسة في الاسبوع القادم ، فمن الواجب انتظار دورهما ، وإذ ذاك يعيدان الكرة . فقال رامبير إن هذه هي الكلمة الصحيحة ، وهكذا ضرب غونزاليس موعداً يوم الاثنين التالي . ولكن تقرر أن يقيم رامبير هذه المرة عند مرسيل ولويس . « سنتواعد أنت وأنا ، فان لم أوافك في الموعد ذهبت تواً اليهما ، أما منزلهما فسنرشدك اليه » . ولكن مرسيل ، أو لويس ، قال إن من الأيسر اصطحاب الرفيق في تلك اللحظة بالذات . وإن عندهما ما يأكلونه هم الأربعة ، على ألا يكون الصحفي صعباً متطلباً في أمر الطعام . وبوسعه إذ ذاك أن يقف على الأمر . فقال غونزاليس : هذا اقتراح طيّب جداً ، وهبطوا جميعاً إلى المرفأ .

وكان مرسيل ولويس يسكنان في الطرف الأقصى من « حي البحرية » بالقرب من الأبواب المفضية إلى الافريز . وكان بيتاً اسبانيّاً صغيراً كثيف الجدران ذا مصاريع من الخشب المدهون وحجرات عارية معتمة . وقدّمت أمّ الشابين ، وهي اسبانية عجوز باسمة الوجه مليئة بالتجعدات ،

أرزاً على المائدة ، مما أثار عجب غونزاليس لأن المدينة كانت تفتقر منذ حين إلى الأرز . فقال مرسيل موضحاً : « إننا نتدبر الامر على الابواب ». وجعل رامبير يأكل ويشرب ، وقال عنه غونزاليس إنه رفيق مخلص ، في حين كان الصحفي لا يفكر إلا بالاسبوع الذي ينبغي عليه أن يقضيه .

والواقع أنه وجب عليه أن ينتظر اسبوعين ، لأن ادوار الحراسة امتدّت إلى أسبوعين ، من أجل انقاص عدد الحرّاس . وطوال هذين الاسبوعين انصرف رامبير إلى العمل بطريقة متصلة ، منذ الصباح حتّى المساء ،وعيناه تكادان أن تكونا مغلقتين . وكان يأوي إلى فراشه في ساعة متأخرة من الليل ، فيستغرق في نوم عميق.وهذا الانتقال المفاجىء من التعطُّل إلى الجدّ المرهق تركه دون ما أحلام واستنفد قواه تقريباً . وكان قلّما يتحدث عن فراره القريب . وكان ثمة أمر واحد يستحقّ التسجيل : فبعد أسبوع ،أسرّ للطبيب بأنه قد ثَمِلَ في الليلة السابقة للمرة الأولى . فإذ خرج من الخمارة ، شعر فجأة بأن أربيّاته تتضخم ،وأن ذراعيه كانتا تتحركان بصعوبة ومشقّة حول إبطيه . وقد فكّر بأنه الطاعون . وكان الرجع الوحيد عنده لذلك،وقد وافق ريو على أنه لم يكن منطقيّاً ، أنه ركض نحو أعلى المدينة ، حتّى إذا بلغ ساحة صغيرة لم يكن البحر ليظهر منها وإنما كانت ترى فيها رقعة أكبر من السماء، نادى امرأته بصيحة كبيرة ، من فوق جدران المدينة . وحين عاد إلى بيته، ولم يكتشف في جسمه أي دلالة على العدوى ، لم يكن شديد الفخر بتلك الأزمة المفاجئة . وقال ريو إنه يفهم تماماً أن يتصرّف المرء هذا التصرّف ، وأضاف : « على أي حال، من الممكن للانسان أن يكون راغباً بمثل ذلك ».

وأضاف ريو فجأة ، حين تركه رامبير ، يقول :

ـــ لقد حدّثني السيد أوتون عنك هذا الصباح ،فسألني إن كنت أعرفك، وقال لي « انصحه بألا يتردّد على أوساط التهريب ، خشية أن يلاحظه الناس » .

ـــ وماذا يعني ذلك ؟

ـــ يعني أن عليك أن تعجّل .

فقال رامبير وهو يشدّ يد الطبيب : ـــ شكراً لك .

وعند الباب ، انفتل فجأة . ولاحظ ريو أنه كان يبتسم، للمرة الأولى منذ بدء الطاعون .

ـــ ولكن لماذا لا تمنعني من الذهاب ؟ إن بين يديك الوسائل لذلك .

فهزّ ريو رأسه بحركته المعتادة وقال إن هذا من شأن رامبير ، وان هذا كان الأخير قد اختار السعادة ، وانه ، هو ريو ، لم تكن له حجج يعارضه بها. كان يشعر أنه غير جدير بأن يحكم على ما هو خير أو ما هو شرّ في هذه القضية .

ـــ لماذا تقول لي بأن أسرع ، ما دامت هذه هي الظروف ؟

فابتسم ريو بدوره وقال :

ـــ ذلك لأني ربما كنت أنا أيضاً أريد أن أفعل شيئاً من أجل السعادة.

وفي اليوم التالي لم يتحدثا بشيء بعد ، وإنما عملا معاً . وفي الاسبوع التالي ، كان رامبير قد استقرّ أخيراً في البيت الاسباني الصغير . وقد أقيم له فيه سرير في القاعة المشتركة . ولما كان الشابان لا يعودان إلى البيت للطعام، وكان قد طُلب اليه أن يخرج أقلّ ما يمكنه ، فقد أخذ يعيش وحده فيه أغلب الاحيان أو يتحدث إلى الام الاسبانية العجوز . وكانت نشيطة جافّة ، ترتدي السواد ، ذات وجه أسمر مجعّد ، تحت شعر أبيض شديد النظافة . وكانت صموتاً تجتزىء بالابتسام بكل عينيها إذ كانت تنظر إلى رامبير .

وكانت تسأله أحياناً عمّا إذا كان لا يخشى أن يحمل الطاعون لزوجته. وكان هو يعتقد بأن الامر لا يخاو من خطر ، ولكنه خطر ضئيل ، أما إذا

بقي في المدينة ، فانهما يوشكان أن يفترقا إلى الأبد . وقالت العجوز وهي تبسم :

– هل هي لطيفة ؟

– لطيفة جداً .

– وجميلة ؟

– اعتقد ذلك .

فقالت : – آه ... إنه من أجل ذلك .

وجعل رامبير يفكر . لاريب أن الأمر كان من أجل ذلك ، ولكن كان مستحيلاً أن يكون من أجل ذلك فقط .

وقالت له العجوز ، وكانت تذهب إلى القداس كل صباح :

– ألا تؤمن بالرب الرحيم ؟

فاعترف أن لا ، فقالت العجوز أيضاً إنه من أجل ذلك .

– ينبغي أن تذهب اليها . إنك على حق . وإلا فماذا يبقى لك ؟

وكان رامبير في باقي الأوقات يطوف بالجدران العارية المملّطة ، ملامساً المراوح المسمّرة في الحيطان ، أو عادّاً الكرات الصوفية التي تُهدّب فرْش الطاولة . وكان الشابان يعودان في المساء ، ولم يكونا يتكلمان كثيراً إلا ليقولا إن الأوان لم يَحنْ بعد . وبعد العشاء كان مرسيل يعزف على الغيتار ، بينما هم يشربون شراباً معطراً بالانيسون . وكان يبدو على رامبير أنه يفكر .

ويوم الاربعاء ، دخل مرسيل وهو يقول : « مساء الغد ،عند منتصف الليل ، كن على استعداد ». ذلك أن أحد الرجلين اللذين كانا يقومان معهما على مركز الحراسة قد أصيب بالطاعون ، وكان الآخر الذي يقاسم الاول غرفته عادة موضوعاً تحت الرقابة . وهكذا سيكون مرسيل ولويس وحدهما

يومين أو ثلاثة . وهما سيدبـّران التفاصيل الاخيرة في أثناء الليل ، حتى إذا كان الغد ، أمكن تحقيق العملية . وشكرهما رامبير ، فسألته العجوز « هل أنت مسرور؟ » فأجاب نعم ، ولكنه كان يفكر بشيء آخر .

وفي اليوم التالي ، كانت الحرارة رطبة وخانقة تحت سماء ثقيلة . وكانت أنباء الطاعون سيئة . على أن العجوز الاسبانية احتفظت بسكينتها وقالت : « إن العالم لا يخلو من الاثم ... فمن أجل ذلك ! » وكان رامبير ، شأنه في ذلك شأن مرسيل ولويس ، عاري الصدر . ولكن مهما كان يفعل ، كان العرق يسيل بين كتفيه وعلى صدره . وكانت صدورهم ، في عتمة البيت المغلق المصاريع ، تبدو سمراء وملتمعة . وكان رامبير يدور في القاعة دون أن يتكلم . وحين آذنت الساعة الرابعة ارتدى ثيابه فجأة ، وأعلن أنه خارج .

وقال له مرسيل : — كن على استعداد عند منتصف الليل . إن كل شيء مُعدّ .

وتوجه رامبير إلى منزل الطبيب ، فأخبرته والدة ريو أنه سيلاقيه في مستشفى المدينة العليا . وكان الحشد نفسه دائباً في الطواف أمام مركز الحراسة ؛ وحين قال لهم سرجان ذو عينين جاحظتين : « سيروا » ساروا لكن حول أنفسهم . وقال السرجان الذي كان العرق ينفذ من سترته « ليس لكم ما تنتظرونه ». وكان هذا هو أيضاً رأي الآخرين ، ولكنهم ظلّوا هناك بالرغم من الحرّ القاتل . وابرز رامبير للسرجان الإذن بالمرور ، فدلـّه على مكتب تارو . وكان الباب يفضي إلى الملعب . والتقى بالاب بانولو الذي كان خارجاً من المكتب .

وكان تارو جالساً في حجرة صغيرة قذرة تنبعث منها رائحة العقاقير والقماش الرطب ، خلف مكتب من الخشب الاسود ، مثنيّ أكمام القميص ، وكان يكفكف بمنديل العرق الذي يسيل على مَفْصد ذراعه . فقال :

– أنت هنا أيضاً ؟

– نعم . أودّ أن أتحدث إلى ريو .

– إنه في القاعة . ولكن إن كان بالامكان تدبير الامر بدونه ، كان خيراً.

– ولماذا ؟

– إنه مرهق جداً ، وأنا أحاول أن أُجنِّبه ما أستطيع .

وجعل رامبير ينظر إلى تارو . كان هذا قد هَزُل حقاً ، وكان التعب يلقي على عينيه وقسماته غشاوة . وكانت كتفاه القويتان متجمعتين كتلتين . وطُرق الباب فدخل ممرض مقنّع بالبياض ، ووضع على مكتب تارو حزمة من البطاقات واكتفى بأن يقول بصوت يخنقه قناعه : « ست » ثم خرج . ونظر تارو إلى الصحفي وأراه البطاقات التي نشرها بشكل مروحة :

– بطاقات جميلة ، أليس كذلك ؟ لا ... إنهم أموات . أموات الليل.

وكان جبينه قد تجعّد ، فطوى حزمة البطاقات .

– الشيء الوحيد الذي يبقى لنا ، إنما هي الحسابات .

ونهض تارّو معتمداً على الطاولة :

– هل أنت ذاهب قريباً ؟

– بعد منتصف هذه الليلة .

فقال تارو إن هذا يسره وان رامبير يجب أن يسهر عليه .

– أتقول ذلك مخلصاً ؟

فهزّ تارو كتفيه :

– إن من كان في عمري مخلصٌ بالضرورة . فالكذب مرهقٌ أكثر مما ينبغي .

قال الصحفي : – تارو ، أودّ أن أرى الطبيب . أعذرني .

– أعرف ذلك . إنه أكثر انسانية مني . هيّا بنا .

– ليس الأمر كذلك .

قال رامبير هذا بمشقـّة ، ثم توقـّف ، فنظر اليه تارو فجأة وابتسم له .

وسلكا رواقاً صغيراً كانت جدرانه مدهونة باللون الاخضر الصافي ، وكان ينعكس عليها نورٌ ينبعث من حوض ماء . وقبل بلوغ باب زجاجي مزدوج ، كان يُرى خلفه حركة ظلال عجيبة ، أدخل تارو رامبير في قاعة صغيرة جداً ملأى بالخزائن . وقد فتح احداها ، وأخرج من معـَقـّم قناعين من الشاش الذي يمتص الماء ، ومدّ أحدهما إلى رامبير داعياً إياه إلى أن يغطّي رأسه به ، فسأل الصحفي عما إذا كان ذلك يُجدي شيئاً ، فأجاب تارو أن لا ، وإنما كان ذلك يبعث الثقة والاطمئنان في نفوس الآخرين .

ودفعا الباب الزجاجي ، فاذا هما في قاعة كبيرة ذات نوافذ محكمة الاغلاق بالرغم من الفصل القائظ . وفي أعلى الجدران كانت تدندن آلات تجدّد الهواء ، وكانت مراوحها المعوجّة تحرّك الهواء الكثيف الحارّ فوق صفـّيْ الأسرّة الرمادية . ومن جميع الجهات كانت تنبعث أصوات أنين أصمّ أو ثاقب يتحول شكوى رتيبة . وكان ثمة رجال يلبسون البياض ويتنقلون بهدوء في النور القاسي الذي كانت ترسله الكـُوى العالية المزوّدة بالقضبان . وشعر رامبير بضيق في حرّ هذه القاعة المريع ، وكاد لا يعرف ريو الذي كان منحنياً فوق شكلٍ يئنّ . كـــان الطبيب يفصد اربيّات المريض الذي كانت ممرضتان تمسكان به من يمين وشمال . وحين استقام ترك الآلة تسقط في طبق كان أحد مساعديه يمدّ به اليه ، وظل لحظة لا يتحرك ، ناظراً إلى الرجل الذي كانوا يضمدونه . وقال لتارو ، وكان قد دنا منه :

– أيّ جديد هناك ؟

– لقد قبل بانولو أن يحل محلّ رامبير في دار الحجر . وقد عمل كثيراً حتى الآن . وتبقى هناك فرقة الاستكشاف التي ينبغي إعادة تشكيلها من غير رامبير .

فوافق ريو برأسه .

– لقد أنجز كاستل اعداداته الأولى ، وهو يقترح القيام بتجربة .

قال ريو : – آه ! هذا شيء حسن .

– وأخيراً ، إن رامبير هنا .

فانفتل ريو . وتقلصت عيناه تحت القناع إذ رأى الصحفي ، وسأله :

– ماذا تفعل هنا ؟ ينبغي لك أن تكون في مكان آخر .

فقال تارو : إن الامر سيتم بعد منتصف هذه الليلة ، وأضاف رامبير « مبدئياً » .

وفي كل مرّة كان أحدهم يتكلم فيها كان القناع ينتفخ ويترطّب لدى موضع الفم . وذلك ما أكسب المحادثة طابعاً غير واقعي ، كأنها هي حوار أصنام . وقال رامبير :

– بودّي أن أكلمك .

– سنخرج معاً إذا أردت . انتظرني في مكتب تارو .

وبعد هنيهة ، جلس رامبير وريو في المقعد الخلفي من سيارة الطبيب ، وكان تارو هو الذي يقودها ، وحين أقلع بها قال :

– ليس ثمة بنزين بعد . وسوف نمشي غداً على أقدامنا .

قال رامبير :

– إنني لن أذهب يا دكتور . وأودّ أن أبقى معكم .

فلم يتحرك تارو ، وإنما ظل يقود . وبدا على ريو أنه غير قادر على أن يخرج من تعبه . ثم قال بصوت جامد :

– وهي ؟

فقال رامبير إنه قد فكر ملياً ، وإنه ما زال يؤمن بما كان يؤمن به ، ولكنه سيشعر بالخجل إن هو ذهب . وسيزعجه ذلك لكي يحبّ المرأة التي تركها . ولكن ريو استقام وقال بصوت حازم إن هذا شيء بليد أحمق ، وإنه لا سبيل للخجل ازاء ايثار السعادة ، فقال رامبير :

– هذا صحيح . ولكن ربما كان مخجلاً أن يكون المرء سعيداً وحده.

ولم يكن تارو قد تكلم حتى الآن ، فقال ملاحظاً من غير أن يلفت رأسه إنه إذا كان رامبير يريد أن يقاسم الناس مصابهم ، فلن يملك بعدُ أبداً وقتاً للسعادة ، وعليه أن يختار . فقال رامبير :

– ليست هذه هي القضية . لقد كنت دائم التفكير بأني أجنبي عن هذه المدينة وأنه لا شأن لي بكم . أما وقد رأيت الآن ما رأيت ، فاني موقن أني من هنا ، أردت ذلك أم لم أرد . إن هذه القضية تعنينا جميعاً .

فلم يجب أحد ، وبدا على رامبير نفاد الصبر .

– ثم إنكما تعلمان ذلك تماماً . وإلا فماذا تفعلان في هذا المستشفى ؟ هل اخترتما أنتما ، وتنازلتما عن السعادة ؟

فظل تارو وريو على صمتهما . ودام الصمت حتى اقتربوا من منزل الطبيب . وطرح رامبير من جديد سؤاله الأخير ، بلهجة أقوى ، فالتفت ريو وحده اليه وقال جاهداً :

– سامحني يا رامبير ، إنني لا أعرف ذلك . ابق إذن معنا ما دمت راغباً في البقاء .

ولكن هزّة مفاجئة اعترت السيارة فأسكتته . ثم أردف وهو ينظر إلى الأمام :

– لا يستحق شيء في الدنيا أن ينصرف المرء من أجله عما يحبه . ومع ذلك ، فأنا أنصرف عن ذلك ، من غير أن أعرف لماذا .

ثم تداعى على مقعده وأضاف بتراخ :

– كل ما في الامر أن هذا واقع . لنسجّله ولنستخرج منه النتائج .

فسأل رامبير : – أية نتائج ؟

قال ريو :– آه..ليس بامكان امرىء أن يَشفيَ ويعرف في وقت واحد. وإذن فيجب أن نشفي بأسرع وقت ممكن. هذا هو الامر الأكثر استعجالاً .

وجلس تارو وريو في منتصف الليل يعدّان لرامبير خطة الحي الذي عهد اليه بأن يستكشف فيه . ونظر تارو إلى ساعته ، ورفع رأسه فالتقى بعيني رامبير :

– هل بلّغت قرارك ؟

فصرف الصحفي نظره وقال بقوة :

– لقد أرسلت كلمة قبل أن أذهب لرؤيتكما .

جُرّب مصل كاستيل في أواخر تشرين الأول . وقد كان ريو يعلق آخر أملٍ على هذا المصل . وكان موقناً أن المدينة ، في حال إخفاقه مرة أخرى ، ستخضع لنزوات الطاعون ، إمّا بسبب أن الوباء سيتفاقم طوال أشهر أخرى ، أو أن يقرّر التوقف دون ما سبب .

وقد حدث أن ابن السيد أوتون ، عشية اليوم الذي زار فيه كاستيل ريو ، سقط مريضاً فاضطرت الاسرة كلها إلى دخول المحجر الصحيّ. وكانت الام قد خرجت منه قبل حين ، فاذا هي تجد نفسها معزولة للمرة الثانية . ولما كان القاضي يحترم الأوامر الصادرة ، فقد استدعى الدكتور ريو منذ أن تعرّف على جسم ابنه علامات المرض . وحين وصل ريو ، كان الاب والام واقفين عند أسفل السرير ، وكانت الفتاة الصغيرة قد أُبعدت . أما الصبي فكان قد دخل في مرحلة الإحباط ، فتركهم يفحصونه دون ما شكوى . وحين رفع الطبيب رأسه التقى بنظر القاضي وبوجه الام التي كانت قد وضعت منديلاً على فمها ، وكانت تتابع حركات الطبيب بعينين متّسعتين . وقال القاضي بصوت بارد : — إنه الطاعون، اليس كذلك؟

فأجاب ريو وهو ينظر مرة أخرى إلى الصبي : — نعم .

فكبرتْ عينا الام ، ولكنها أقامت على صمتها . وصمت القاضي هو أيضاً ، ثم قال بصوت منخفض :

— حسناً ، أيها الطبيب . يجب أن نعمل بمقتضى التعليمات .

وكان ريو يتفادى من النظر إلى الام التي ظلت محتفظة بمنديلها على فمها . وقد قال بعد تردّد :

— سيتم ذلك بسرعة إذا استطعت أن أُتلفن .

فقال السيد أوتون أنه سيحمله بسيارته ، لكن الطبيب التفت نحو المرأة وقال :

— إنني متأسف . يجب أن تعدّي بعض الحوائج ، وإنك اتعرفين ماهي .

فبدت الدهشة على السيدة أوتون ، وكانت مطرقة إلى الأرض ، ثم قالت وهي تهزّ رأسها :

— أجل ، هذا ما سوف أفعله .

ولم يتمالك ريو قبل أن يغادرهما عن سؤالهما عما إذا كانا بحاجة إلى شيء. فظلت المرأة تنظر اليه بسكون ، أما القاضي فقد صرف هذه المرة عينيه وقال وهو يجرض بريقه :

— لا ... ولكن أنقذ ابني .

وكان ريو ورامبير قد نظما المحجر الصحّي بدقة وحزم بعد أن كان مجرّد أمر شكلي . وقد أصرّا بصورة خاصة على أن يُعزل أفراد أسرة واحدة أحدهم عن الآخر . حتى إذا أصيب أحد أفراد الاسرة دون أن يعرف ، امتنع سائر الافراد على العدوى . وقد شرح ريو هذه الاسباب للقاضي فوجدها صالحة . ومع ذلك فقد ظلّ يتبادل النظر مع امرأته حتى شعر الطبيب بأن هذا الفراق يشقّ عليهما كثيراً . وقد تمكنت السيدة أوتون وابنتها الصغيرة من النزول في فندق المحجر الذي كان يديره رامبير . ولكن لم يكن لقاضي التحقيق مكان إلا في معسكر العزل الذي كانت الولاية تعده آنذاك في الملعب البلدي بواسطة خيمات استعارتها من دائرة الطرق

العمومية . وقد اعتذر ريو عن ذلك ، ولكن السيد أوتون أجاب بأنه لم يكن ثمة إلا قاعدة واحدة وأنه ينبغي له أن يطيع .

أما الصبي فقد نقل إلى المستشفى المساعد الذي أقيم في قاعة مدرسة قديمة نصبت فيها عشرة أسرة . وبعد عشرين ساعة حكم ريو بأن حالته تدعو إلى اليأس . فقد كان الجسم الصغير يستسلم للمرض ينهكه من غير مقاومة . كانت ثمة دمامل صغيرة مؤلمة تكاد لا تبين ، تحاصر مفاصل أعضائه الهزيلة . كان مقهوراً مقدماً ، ومن أجل هذا فكّر ريو في أن يجرب عليه مصل كاستيل . وفي مساء ذلك اليوم بالذات ، قاموا بعد العشاء بالحقن ، ولكنهم لم يلاحظوا أي رد فعل للصبي . وفي اليوم التالي ، اجتمعوا كلهم عند الفجر بالقرب من الغلام ليحكموا على هذه التجربة الحاسمة .

وكان الصبي قد خرج من خدَره وجعل يتقلّب في فـــراشه متشنّجاً . وكان الدكتور كاستيل وتارو قائمين إلى جانبه منذ الرابعة صباحاً ، متتبعين خطوة فخطوة تقدُّم المرض او توقّفه . وكان جسم تارو الكثيف فوق أعلى السرير مقوساً بعض الشيء . أما عند أسفل السرير فقد كان كاستيل جالساً أمام ريو الواقف ، يقرأ مؤلفاً قديماً بجميع مظاهر الهدوء . وقد أخذ الآخرون يتوافدون شيئاً فشيئاً ما اتسع النهار في قاعة المدرسة القديمة . وكان أولهم بانولو الذي وقف في الطرف الثاني من السرير بالنسبة إلى تارو واستند إلى الجدار . وكان وجهه ينطق بتعبير أليم ، وكان تعب هذه الايام الطويلة التي ضحى فيها بنفسه قد خط تجاعيد على جبينه المتقلّص . وما لبث جوزيف غران أن وصل ، وكانت الساعة السابعة ، فاذا هو يعتذر عن أنه كان تعباً يلهث ، وقال إنه لن يبقى أكثر من لحظة ، وربما كانوا قد عرفوا شيئاً واضحاً . ومن غير أن يقول ريو شيئاً ، أراه الصبي الذي كان مغمض العينين في وجه منحل ، مشدود الاسنان بكل ما أوتي من قوة ، جامد الجسم ، يقلب رأسه ذات اليمين وذات الشمال على الوسادة المجردة . ووصل رامبير أخيراً حين

أضحى النهار . فبات بالامكان رؤية آثار المعادلات القديمة . فاستند إلى أسفل السرير المجاور وأخرج علبة سكاير . ولكنه أعاد العلبة إلى جيبه بعد أن نظر نظرة إلى الصبي . وكان كاستيل ما يزال جالساً ينظر إلى ريو من فوق نظارتيه :

— هل لديك أنباء عن الوالد ؟

فقال ريو : — لا ، سوى أنه في معسكر العزل .

وأخذ الطبيب يضغط بقوة على قضيب السرير الذي كان الصبي يئن فيه . ولم يكن لينزع بصره عن المريض الصغير الذي توتّر فجأة ثم قوّس جسمه وهو ما زال يكزّ على أسنانه ، وباعد قليلاً ما بين ذراعيه وفخذيه. وكانت ترشح من الجسم الصغير العاري تحت الغطاء العسكري رائحة صوف وعرق حامز . ثم تقلص الصبي شيئاً فشيئاً ، وأعاد ذراعيه وفخذيه إلى وسط السرير وبدا أنه مسرع في تنفّسه ، وكأنه أعمى أبكم . والتقى ريو بنظر تارو الذي صرف عينيه .

لقد سبق لهما أن رأيا أطفالاً يموتون ، فان الرعب لم يكن ليميّز الناس منذ أشهر ، ولكنهما لم يسبق لهما أن تابعا دقيقة فدقيقة ، كما يفعلان منذ هذا الصباح ، آلام أولئك الاطفال . والحق أن الالم الذي يتكبّده هؤلاء الأبرياء لم يكفّ قطّ عن ان يبدو لهما على حقيقته ، أي فضيحة . ولكنهما كانا حتى ذلك الحين يغضبان غضباً مجرداً على نحوٍ ما ، لأنهما لم يواجها من قبل ، لمثل هذه المدّة ، احتضار بريء كما يواجهانه الآن .

وفي تلك اللحظة ، انطوى الصبي على نفسه مرة أخرى وهو يرسل أنّة دقيقة ، كأنما عُضّ في معدته . وظلّ هكذا منطوياً طوال لحظات ، تهزّه الرعشات والرجفات المتشنجة ، كما لو أن هيكله الهزيل ينثني تحت ريح الطاعون المزمجرة ، ويتقصّف تحت أنفاس الحمى المتواصلة . حتى إذا

ما مرّت العاصفة ،استرخى قليلاً ، وبدا أن الحمى تنسحب وتغادره لاهثةً إلى رملةٍ رطبة مسمومة تشبه الراحةُ فيها الموت . وحين أدركته الموجة المحرقة للمرة الثالثة ونفضته قليلاً ، عاد فانطوى وتراجع وسط سريره في ذعر اللهيب الذي يحرقه ، وهزّ رأسه بجنون وهـــو يقذف عنه غطاءه . وكانت تتدفّق من تحت الاجفان الملتهبة دموع غزيرة أخذت تسيل على وجهه المكمدّ ، حتى إذا مرّت الأزمة وقـــد استنفدته ، شنّج ساقيه المعروقتين وذراعيه اللتين كان جلدهما قد ذاب في ثمان وأربعين ساعة ، فاذا هو يتخذ في سريره المكتَسح وضع مصلوب غريب .

وانحنى تارو ومسح بيده الثقيلة الوجه الصغير المبلل بالدموع والعرق .

وكان كاستيل قد أغلق منذ لحظة كتابه وجعل ينظر إلى المريض وبدأ جملةً ، ولكنه اضطر إلى السعال كي يتمها لأن صوته انفجر فجأة :

ــ ألم يحدث خمودٌ صباحيّ للمرض يا دكتور ؟

فأجاب ريو نفياً ، ولكنه أضاف بأن الصبي يقاوم أطول مما كان مفروضاً ، فاذا بانولو ، الذي بدا خائراً بعض الشيء عند الجدار ، يقول بصوت مخنوق :

ــ لو أنه مقبل على الموت لتألّم وقتاً أطول .

فالتفت ريو فجأة اليه وفتح فمه ليتكلم ، ولكنه صمت ، وأبدى جهداً ملحوظاً ليتمالك نفسه ، ثم حوّل نظره إلى الصبي . وكان النور يزداد انتشاراً في القاعة . وعلى الاسرّة الخمسة الاخرى ، كانت الاجسام تتقلب وتئن ولكن بتحفظ يبدو كأنه مدبّر . وكان الوحيد الذي يصيح ، في الطرف الآخر من القاعة ، يرسل في فترات منتظمة صرخات صغيرة كانت تبدو اكثر تعبيراً عن الدهشة منها عن الألم.وكان يبدو أن الأمر،حتى بالنسبة إلى المرضى ، ليس هو ذعر البداءة . بل لقد كان هناك الآن لون من الموافقة

في تقبّلهم للمرض . وكان الصبي وحده يتخبط بجماع قواه . وقد كان ريو يجسّ نبضه بين حين وآخر من غير حاجة ، وإنما ليخرج من الجمود العاجز الذي كان مستغرقاً فيه ، ويشعر ، إذ يغمض عينيه ، بتلك النبضات تختلط بخفق دمه هو نفسه ، فكان إذ ذاك يندمج بالصبي المعذّب ويحاول أن يساعده بكل قوّته التي لم تمسّ بعد . ولكن نبضات قلبيهما ، تلك التي توحّدت دقيقة ، كانت تتنافر ، فكان الغلام يفلت منه ، ويسقط جهده في الفراغ . وإذ ذاك يترك المعصم الهزيل ويعود إلى مجلسه .

وكان الضياء يحول من اللازورد إلى الأصفر وهو ينعكس على الجدران المطلية بالكلس . وخلف الزجاج ، بدأت صبيحة حارة تزفر . ولم يكد صوت غران يُسمع وهو يقول إنه عائد . كان الجميع ينتظرون . وكان يبدو أن الصبي المغلق العينين يهدأ قليلاً . كانت يداه ، وقد أصبحتا كالمخالب ، تنكثان بهدوء جوانب السرير . ثم تصعدان فتخدشان الغطاء بالقرب من الركبتين . وفجأة طوى الصبي ساقيه وجمّع مؤخرته على صعيد البطن ثم جمد . إذ ذاك فتح عينيه للمرة الأولى ونظر إلى ريو الذي كان أمامه . وفي وسط وجهه الجامد ، انشق الفم على التوّ وندّت عنه صرخة موصولة يكاد التنفس ألاّ يغير فيها النغم ، فملأت القاعة بغتةً باحتجاج رتيب ناشز كأنه لفرط ضعف انسانيته صادر عن جميع الناس في وقت واحد . وكان ريو يصك أسنانه حين صرف تارو رأسه . واقترب رامبير من السرير بالقرب من كاستل الذي طوى كتابه الذي كان حتى ذلك الحين منشوراً على ركبتيه . ونظر بانولو إلى هذا الفم الصبياني الملوّث بالوباء ، المليء بتلك الصرخة ، صرخة جميع العهود . فاذا هو يتراخى فيركع على قدميه ، وإذا الجميع يجدون من الطبيعي أن يسمعوه يقول بصوت مخنوق بعض الشيء ولكنه واضح بعد الشكوى المغفلة التي لم تكن لتنقطع : « يا إلهي أنقذ هذا الصبي » .

ولكن الصبي يظل في صراخه ، ويضطرب حوله المرضى . أما الذي كانت صيحاته لم تنقطع ، في طرف القاعة الآخر ، فقد عجّل في إيقاع شكواه حتى أحالها هو أيضاً إلى صرخة حقيقية ، بينا كان الآخرون يزدادون أنيناً . وانبعثت في القاعة دفقة من غصّات ، غطّت صلاة بانولو ، فأغمض ريو عينيه وهو متعلق بقضيب السرير ، سكران من تعب واشمئزاز . وحين فتحهما رأى تارو قريباً منه فقال :

— ينبغي لي أن أذهب . لم يبق في مكنتي أن أحتملهم .

ولكن المرضى الآخرين صمتوا فجأة . فشعر الطبيب إذ ذاك أن صرخة الصبي قد ضعفت ، وأنها لا تزال تضعف ، وأنها قد انقطعت . وانبعثت أنّات الشكوى حوله من جديد ولكن بصوت مخنوق ، وكأنها صدى متباعد لهذا الصراع الذي انتهى . ولقد انتهى هذا الصراع حقاً . وقد انتقل كاستل إلى الجانب الآخر من السرير ، وقال إن الامر قد انتهى . كان الصبي فاغر الفم ولكنه أبكمه ، يرتاح في جوف الأغطية المدعوكة ، وقد انكمش فجأة ، وظلت على وجهه آثار دموع .

واقترب بانولو من السرير وقام بحركات البركة ، ثم لملم أذياله وخرج من الممشى الرئيسي . وسأل تارو كاستل :

— أينبغي إعادة كل شيء من جديد ؟

فهزّ الطبيب رأسه وقال ببسمة متشنجة :

— ربما . وأيّاً ما كان ، فقد قاوم طويلاً .

وسرعان ما غادر ريو القاعة بخطىً سريعة جداً حتى أنه تجاوز بانولو ، فاستوقفه هذا وقال له :

— وإذن ، يا دكتور ؟

فانفتل اليه ريو بحركة سريعة وقذفه بعنف قائلاً :

ـ آه ! لقد كان هذا ، على الاقل ، بريئاً .. وإنك لتعرف ذلك جيداً !

ثم انصرف مجتازاً أبواب القاعة قبل بانولو حتى بلغ حديقة المدرسة ، فجلس على مقعد بين الشجيرات المغبرّة وجعل يمسح العرق الذي كان قد بلغ عينيه . كان بودّه أن يصرخ بعد ليحلّ أخيراً العقدة العنيفة التي كانت تطحن قلبه ، وكان الحر يسّاقط بين أغصان شجرالتين ، وتنتشر في سماء الصباح الزرقاء غشاوة مبيضة تزيد في ثقل الهواء الخانق . وتراخى ريو على مقعده ، وجعل ينظر إلى الاغصان والسماء ، مستعيداً أنفاسه بهدوء كابتاً تعبه شيئاً فشيئاً . وسمع صوتاً خلفه يقول :

ـ لماذا حدثتني بهذا الغضب ؟ إن ذلك المنظر قد آلمني أنا أيضاً وكان شيئاً لا يحتمل .

فالتفت ريو إلى بانولو وقال :

ـ هذا صحيح . سامحني . إن التعب يدعو إلى الجنون . تمرّ عليّ في هذه المدينة ساعات لا أشعر فيها إلا بتمرّدي .

فتمتم بانولو : ـ أفهم ذلك . إن هذا مثير لأنــه يتجاوز حدودنا . ولكن لعل من الخير لنا أن نحب ما لا نستطيع إدراكه .

فانتصب ريو مرّة واحدة ، وجعل ينظر إلى بانولو بكل ما كان قادراً عليه من قوة وعاطفة ، وأخذ يهز رأسه :

ـ كلا يا أبت ، إن لي في الحب نظرية أخرى . وسأرفض حتى الموت أن أحبّ هذ الخَلْق الذي يُعذّب فيه الأولاد .

وألمّ بوجه بانولو ظلٌ قاتم ، فقال بحزن :

ـ آه ! دكتور . فهمت الآن ما يُدعى بنعمة الإيمان .

ولكن ريو كان قد تمدد من جديد على مقعده ، ومن أعماق تعبه العائد أجاب على مهل :

ـ هذ ما لا أملكه ، ولكني لا أريد أن أناقش ذلك معك . إننا نعمل

معاً من أجل شيء يجمعنا خلف حدود التجديفات والصلوات . إن هذا هو وحده الهامّ .

وجلس بانولو بالقرب من ريو ، وكان يبدو عليه الاضطراب ، فقال :

– أجل ... أجل ... أنت أيضاً تعمل من أجل خلاص الانسان .

فحاول ريو أن يبتسم :

– إن خلاص الانسان كلمة كبيرة جداً عليّ . وأنا لا أذهب مذهباً بعيداً كهذا . وإنما تعنيني صحة الانسان ، صحته قبل كل شيء .

فتردد بانولو ثم قال : – يا دكتور ...

ولكنه توقف ، وبدأ العرق يسيل على جبينه هو أيضاً . وتمتم « إلى اللقاء » وبرقت عيناه إذ نهض . وكان يهم بالذهاب حين نهض ريو ، وكان يفكر ، وخطا اليه خطوة ثم قال :

– سامحني مرة أخرى . لن أعود إلى مثل ذلك الغضب .

فمد بانولو اليه يده وقال بحزن :

– ومع ذلك ، فانني لم أقنعك !

قال ريو :

– وأي بأس في ذلك ؟ إن ما أكرهه إنما هو الموت والشرّ كما تعلم . وسواء أردت أم لم ترد ، فنحن معاً لتحمّلهما ومحاربتهما .

وظل ريو محتفظاً بيد بانولو ، ثم قال له وهو يتفادى من النظر اليه :

– أترى إذن ؟ إن الله نفسه لا يستطيع الآن أن يفرق بيننا .

منذ أن التحق بانولو بالتشكيلات الصحية ، لم يغادر المستشفيات والأماكن التي كان الطاعون يزورها . وقد اتخذ لنفسه بين المنقذين المكان الذي بدا له أنه يجب أن يكون مكانه ، أي الاول . ولقد وقف على كثير من مناظر الموت . وبالرغم من أن المصل كان يقيه مبدئياً ، فان وسواس موته هو نفسه لم يكن غريباً عليه . وكان قد احتفظ بهدوئه دائماً في الظاهر ، ولكنه منذ ذلك اليوم الذي تطلع فيه طويلاً إلى صبي يموت ، بـــدا أنه قد تغيّر . كان توتر متزايد يبدو على وجهه ، وقد قال يوماً لريو وهو يبتسم أنه كان يعدّ في ذلك الحين دراسة قصيرة في موضوع « هل يستطيع كاهن أن يستشير طبيباً » ؟ فشعر الطبيب بأن الأمر قضية أهمّ مما كـــان يبدو في كلام بانولو . وإذ عبر الطبيب عن رغبته في أن يقف على تفاصيل هذا الموضوع ، أبلغه بانولو أنّ عليه أن يقوم بعظة في قداس الرجال ، وأنه سيعرض بهذه المناسبة بعض أفكاره على الأقل في هذا الصدد :

ــ أحبّ أن تأتي يا دكتور ، فان الموضوع سيهمك .

وألقى الاب عظته الثانية في يوم عاصف . والحق أن صفوف الحضور كانت أقل ازدحاماً مما كانت عليه يوم العظة الأولى . ذلك أن هذا اللون من المشاهد فقد في أعين مواطنينا طابع الجدّة . وحتى كلمة « الجدّة » قد فقدت معناها في الظروف الحرجة التي كانت تجتازها المدينة . ومن جهة أخرى ، فان معظم الناس الذين لم يهجروا تماماً واجباتهم الدينية أو لم يطابقوها

على حياة شخصية عميقة اللااخلاقية ، كانوا قد استبدلوا بالطقوس العادية وساوس قليلة التعقل . فهم يؤثرون حمل المداليات الواقية أو تمائم القديس روش على الذهاب إلى القداس .

وبالامكان التمثيل لذلك بما كان يلجأ اليه مواطنونا من الاهتمام اهتماماً مبالغاً فيه بالتنبوءات . فالواقع أنهم جعلوا ينتظرون في الربيع انتهاء المرض بين لحظة وأخرى ، ولم يتجه لأحدهم أن يسأل الآخرين تفاصيل عن مدة الوباء ، لأن جميع الناس كانوا واثقين من أنه ليس للوباء مدة معينة . ولكن على مرّ الأيام، نشأت الخشية من الا يكون لهذا الشرّ حقاً أيّ حدّ ، واضحى انتهاء الطاعون ، في الوقت نفسه ، موضوع جميع الآمال . وهكذا كانوا يتداولون مختلف التنبوءات المعزوة إلى مجوسٍ أو قديسين ينتمون إلى الكنيسة الكاثوليكية . وسرعان ما أدرك بعض أصحاب المطابع في المدينة الفائدة الكبيرة التي يمكن أن يجنوها من انتشار هذه الوساوس ، فطبعوا النصوص المتداولة بأعداد كثيرة . وإذ لاحظوا أن نهم الجمهور لم يكن ليشبع ، قاموا يبحثون في المكتبات البلدية عن جميع الوثائق التي نصّ عليها التاريخ وراحوا ينشرونها في المدينة . حتى إذا قصّر التاريخ نفسه في منح مثل هذه النبوءات ، أوصوا بأمثالها صحفيين أظهروا في هذه الناحية على الأقل كفاءة لا تقل عن كفاءة أسلافهم الذين اتخذوهم نماذج لهم .

بل إن بعض هذه النبوءات قد ظهر متسلسلاً في الصحف ، ولم يكن الاقبال على قراءتها دون الاقبال على القصص العاطفية التي كانت هذه الصحف تنشرها في عهد الصحة . وكانت بعض هذه التنبوءات تعتمد على حسابات غريبة يدخل فيها تأريخ مسكوكات العام ، وعدد الاموات وحساب الأشهر التي مرّت منذ بدء عهد الطاعون . في حين أن بعضها الآخر كانت تقيم المقارنات مع طـــواعين التاريخ الكبرى ، وتستخرج منها أوجه الشبه (وكانت النبوءات تصفها بأنها ثابتة) وتسعى بواسطة حسابات ليست أقل

غرابة إلى أن تقف منها على تعليمات تتعلق بالمحنة الراهنة . على أن الجمهور كان يقدّر أكبر التقدير النبوءات التي كانت تعلن ، ببليغةٍ قياميّة ، سلسلة من الاحداث يمكن لكل منها أن يكون هو الحدث الذي يمتحن المدينة ، ويسمح تعقدها بمختلف التعليلات . وهكذا استشير نوستراداميس وسانت أوديل كل يوم استشارات مثمرة . ثم إن ما كانت جميع النبوءات تشترك فيه هو أنها كانت كلها ، في آخر المطاف ، مطمئنة . والطاعون وحده لم يكن كذلك .

وإذن ، فان هذه الوساوس كانت تقوم في نفوس مواطنينا مقام الدين ، ومن أجل هذا ألقيت عظة الأب بانولو في كنيسة لم تكن ملأى إلا في ثلاثة أرباعها . وحين وصل ريو ، مساء يوم العظة ، كانت الريح التي تتسلل من أبواب المدخل المصطفقة ترود بين المستمعين بحرية . واتخذ ريو مجلسه في تلك الكنيسة الباردة الصامتة وسط حضور ليس فيهم إلا الرجال ، ورأى الاب يرقى المنبر ، ثم يتحدث بصوت أرق وأهدأ من المرة الأولى ، وقد لاحظ الحضور غير مرة بعض التردد في خطابه . والغريب أنه كفّ عن أن يقول « أنتم » وأخذ يقول « نحن ».

على أن صوته كان يتوكّد شيئاً فشيئاً . وقد استهل خطابه فذكّر الناس بأن الطاعون مقيم بيننا منذ أشهر طويلة ، واننا الآن نعرفه معرفة أفضل إذ رأيناه يجلس إلى طاولتنا مرات عديدة ، أو يقف عند رأس سرير الذين نحبهم ، ويسير بقربنا ، وينتظر مجيئنا إلى أماكن العمل . ولذلك فان في وسعنا أن نتلقى الآن ما يقوله لنا خيراً مما تلقيناه من قبل ، فربما لم نستطع أن نسمعه لدى المفاجأة الأولى . وكان ما ألقاه الاب بانولو في عظته السابقة ، في المكان نفسه ، يبقى صحيحاً – أو هذا ما كان اعتقاده على الأقل . ولكن لعله فكر به وقاله دون ما إحسان ، كما يحدث لنا جميعاً (وهنا ضرب صدره بيديه). ومع ذلك فان ما يبقى صحيحاً أن في كل شيء ما هو جدير بأن يُحفظ دائماً . إن أقسى محنة تظلّ تحمل في نفسها الربح للمسيحي ،

والحق أن ما ينبغي للمسيحي أن يسعى اليه إنما هو ربحه ، ومم كان يتألف الربح ، وكيف السبيل للحصول عليه .

وفي هذه اللحظة بدا الناس حول ريو مستريحين في مجالسهم بين مرافق المقاعد . ويصطفق باب محشو من أبواب المدخل على مهل ، فيتحرك أحدهم لإمساكه ، ويشرد ريو قليلاً بهذه الحركة فلا يكاد يسمع بانولو وهو يستأنف خطابه . وأخذ يقول إنه لا ينبغي أن يحاول أحد أن يعلل مشهد الطاعون وإنما ينبغي أن يحاول أن يتعلم منه ما يمكن أن يتعلم . وفهم ريو ببعض الغموض أن الأب يقصد إلى أنه لم يكن ثمة ما يُشرح . وتركّز اهتمامه حين قال بانولو بقوة إن هناك أشياء يمكن شرحها بالنسبة إلى الله ، وأخرى لا يمكن شرحها . هناك الخير والشر دون ريب ، ومن اليسير عادةً إدراك ما يفرق أحدهما عن الآخر ، وإنما تبدأ الصعوبة في داخل الشر . فقد كان هناك مثلاً الشر الضروري ظاهراً والشر الذي لافائدة منه ظاهراً . كان هناك دون جوان غارقاً في الجحيم ، وموت صبي. فانه إذا كان عدلاً أن يُصعق الماجن ، فإن ألم الصبي غير مفهوم . والحق إنه لم يكن في الأرض أهم من عذاب صبي وما يجره هذا العذاب من فظاعة، والأسباب التي ينبغي أن تلتمس له.وان الله ليسهّل لنا كل شيء ، في مابقي من الحياة ، وحتى ذلك الحين يظلّ الدين دون ما مزايا . أما هنا، فان الله يسد علينا كل منفذ . هكذا كنا تحت جدران الطاعون ، وعلينا أن نجد ربحنا في ظل هذه الجدران المميت . إن الأب بانولو ليرفض حتى أن يعطي نفسه مزايا سهلة تتيح له أن يتسور الجدار . وقد كان من اليسير عليه أن يقول إن خلود النعم التي تنتظر الصبي يستطيع أن يعوض عن ألمه ، ولكنه في الحقيقة لا يعرف شيئاً من ذلك.فمن ذا الذي يستطيع أن يؤكد في الواقع أن في خلود فرحة ما يمكن أن يعوض عن لحظة من الألم البشري ؟ إن مثل هذا لن يكون بالتأكيد مسيحياً عرف « معلّمه » الألم في جسمه وفي روحه . كلا ...

سيبقى الأب عند أسفل الجدار ، أميناً لهذا التقطيع الذي يرمز اليه الصليب ، وجهاً لوجه مع عذاب صبي . وهو سيقول دون خوف لأولئك الذين كانوا يستمعون اليه ذلك اليوم : « يا أخوتي . لقد أتت الساعة . فيجب أن تؤمنوا بكل شيء أو تنكروا كل شيء . ومن هو الذي يجروء فيكم على أن ينكر كل شيء » ؟ .

وما كاد ريو يفكر بأن الأب كان يُداني الهرطقة ، حتى كان الآخر قد استأنف بقوة خطابه ليؤكد أن هذه الوصية ، هذا المطلب بالذات ، كان ربح المسيحي . وكان كذلك فضيلته . وكان الاب يعرف أن ما كان من شطط في هذه الفضيلة التي سيتكلم عنها سيصدم كثيراً من الأذهان المعتادة على تفكير أخلاقي أكثر رحمة وألصق بالتقليد . ولكن دين عهد الطاعون لا يستطيع أن يكون دين جميع العهود ، ولئن كان الله يستطيع أن يقر بل أن يريد أن ترتاح النفس وتلتذ في أوقات السعادة ، فإنه يريدها أن تكون شاطّة في مبالغات الشقاء . إن الله يمنح اليوم عباده حظوة وضعهم في شقاء شديد جداً بحيث يجب عليهم أن يستعيدوا ويضطلعوا بأكبر فضيلة ، ألا وهي فضيلة « الكل » أو « اللاشيء » .

لقرون خلت ، حسب مؤلف جاهل أنه يكشف سر الكنيسة حين يؤكد أنه لم يكن ثمة مطهر . وكان يقصد من ذلك إلى أنه لم يكن هناك « تدابير نصفية » ، وأنه لم يكن هناك إلا الجنة والنار ، وأن الانسان إما إلى عذاب وإما إلى خلاص ، وفقاً لما اختار . إن هذا ، في رأي بانولو ، لهرطقة لا تولد إلا في أعماق نفس مستهترة . ذلك أن هناك مطهراً . ولكن لا ريب في أنه كانت ثمة عهود لم يكن الناس يرجون فيه كثيراً هذا المطهر ، كانت ثمة عهود لم يكن الناس يتحدثون فيها عن الخطيئة غير المميتة . كل إثم كان مميتاً ، وكل لامبالاة مجرمة . كان كل شيء أو لم يكن شيء .

وتوقف بانولو . فسمع ريو بأوضح مما كان يسمع أنات الريح تتضاعف تحت الابواب في الخارج ، واستأنف الاب يقول في الوقت نفسه إن فضيلة القبول التام التي يتحدث عنها لا يمكن أن تُفهم بالمعنى الضيق الذي تُعطاه عادةً ، وإنها ليست ذلك الخضوع التافه ، بل لم تكن حتى تلك الضعة الشاقة . إنما هي إخزاء وإذلال ، إذلال يكون الذليل فيه موافقاً . ولا شك في أن ألم صبي هو مذلّ للفكر والقلب، ولكن من أجل ذلك ينبغي الدخول فيه . ولكن من أجل ذلك ... ويؤكد بانولو لمستمعيه أن ما سيقوله ليس هيّناً قوله ، وإنما تجب إرادته لأن الله يريده . وهكذا فقط لا يدّخر المسيحي أي جهد ، ويمضي إلى صميم الاختيار الرئيسي ، بعد أن يرى المنافذ كلها مسدودة . إنه ليختار الايمان بكل شيء حتى لا يخلص إلى إنكار كل شيء . وإن المسيحي ، شأنه في ذلك شأن النساء الصالحات اللواتي كنّ يقلن إذ ذاك في الكنيسة « يا إلهي أعطه دمامل » بعد أن يعلمن أن الدمامل التي كانت تتشكل هي الطريق الطبيعي الذي يقذف الجسم بواسطته نتانته ،إن المسيحي ليعرف كذلك أن يستسلم للارادة الإلهية،حتى ولو لم تكن مفهومة . فلم يكن بالامكان القول : « هذا شيء أفهمه، ولكن ذلك غير مقبول » بل يجب أن يقفز المرء في صميم هذا الذي لا يقبله والذي أعطي لنا لنقوم بالاختيار . إن عذاب الاولاد لهو خبزنا المرّ ولكن بدون هذا الخبز تهلك روحنا بجوعها المعنوي .

وهنا ارتفعت الضوضاء التي كانت ترافق وقفات الاب بانولو ، فأردف الواعظ بقوة متسائلا ، بدلاً من مستمعيه ، عن المسلك الذي ينبغي بالاجمال سلوكه.وكان على يقين من أنهم سيلفظون كلمة « الجبرية » الرهيبة. حسناً . فهو لن يتراجع أمام هذه الكلمة إذا سمح له أن يضيف اليها فقط صفة « الناشطة ».ولا ينبغي دون ريب تقليد مسيحيّ الحبشة الذين تحدث عنهم. ولا ينبغي كذلك الانضمام إلى أولئك المطعونين الفرس الذين كانوا يقذفون

أساهم على الفرق الصحية المسيحية داعين السماء بأصوات مرتفعه بأن تلقي الطاعون على أولئك الكفّار الذين كانوا يريدون محاربة المصيبة المرسلة من الله. ولكن ينبغي أيضاً ألا يُقلّد كهنة القاهرة الذين كانوا في أوبئة العصر السابق يناولون القربان وهم يمسكونه بالملاقط ليتفادوا من مسّ هذه الافواه الرطبة الحارة التي يمكن أن تحمل الوباء . إن المطعونين الفرس والكهنة المصريين كانوا يأثمون جميعاً . ذلك أن الأولين لم يكونوا ليبالوا بعذاب صبي ، في حين أن الخوف الانساني من الألم كان بالنسبة للآخرين يكتسح كل شيء . وفي الحالتين كلتيهما ، لم تُطرح المشكلة . فان الجميع أصمّوا آذانهم عن صوت الله . على أنه كان ثمة أمثلة أخرى أراد بانولو إيرادها . فان كان لنا أن نصدق مؤرخ الطاعون الكبير الذي اجتاح مرسيليا ، فسنعلم أن أربعة من رجال الدين في دير « مرسي» قد نجوا من الطاعون من أصل واحد وثمانين . وقد فر ثلاثة من هؤلاء الأربعة ، هكذا يقول المؤرخون، وليس من مهنتهم أن يقولوا أكثر من ذلك . ولكن تفكير الاب بانولو كان، وهو يقرأ ذلك ، يتجه إلى ذلك الذي بقي وحده بالرغم من سبع وسبعين جثة ، بل خصوصاً بالرغم من مثَل أخوته الثلاثة . وهنا يضرب الأب بقبضته على طرف المنبر ويصيح : « يا أخوتي ، ينبغي لكل منا أن يكون ذلك الذي بقي » !

ولم تكن القضية رفض الاحتياطات ، ولا التنظيم الذكي الذي كان يُدخله مجتمع ما في تشويش وباء يصيبه. كان يجب ألا يُلقي الناس بسمعهم إلى هؤلاء الاخلاقيين الذين يقولون إن من الواجب الركوع وترك كل شيء . وإنما كان يجب فقط البـــدء بالسير إلى الامام ، في الظلام ، بطريق التلمّس ، ومحاولة عمل الخير . أما فيما عدا ذلك فيجب البقاء والركون إلى الله ، حتى فيما يتعلق بموت الاولاد وعدم الالتجاء إلى الاستعانة الشخصية .

وهنا أخذ الاب بانولو يتحدّث عن أسقف « بلزونس » في طاعون

مرسيليا . فذكر أن الأسقف بعد أن قام بكل ما يجب أن يقوم به . وكان الوباء على وشك أن ينتهي ، ظنّ أنه لم يبق من علاج ، فأغلق على نفسه أبواب بيته وسدّها بعد أن تزوّد بالزاد اللازم . أما السكان الذين كان الاسقف معبودهم ، فقد ارتدّت عواطفهم كما ترتد العواطف في الأمراض المريعة ، فاذا هم يحنقون عليه ويحيطون بيته بالجثث لنقل العدوى اليه ، بل إنهم قذفوا بالجثث من فوق الجدران ليتأكدوا من إهلاكه . وهكذا ظنّ الاسقف ، في ضعف أخير أعتراه ، أن في وسعه أن يعزل نفسه عن عالم الموت ، فاذا الموتى يسقطون من السماء على رأسه . وهكذا أيضاً شأننا نحن الذين يجب أن نقتنع بأنه ليس في بحر الطاعون جزيرة . لا ، ليس هناك من أمر وسط . ينبغي قبول الفضيحة لأنه يجب علينا إما أن نكره الله أو أن نحبّه . ومن ذا الذي يجرؤ على اختيار كره الله ؟

وأعلن بانولو أنه سيختم خطابه فقال أخيراً : « ياإخوتي . إن حبّ الله حبّ صعب. فهو يفترض أن يترك الانسان نفسه تركاً كلياً وأن يحتقر شخصه . ولكن هذا الحب هو وحده القادر على ازالة ألم الأولاد وموتهم ، هو وحده القادر في أي حال على جعل هذا الموت ضرورياً ، لأن من المستحيل فهمه ولا مناص من ارادته . ذلك هو الدرس الصعب الذي أردت أن أشاطركم إياه . وذلك هو الايمان ، القاسي في نظر الناس ، الحاسم في نظر الله الذي ينبغي الاقتراب منه . يجب أن نتساوى جميعاً ازاء هذه الصورة المريعة ، وعلى هذا الصعيد يمتزج كل شيء ويتساوى ، وتنبع الحقيقة من الظلم الظاهري . ففي كثير من كنائس جنوب فرنسا ، يرقد منذ قرون ، تحت بلاط الكورس، ناس أصيبوا بالطاعون ، فيخطب كهان فوق قبورهم ، وينبع الروح الذي يشيعونه من ذلك الرماد الذي أودع فيه صبيانٌ نصيبهم » .

وحين خرج ريو ، هجمت ريح عنيفة من الباب المفتوح وصفقت المؤمنين في وجوههم . وكانت تحمل إلى الكنيسة رائحة مطر، وعطر رصيف

مبتل جعلهم يحزرون منظر المدينة قبل أن يخرجوا . ولقد صعب على كاهن عجوز وشماس شاب خرجا في تلك اللحظة أمام الدكتور ريو أن يمسكا عليهما قبعتيهما . ومع ذلك فلم ينقطع أكبرهما سناً عن التعليق على العظة ، فكان يمتدح فصاحة بانولو ولكنه يقلق لجرأة الافكار التي أظهرها الأب . وكان يعتقد أن هذه العظة تظهر من القلق أكثر مما تظهر من القوة ، وأنه لايحق لكاهن في عمر بانولو أن يكون قلقاً . فيؤكد الشماس الشاب ، وهو خافض رأسه ليتقي الريح ، أنه يعرف الاب معرفة عميقة ، وانه كان واقفاً على تطوره ، وان دراسته ستكون أجرأ كثيراً ، وأنها لن تحظى دون ريب بالاذن بالطبع . فسأله الكاهن العجوز :

— ماهي فكرته على التحقيق ؟

وكانا قد بلغا الفناء ، والهواء العاصف يحيط بهما مزمجراً قاطعاً حديث الشاب . وحين تمكن من الكلام ، اكتفى بأن يقول :

— إذا استشار كاهن طبيباً ، فان هناك تناقضاً .

ونقل ريو مجمل خطاب بانولو إلى تارو ، فقال له هذا الأخير إنه يعرف كاهناً كان قد فقد إيمانه في أثناء الحرب حين وقع نظره على وجه شاب فقئت عيناه . وأضاف تارو :

— أن بانولو على حق . فحين تكون للبراءة عينان مفقوءتان ، يجب على المسيحي إما أن يفقد إيمانه أو أن يقبل بأن تفقأ عيناه . وأن بانولو لايريد أن يفقد الايمان ، وهو سيمضي إلى النهاية . هذا ما أراد أن يقوله .

ولكن هل تستطيع ملاحظة تارو هذه أن تلقي ضوءاً قليلاً على الاحداث المؤسفة التي تلت والتي بدا فيها مسلك بانولو غير مفهوم في نظر الذين يحيطون به ؟ سنرى ذلك .

فالواقع أن بانولو انهمك بعد أيام من العظة بالانتقال من بيته . وكانت هذه ساعة أعقب فيها تطور الوباء موجة من الانتقالات في المدينة . وكما وجب على تارو أن يغادر فندقه ليقيم في بيت ريو ، كذلك وجب على الأب أن يترك المنزل الذي كانت جمعيته تقضي عايه بالسكنى فيه ، لينزل في بيت امرأة عجوز تتردد على الكنائس وهي ما زالت سليمة من الطاعون . وقد شعر الاب في أثناء الانتقال بالارهاق والضيق، وبهذه الطريقة فقد احترام مضيفته، ذلك أن هذه قد امتدحت له بحرارة فضائل نبوءة القديسة أوديل، فأظهر الكاهن شيئاً من نفاد الصبر بسبب من تعبه دون ريب . وبالرغم من أنه بذل بعد ذلك جهداً كبيراً ليحصل من العجوز على عاطفة محايدة بالنسبة اليه ، فإنه لم يبلغ من ذلك شيئاً . فقد خلف لديها انطباعاً سيئاً ، وكان عليه كل مساء ، قبل أن يدخل غرفته المليئة بالتنتناء أن يتأمل لحظات ظهر مضيفته الجالسة في غرفتها ، في الوقت نفسه الذي يحمل فيه ذكرى عبارتها « مساء الخير يا أبي » التي كانت توجهها اليه بجفاف ودون أن تلتفت اليه . وكان على وشك أن ينام ذات مساء ، حين شعر ، ورأسه يغلي ، بأن يديه وصدغيه تنبض بموجات دفاقة من حمى تضطرم فيها منذ بضعة أيام .

وما حدث بعد ذلك لم يعرف إلا مما كانت ترويه مضيفته . فقد نهضت في الصباح مبكرة على عادتها ، ومر وقت فعجبت أنها لم تر الأب خارجاً من غرفته فعزمت بعد تردد كبير على طرق بابه ، فألفته لا يزال في سريره بعد ليلة مؤرقة . وكان يشكو ضيقاً في التنفس ، ويبدو أنه محتقن أكثر من المعتاد . وبلطف كبير عرضت عليه ، كما قالت بالحرف ، أن تستدعي طبيباً ، ولكن عرضها رفض بعنف لا يسعها إلا أن تعتبره مؤسفاً . فلم تتمالك أن انسحبت . وبعد قليل دق الاب الجرس واستدعاها . فاعتذر عما بدر من مزاجه ، وصرح لها بأن المسألة لم تكن مسألة الطاعون ، بالنظر إلى أنه ليس في ذلك شيء من عوارضه ، وإنما هو تعب عابر . فأجابته

السيدة العجوز بكل احترام أن اقتراحها لم يصدر عن قلق من هذا القبيل ، وأنها لم تفكر بسلامتها الخاصة التي هي بيد الله ، وإنما هي فكرت فقط بصحة الأب التي تعتبر نفسها مسؤولة عنها ولو جزئياً . ولكن لما لم يجب ، فقد عرضت عليه مضيفته مرة أخرى ، رغبة منها بالقيام بكل واجبها على حد قولها ، أن تستدعي الطبيب . غير أن الأب عاد فرفض ، وهو يضيف شروحاً بدت للسيدة العجوز على غاية الاضطراب والاختلاط . وهي تحسب أنها فهمت فقط أن الأب إنما رفض استشارة الطبيب لأنها تتعارض ومبادئه ، وهذا ما بدا للسيدة غير مفهوم إطلاقاً . وانتهت من ذلك إلى أن الحمى كانت تربك أفكار الاب ، واكتفت بأن حملت اليه بعض مغليّ الحشائش .

وظلت على عزمها بأن تقوم خير قيام بالواجبات التي كان يفرضها عليها الموقف ، فكانت تزور مريضها كل ساعتين بانتظام . وإنما الذي استأثر باهتمامها ذلك الاضطراب والحركة الدائمان اللذان قضى بهما الاب يومه . كان يرمي غطاءه ثم يرده عليه ، ممراً يديه دائماً على جبينه النديّ ، ولا يفتأ ينتصب ليحاول تصعيد سعال مخنوق رقيق رطب شبيه بالنزاع . فكان يبدو إذ ذاك كأنه يستحيل عليه أن ينتزع من أعماق حلقه قطعاً من قطن تكاد تخنقه . حتى إذا ما انتهت هذه الأزمة ، ترك نفسه يسقط إلى خلف ، مع جميع علامات الارهاق . وكان أخيراً ينتصب في سريره نصف انتصاب ويتطلع أمامه باحداد أشد عناداً من جميع ما سبق من حركاته . ولكن السيدة العجوز ما انفكت تتردد في استدعاء طبيب ومعاكسة مريضها. فلعله لا يكون إلا عارض حمّى ، بالرغم من جميع هذه المظاهر .

على أنها حاولت بعد الظهر أن تتحدث إلى الكاهن فلم يجبها إلا ببعض كلمات مختلطة . وجددت اقتراحها ، فاذا الاب ينتصب ويجيبها وهو يكاد يختنق بأنه لا يريد طبيباً . فقررت المضيفة إذ ذاك أن تنتظر حتى الصباح التالي ،

فان لم تتحسن صحة الاب ، اتصلت برقم التلفون الذي كانت وكالة رانسدوك تردده كل يوم عشر مرات على الأقل في الراديو . وكانت تفكر ، لفرط حرصها على واجباتها ، بأن تزور مريضها في الليل وتسهر عليه . ولكنها بعد أن أعطته في المساء مغليّ الحشائش ، شاءت أن تتمدد قليلاً ، فلم تستيقظ إلا عند الصباح . وإذا هي تهرع إلى غرفته .

كان الاب ممدداً دون ما حركة . وقد لاحظت أنه قد عقب احتقانَ الأمس لونٌ من الازرقاق يزيد في ابرازه أن قسمات الوجه كانت لا تزال على طبيعتها . وكان الاب محدّداً بصره في الثريا الصغيرة ذات الجواهر الملونة التي تتدلى فوق سريره . وإذ دخلت السيدة العجوز ، لفت اليها رأسه ، فبدا إذ ذاك على حد قول مضيفته ، كمن ضُرب طوال الليل وفقد كل قوة لإتيان أية حركة . وسألته عن حالته ، فأجاب بصوت لاحظت لهجته اللامبالية أنها سيئة ، وأنه لا حاجة له بطبيب ، وأنه يكفي أن يُنقل إلى مستشفى ليتمّ كل شيء وفق القواعد . وذُعرت السيدة العجوز فهرعت إلى التلفون .

ووصل ريو عند الظهر . وبعد أن روت المضيفة النبأ ، اجتزأ بالقول إن بانولو كان على حق وإن الأوان قد فات . واستقبله الاب بعدم الاكتراث نفسه ، ففحصه ريو وعجب ألا يكتشف أي عارض من عوارض الطاعون الرئوي الرئيسية ، باستثناء انحصار الرئتين واحتقانهما ، وأياً ما كان ، فان النبض كان منخفضاً جداً والحالة العامة منذرة بالخطر ، حتى أنه لم يكن هناك إلا نصيب ضئيل من الامل ، فقال لبانولو :

— ليس هناك أي عارض رئيسي من عوارض الوباء . ولكن هناك شكاً مع ذلك ، وينبغي أن أعزلك .

فابتسم الاب ابتسامة غريبة ، تكاد تكون مؤدبة ، ولكنه ظل صامتاً . وخرج ريو فخابر بالتلفون وعاد ينظر إلى الأب ثم قال له برقّة :

ـ سأبقى بالقرب منك .

فبدا الانتعاش على الآخر ، ولفت إلى الطبيب عينين عاد اليهما نوع من حرارة . ثم قال بصعوبة استحال معها معرفة ما إذا كان ينطق بحزن أم لا :

ـ شكراً . ولكن رجال الدين لا أصدقاء لهم . لقد وضعوا كل شيء في الله .

وطلب المصلوب الذي كان موضوعاً عند رأس السرير ، وحين أخذه، انصرف لينظر اليه .

وفي المستشفى ، لم يحلّ بانولو عقدة أسنانه . واستسلم كأنما هو جماد لجميع العلاجات التي كانوا يجرونها له ، ولكنه لم يترك المصلوب . على أن حالة الكاهن ظلت ملتبسة . وظـــل ريو مقيماً على شكه . كان ذلك هو الطاعون ولم يكنه . والواقع أن الطاعون بدأ يروق له منذ حين أن يضالل التشخيصات . ولكن استمرار العلاج أظهر أن هذا التردد في حالة بانولو كان دون ما أهمية .

كانت درجة الحمى ترتفع ، والسعال يتفاقم ويخشن ويعذّب المريض طوال النهار ، حتى إذا آذن المساء ، تفّ الأب هذا القطن الذي كان يخنقه . فاذا هو أحمر . وظل بانولو وسط اضطراب الحمى على نظرته اللامبالية ، وحين وجدوه صباح اليوم التالي ميتاً ، متدلياً من سريره ، لم يكن نظره ليعبر عن شيء . وكتبوا على بطاقته : « حالة مشكوك بأمرها ».

لم يكن عيد جميع القديسين ذلك العام كما اعتاد أن يكون . ولا ريب في أنه كان للجو شأن في ذلك . فهو قـد تبدّل فجأة وحلّ محلّ الحرارة المتأخـِّرة رطوبة مفاجئة.وها هي ذي ريحٌ باردة تئن الآن أنيناً موصولاً ، كما كان يحدث في السنوات السابقة . وكانت غمائم كثيفة تركض من أفق إلى أفق ، وتغطّي بظلها البيوت حتى إذا مرت ، غمرت هذه البيوت أشعة باردة مذهبة من سماء تشرين الثاني . وقد ظهرت إذ ذاك الثياب الواقية الأولى ولكن لوحظ عددٌ كبير من الأقمشة اللامعة المغلفة بالكاوتشوك . والواقع أن الصحف كانت قد نشرت بأن الأطباء كانوا لمئتي عام خلت ، في أثناء الطواعين الكبرى التي كانت تجتاح الجنوب ، يرتدون أقمشة مزيتة رغبةً في الوقاية . وقد أفادت المخازن من هذه الانباء لبيع قسم كبير من الألبسة التي ذهبت جدّتها ، وكان كل انسان يأمل أن يجد فيها عصمته .

على أن جميع اشارات الموسم هذه ما كانت تستطيع أن تُنسي الناس أن المقابر كانت مهجورة ، فقد كانت الترامات في السنين السابقة تمتلىء برائحة الأقاحي الحائلة وبمواكب النساء اللواتي يقصدن مقابر اقربائهن لينثرن عليها الزهور . كان ذلك هو اليوم الذي يحاول فيه الناس التعويض على الميت عن الوحدة والنسيان اللذين غمراه طوال بضعة أشهر . ولكن أحداً في ذلك العام لم يكن يريد التفكير بالاموات . والحق أن الناس كانوا يبالغون في التفكير بهم . وليس المقصود أن يعودوا اليهم بحسرة قليلة وكآبة كثيرة . فهم ليسوا بعدُ المهجورين الذين يأتي الناس ليبرروا أنفسهم أمامهم يوماً في

العام . إنهم الدخلاء الذين يُراد نسيانهم . من أجل هذا ، أُخفي ذلك العام عيد الأموات . لقد كان هناك عيد للأموات كل يوم ، على ما يقول كوتار الذي كان تارو يلاحظ أن منطقه يزداد سخرية يوماً بعد يوم .

والحق أن نيران فرح الطاعون كانت تشعشع بجذل متزايد في فرن إحراق الجثث . وصحيح أن عدد الاموات لم يكن ليرتفع بين يوم وآخر ، ولكن كان يبدو أن الطاعون قد بلغ بكل راحة ذروته ، وأنه كان يواجه ضحاياه اليوميين بدقة موظف منظم صالح . وقد كانت هذه ، مبدئياً ، إمارة طيبة في رأي الشخصيات ذات الكفاءة . فقد كان الدكتور ريشار مثلاً مطمئناً للخريطة التخطيطية التي تمثّل تفـاقم الطاعون في صعوده المتصل ، ثم للنَجْد الطويل الذي كان يليه ، وكان يقول : « إنها خريطة تخطيطية جيدة بل ممتازة » فقد كان يعتقد أن المرض قد بلغ ما كان يسميه « المرحلة الوسطى من الثبات » فليس له بعد الآن إلا أن يتناقص . وقد عزا ذلك إلى مصل كاستل الذي عرف في الواقع نجاحاً غير منتظر . ولم يكن كاستل العجوز ليناقض هذا الرأي ، ولكنه كان يحسب أنه ليس لأحد أن يتنبأ بأية نتيجة ، فان تاريخ الأوبئة كان كثيراً ما يحتمل طفرات غير منتظرة . أما الولاية التي كانت راغبة منذ وقت طويل بأن تهدىء الرأي العام فلا يتيح لها الطاعون ذلك ، فقد اقترحت جمع الاطباء والحصول على تقرير منهم في هذا الموضوع ، فاذا بالطاعون يختطف الدكتور ريشار هو أيضاً من « المرحاة الوسطى » من المرض بالذات .

وازاء هذا المثل الذي لا يدلل على شيء ، وإن كان موثراً دون ريب ، عادت الولاية إلى التشاؤم بمثل الاضطراب المنطقي الذي تلقت به التفاؤل أول الأمر . أما كاستل ، فقد كان يقصر جهده على إعداد المصل بكل ما يستطيع من عناية . وأيّاً ما كان ، فانه لم يبق هناك مكان عام إلاّ حُوّل إلى مستشفى أو محجر صحي ، ولئن وفروا مركز الولاية نفسها من هذا التحويل ، فلأنه

كان يجب الاحتفاظ بمكان يجتمعون فيه . ولكن على العموم ، وبسبب من ثبات الطاعون ثباتاً نسبياً في تلك الحقبة ، فان الاحداث لم تتعدّ جدارة المنظمة التي خلقها ريو . ولم يكن الاطباء المساعدون الذين كانو يبذلون جهداً مضنياً مجبرين على أن يتصوروا جهوداً أكبر . وإنما كان عليهم فقط أن يتابعوا بانتظام هذا العمل الذي هو فوق طاقة البشر . وتفاقم في هذه الاثناء عدد الاشكال الرئوية من الطاعون في أربعة أركان المدينة ، كما لو أن الهواء كان يؤرّث الحرائق في الصدور . وكان المرضى في وسط قيء الدم يموتون بأسرع مما كان يموت سابقوهم ، وتفاقم خطر العدوى بسبب من هذا الشكل الجديد للوباء . والحق أن آراء الاخصائيين كانت دائماً متضاربة في هذا الموضوع . على أن الموظفين الصحيين ظلّوا يتنفسون تحت الأقنعة الشاشيّة المطهّرة رغبة في التوقي . ومهما يكن من أمر ، فقد كان منتظراً لأول وهلة أن يزداد انتشار الوباء . ولكن لما كانت أشكال الطاعون الدمّلي آخذة في النقصان ، فان كفتي الميزان قد تعادلتا .

بيد انه كانت هناك أمور اخرى تستدعي القلق على أثر تفاقم الصعوبات التي كانت تنتج عن التموين . فقد دخلت فيه المضاربات ، فإذا بمواد غذائية في المحل الاول من الحاجة تُفقد من السوق العادية فتُعرض باسعار فاحشة . وهكذا كان وضع الأسر الفقيرة على غاية الصعوبة ، بينا كانت الأسر الغنية لا تحتاج الى شيء تقريباً . وقد كان مقدراً للطاعون ، بما كان يتصف به من تجرّد فعّال ، ان يعزّز المساواة لدي مواطنينا ، ولكنه بما أتاحه للأنانيات من مجال ، زاد شعور الناس بحسّ الظلم . وبالطبع ، كانت لا تزال هناك مساواة الموت التي ليس عليها من مأخذ ، ولكن لم يكن هناك من يرغب في هذه المساواة . وهكذا كان الفقراء الذين يشكون الجوع يفكرون بحظ

اكبر من الحنين بالمدن والقرى المجاورة حيث الحياة حرّة والخبز غير فاحش الثمن . وقد كانوا يشعرون بأنه كان ينبغي للمسؤولين ، ما داموا لا يقدمون لهم الغذاء الكافي ، ان يسمحوا لهم بالذهاب . حتى انه قد شاع ان عبارة «اما الخبز واما الهواء» كانت تقرأ على بعض الجدران ، وكان بعضهم يهتف بها لدى مرور الوالي . وقد اعطت هذه العبارة ايذاناً لبعض المظاهرات بأن تنطلق بشكل لم تخف خطورته على احد ، ولكنها سرعان ما قمعت .

وكانت الصحف تطيع بالطبع الأمر الذي كانت قد تلقّته بالتعبير عن التفاؤل بأي ثمن . والذي يقرأ هذه الصحف يجد ان ما كان يميز الموقف « حالة الهدوء ورباطة الجأش المؤثرة » التي كان يظهرها الشعب . ولكن لم يكن احدٌ ، في مدينة منغلقة على نفسها حيث لايمكن لشيء ان يظل سراً ، ليغترّ بـ« الحالة » التي كانت تبدو عليها الجماعة . وان من يود ان يكوّن فكرة صحيحة عن الهدوء ورباطة الجأش المذكورين يكفيه ان يدخل محجراً أو معسكراً من معسكرات العزل التي كانت الولاية قد نظمتها . والحق ان الراوي كان في مكان آخر فلم يتمكن من رؤيتها . ولذلك فلا يستطيع ان يروي هنا الا شهادة تارو .

وفي الواقع ، يروي تارّو في مذكراته قصة زيارة قام بها مع رامبير الى المعسكر الذي اقيم في الملعب البلدي . والملعب واقع تقريباً عند ابواب المدينة ، وهو يفضي من جهة الى الطريق الذي تمرّ فيه الترامات ، ومن الجهة الاخرى الى اراض شاسعة تمتد حتى طرف السهل الذي بنيت عليه المدينة . وهو محاط عادة بجدران مرتفعة من الاسمنت ، وقد كان كافياً لجعل الفرار عسيراً وضع حرس على اربعة ابواب الدخول. وكانت الجدران كذلك تمنع الناس في الخارج من ان يضايقوا بفضولهم المساكين المحجور عليهم . على أن هؤلاء، بالمقابل ، كانوا طوال النهار يسمعون دون ان يروا الترامات التي كانت تمرّ ، ويحزرون على ضوضائها ساعات الخروج من المكاتب والدخول اليها . فكانوا يدركون

بذلك ان الحياة التي أبعدوا عنها تستمرّ على مبعدة امتار عنهم . وان جدران الاسمنت كانت تفصل بين عالمين غريبٌ احدهما عن الآخر ، كما لو انهما كانا في كوكبين مختلفين .

وقد اختار تارو ورامبير بعد ظهر أحدٍ لزيارة الملعب . وكان يصحبهما غونزاليس لاعب كرة القدم الذي وقع عليه رامبير بعد ان فقده والذي قبل اخيراً ان يشرف بالتناوب على مراقبة الملعب . وقد قدّمه رامبير الى مدير المعسكر . وكان غونزاليس قد قال للرجلين اذ التقى بهما انّ تلك كانت الساعة التي كان يتهيأ فيها ، قبل الطاعون ، للعب . اما وقد صودرت الملاعب الآن ، فان اللعب متعذّر ، وان غونزاليس ليشعر ويبدو عليه انه لا عمل له . وهذا احد الاسباب التي من اجلها قبل هذه المراقبة، على الا يمارسها الا في اواخر الاسبوع . وكانت السماء غائمةً الى نصفها ،وقد لاحظ غونزاليس بأسف، اذ رفع بصره،ان هذا الجو الذي ليس هو ممطراً ولا حاراً هو اصلح الاوقات للعب . وراح يتذكر ما وسعه ذلك رائحة النطول في خزائن الثياب ، والمقاعد المتداعية والتبابين الفاقعة اللون على الارض الصهباء ، وعصير الليمون او البرتقال الذي يقرص الحناجر الجافة بألف إبرة منعشة . وقد سجل تارو كذلك ان لاعب الكرة لم يَنِ طوال الطريق عبر شوارع الضاحية ، يضرب الحصى التي يلقاها بقدميه . وكان يحاول ان يُرسلها مستقيمة الى أفواه البواليع فاذا أدرك هدفه قال : « إصابة مقابل صفر » . وكان اذا انتهى مـــن تدخين سيكارته بصق عقبِها امامه وحاول ان يتلقّاه بقدمه على الطائر . وكان ثمة اولاد يلعبون بالقرب من الملعب ، فارسلوا كرةً نحو الجمع الذي كان ماراً آنذاك ، فأذا بغونزاليس يتركهم ليردّ للاولاد الكرة بدقة .

ودلفوا اخيراً الى الملعب . وكانت المقاعدة تغصّ بالناس . ولكن الساحة كانت تغطيّها عدة مئات من الخيم الحمر كان يُرى في داخلها من بعيد فرش ، وادوات وأمتعة . وكانوا قد احتفظوا بالمقاعد ليتمكن المحجور

عليهم من اللجوء اليها في اوقات الحرّ والمطر . وكان عليهم بكل بساطة ان يعودوا الى الخيم عند مغيب الشمس . وقد اقيمت تحت المقاعد المناضح وخزائن ثياب اللاعبين التي حوُلت الى مكاتب أو غرف للتمريض . وكان معظم المحجور عليهم منتشرين على المقاعد ، بينا كان البعض الآخر يتيهون في أطراف الميدان . وكان بعض منهم جالساً القرفصاء عند مدخل خيمتهم يحيلون بصرهم في كل شيء . وكان يبدو ان كثيرين ممن هم على المقاعد مسترخون او هم يترقبون . وسأل تارو رامبير :

– ماذا يفعلون في النهار ؟

– لا شيء .

والحق ان معظمهم كانوا مبسوطي الأذرعة فارغي الأيدي . لقد كانت هذه المجموعة العظيمة من الناس على صمت عجيب .

قال رامبير :

– في الايام الاولى كان الجميع يتحدثون حتى لايسمع بعضهم بعضاً . ولكن حديثهم كان يتلاشى ما مرّت الأيام .

وكان تارّو يفهمهم ، على ما توحي مذكراته ، وكان يراهم باديء الأمر متراكمين في خيمتهم ، مشغولين بالاستماع الى الذباب او بحكّ جلودهم ، معبرّين عن غضبهم أو خوفهم حين كانوا يجدون اذناً مصغية . ولكن منذ ان أهل المعسكر ، تناقص عدد الآذان المصغية . واذن فلم يبق الا ان يصمتوا وان يحذروا . والحق انه كان ثمة نوع من الحذر يهبط من السماء الشهباء المنيرة على المعسكر الأحمر .

أجل ، كان الحذر يبدو عليهم جميعاً . وقد كان لذلك ما يبرّره ، ما داموا قد فصلوا عن الآخرين ، وقد كانوا يظهرون بمظهر من يبحث عما يبرر به موقفه ومظهر من يخاف . وكان كلٌ ممن كان تارّو ينظر اليهم شارد العين ، وكان يبدو على الجميع انهم يتألمون من انهم فُصلوا فصلاً عاماً عما

كان يكمل حياتهم ، ولما لم يكونوا يستطيعون دائماً ان يفكّروا بالموت ، فقد كانوا لا يفكرون بشيء : لقد كانوا في عطلة . وقد كتب تارو يقول « على ان اسوأ ما في الأمر ، ان يكونوا منسيين وان يعرفوا انهم كذلك . لقد نسيهم الذين كانوا يعرفونهم لأنهم يفكرون بأشياء اخرى ، وهذا مفهوم تماماً . امـــا اولئك الذين يحبّونهم ، فقد نسوهم هم ايضاً لأنـــه كان يترتب عليهم ان يستفرغوا جهدهم في المساعي والمشاريع من أجل اخراجهم . ولفرط تفكيرهم بهذا الخروج باتوا لا يفكرون بالذين كان ينبغي لهم ان يخرجوهم . وهذا امرٌ طبيعي كذلك . ويدرك الجميع آخر الامر ان كلّ واحد لم يكن يطيق ان يفكر بأحد ، حتى ولو كان في اسوأ المصائب . لأن التفكير الحقيقي بأحد ، معناه التفكير به دقيقة دقيقة ، دون التلهي بشيء ، لا بمشاغل البيت ولا بالذبابة التي تطير ولا بأوقات الطعام ولا بحكاك ، ولكن كان هناك دائماً ذباب وحكاك ، من أجل هذا تبدو الحياة صعبة على العيش ، وإن هؤلاء ليعرفون ذلك معرفة جيدة » .

وعاد المدير اليهم ليقول لهـــم ان شخصاً يدعى السيد اوتون يطلب رؤيتهم . وصحب غونزاليس الى مكتبه ، ثم قادهما الى ركن من المقاعد كان السيد اوتون جالساً فيه على حدة ، فنهض لاستقبالهما وكان يرتدي اللباس المعتاد ذاته والياقة القاسية نفسها . ولكن تارو لاحظ فقط بأن سالفيه عند الصدغيْن كانا منبوشين وان احدى برائمه كانت محلولة . وكان يبدو على القاضي التعب ، ولم ينظر الى محدثيه مواجهةً مرة واحدة . وقال إنه ليسعده ان يراهما وان يعهد اليهما في شكر الدكتور ريو على ما قام به .

وظل الآخران صامتين . فقال القاضي بعد حين :

ــ آمل الا يكون فيليب قد تألم كثيراً .

وتلك كانت المرة الاولى التي سمعه فيها تارو ينطق بأسم ابنه ، فأدرك ان شيئاً ما قد تغيّر . وكانت الشمس تميل عند الافق ، وكانت اشعتها تتسلل

عبْرَ غمامتين الى المقاعد عن عرض ، فتذهّب وجوههم الثلاثة .

قال تارو — كلا ، انه لم يتألم ألماً حقيقاً ، كلا .

وحين انسحبا ، ظلّ القاضي يحدّق في الجهة التي كانت الشمس تطل منها .

ومضيا ليودعا غونزاليس الذي كان يدرس لوحة المراقبة بالتناوب . وقد ضحك اللاعب وهو يشد على يديهما وقال :

— لقد وجدت ثانية على الاقل خزائن الثياب ، وهذا هو المهم .

وبعد قليل ، كان المدير يقود تارو ورامبير حين سُمعت في المقاعد فجأة اصوات حادة . ثم صرّحت مكبّرات الصوت ، التي كانت في الاوقات العادية تعلن نتائج المباريات او تقدّم فرق اللاعبين ، ان على المحجور عليهم ان يعودوا الى خيمهم ليمكن توزيع العشاء عليهم . فأخذ الناس يغادرون المقاعد على مهل ويجررون اقدامهم نحو الخيم . وحين دخل الجميع ، أخذت سيارتان كهربائيتان ، كالتي تُرى في المحطات ، تمران خلل الخيم ، حاملتين قدوراً كبيرة . وكان الناس يمدون أذرعتهم ، فتدخل مغرفتان في قدريْن ، وتخـرجان منهما لتحطّا في قصعتين : ثم تستأنف السيارة دورتها فتطوف بسائر الخيم . وقال تارو للمدير :

— إن هذا شيء علمي .

فأجابه الآخر مغتبطاً وهو يشدّ على يديهما : — نعم ، إنه علمي .

وكان الغسق هناك ، وكانت السماء قد انقشعت ، فاذا بنور عذب رطيب يغمر المعسكر . وفي طمأنينة المساء ، كانت تتصاعد من كل جانب اصوات ملاعق وصحون . وكانت بعض الخفافيش تتطاير فوق الخيم ثم

يختفي فجأة ، ويصرّ ترام عند احـــد المقصات من الطرف الآخر من الجدران .

ويتمتم تارو وهو يجتاز الابواب :

ــ مسكين ذلك القاضي . ينبغي ان نعمل شيئاً من اجله . ولكن كيف السبيل الى مساعدة قاضٍ ؟

كان في المدينة عدة معسكرات اخرى لايستطيع الراوي ان يفيض في الحديث عنها بسبب من حرصه على الدقة ومن نقص في المعلومات المباشرة . ولكن ما يستطيع ان يقوله هو ان وجود هذه المعسكرات ورائحة الأشخاص التي تنتشر منها ، واصوات المكبرات الكثيفة لدى الغسق ، وسرّ الجدران والخوف من هذه الامكنة الملعونة ، كل ذلك كان يثقل على معنويات مواطنينا ويزيد في ذعر الجميع وضيقهم . وهكذا تضاعفت المنازعات والاختلافات مع الولاية .

على ان الأصباح ما لبثت ان بردت في اواخر تشرين الثاني . وهطلت امطار غزيرة غسلت الشارع ونظفت السماء وصفّتها من السحاب فوق طرق لامعة . وكانت شمس ضعيفة تنشر كل صباح على المدينة ضوءاً متلألئاً مثلجاً . ولكن الهواء يفتر عند المساء من جديد . وتلك كانت اللحظة التي اختارها تارو ليكشف قليلاً عن دخيلته بالقرب من الدكتور ريو .

فذات يوم ، حوالي الساعة العاشرة ، رافق تارو ، بعد يوم طويل مرهق ، الطبيب الذي كان ذاهباً ليزور الشيخ المبهور زورته المسائية . وكانت السماء تلمع بعذوبة فوق بيوت الحي القديم . وكانت ريح خفيفة تئنّ دون ما ضجة عبر المفارق المظلمة . ودلف الرجلان من الطرق الهادئة فوقعا على ثرثرة الشيخ ، فإذا به يخبرهما ان هناك من لم يكن مـــوافقاً ، وأن صحن الزبدة ما فتئ يُقدم للاشخاص انفسهم ، وان الجرة ما تنفك تذهب الى العين حتى تنكسر آخر الامر ، وان من الأرجح ان تقوم المشاجرات (وهنا

جعل يفرك يديه) . وداواه الطبيب دون ان ينقطع عن التعليق على الاحداث .

وسمعا قدماً تمشي فوقهما . واذ لاحظت المرأة العجوز اهتمام تارو ، اوضحت لهما ان جارات لها يُقمن على السطيحة . وعلما في الوقت نفسه ان ذلك المكان يشرف على منظر جميل ، وان سطائح المنازل كانت غالباً ما تتصل من جهة ما ، فيتاح لنساء الحي ان يتزاورن دون ان يخرجن من منازلهن . وقال الشيخ :

– اجل ، إصعدا إذن . فالهواء منعش فوق .

ووجدا السطيحة خالية إلا من ثلاثة كراسي . ولم يكن يرى من جانب ، مهما امتد النظر ، الا سطائح تتكاتف حتى تبلغ كتلة مظلمة حجرية عرفا فيها التلة الاولى . ومن الجانب الآخر ، كان النظر يغرق من فوق المرفأ وبعض الشوارع في أفق يمتزج عنده البحر والسماء في خفق لا يبين . وخلف ما كانا يعتقدانه جروفاً كان ضوء لا يتبينان مصدره يظهر بانتظام : إنها منارة المرور التي ما فتئت منذ الربيع تدور لتشير الى السفن بأن تتحول الى مرافىء اخرى . وفي السماء الصافية التي جلتها الريح ، كانت نجوم رائعة تتلألأ ، فتمزج بها اشعة المنارة البعيدة رماداً عابراً بين وقت وآخر . وكان النسيم يحمل روائح توابل واحجار . وكان الصمت مطلقاً .

وقال ريو وهو يجلس :

– إنه لجوّ جميل . لكأن الطاعون لم يصعد الى هنا قط .

وكان تارو مولياً اياه ظهره ينظر الى البحر ، فقال بعد لحظة :

– نعم إنه جوّ جميل .

واقبل يجلس بالقرب من الطبيب وينظر اليه بانتباه . وظهرت الاشعة ثلاث مرات في السماء . وتصاعدت اليهما من أعماق الشارع ضوضاء

صحون مصدومة ، ثم صُفق بابٌ في البيت . وقال تارو بصوت طبيعي جداً :

– الم تفكر ابداً، يا ريو ، بأن تعرف من عساني أكون ؟ هل تشعر بصداقة نحوي ؟

فأجابه الطبيب : – نعم ، أشعر نحوك بصداقة . ولكن الوقت قد فاتنا حتى الآن .

– حسناً ، هذا ما يطمئنني . أتريد ان تكون هذه الساعة ساعة الصداقة ؟

فاكتفى ريو من الجواب عليه بالابتسام .

– حسناً ، وإذن ...

وفي شارع أبعد ، بدا ان سيارة تتزحلق طويلاً على الشارع المبتل . وابتعدت وخلفها انبعثت صيحات مختلفة آتية من بعيد فخرقت السكون . ثم وقع على الرجلين بكل ما كان فيه من ثقل السماء والنجوم . وكان تارو قد نهض ليتعلق بافريز السقف مواجهاً لريو الذي ظل متراكماً في جوف كرسيه . ولم يكن يُرى منه إلاّ شكل متكتل مقطوع في السماء . وتكلم طويلاً ، وهذا هو خطابه تقريباً بعد حبكه :

« رغبةً في التبسيط ، لنقل يا ريو انني كنت اشكو الطاعون قبل ان اعرف هذه المدينة وهذا الوباء . ويكفي ان اقول اني كسائر الناس . ولكن هناك اناساً لا يعرفون ذلك او انهم في هذه الحال ، واناساً يعرفونه ويودون أن يخرجوا منه وانا اردت دائماً ان اخرج منه .

« حين كنت حدَثاً ، كنت أعيش بفكرة براءتي ، أي بــلا فكرة اطلاقاً . ولست من تلك الفئة المتبرّمة ، وقد بدأت حياتي كما ينبغي ان ابدأها . وكنت انجح في كل شيء ، وكنت ميسور الذكاء ، وعلى خير ما

اكون مع النساء ، وان كنت اشعر ببعض القلق ، فقد كان يذهب كما كان يأتي . وبدأت ذات يوم افكر . اما الآن ...

« ويجب ان اقول لك اني لم اكن فقيراً مثلك . لقد كان ابي مدّعياً عاماً ، وهذا مركز رفيع دون ريب . على انه لم يكن يبدو عليه ذلك ، فهو ذو طبيعة بسيطة سمحة – وكانت امي ساذجة عديمة الشخصية ، ولم انقطع يوماً عن حبها ، ولكني اوثر الا اتحدث عنها . وكان هو يهتم بي بولع ، بل احسب انه كان يحاول ان يفهمني . وكانت له مغامرات في الخارج ، وانا من ذلك على يقين الآن ، على اني بعيدٌ كل البعد عن ان اشعر بالغيظ من ذلك . لقد كان مسلكه في هـذا كله كما هو متوقع ان يكون ، من غير ان يؤذي احداً . وبالاختصار ، لم يكن شخصية فـذّة والآن وقد مات ، فإني ادرك بأنه إن لم يكن قد عاش كقديس ، فهو لم يكن رجلاً رديئاً . كل ما في الامر انه كان في موقع وسط ، وانه مثال الرجل الذي يشعر الناس له بمودة معقولة تغري دائماً بالاستمرار .

« بيد انه كانت له خاصة فريدة : كان دليل « شيكس » كتابه الاثير . ولم يكن ذلك لانه كان يسافر ، الا في العطلة حين يذهب الى « بريتاني » حيث كان يملك بيتاً ، ولكنه كان دائماً على استعداد لان يحدّد لك على الضبط ساعات الذهاب والاياب من باريس – برلين ، وتجميع الاوقات الذي ينبغي القيام به للذهاب مـن ليون الى فارسوفيا ، والمسافات الصحيحة بالكيلومتر بين العواصم التي تختارها . هل انت قادر على ان تقول كيف يتم الذهاب من بريانسون الى شامونيكس ؟ حتى رئيس المحطة يخطيء في ذلك . اما ابي فلم يكن ليخطيء . وكان يتمرّن كل مساء تقريباً في اغناء معلوماته وكان يفخر بذلك . وكان هذا يسليني كثيراً فكنت غالباً مـا اطرح عليه الاسئلة ، مفتوناً بـأن اتحقق من صحة اجوبته لدى مقارنتها بدليل « شيكس » وان اتبين انه لم يخطيء . وقد ربطت هـذه التمارين الصغيرة

ما بيننا ، لاني كنت امثل مستمعاً كان يقدّر فيه النية الحسنة . اما انا ، فكنت ارى ان هذا التفوق في شؤون السكك الحديدية ليس دون اي تفوق آخر .

« ولكني استسلم لذكرياتي استسلاماً ، واوشك ان اعزو الى هذا الرجل الشريف اكثر مما يستحق من أهمية . فالحق انه لم يكن له على عزيمتي الا تأثير غير مباشر . وقصاراه انه اتاح لي فرصة . فحين بلغت السابعة عشرة دعاني ابي للذهاب من أجل الاستماع اليه ، وكانت ثمة قضية هامة في محكمة الجنايات . لا ريب في انه فكر بأنه سيظهر يومذاك في خير مظهره . واحسب انه كان يعتمد على هذه الحفلة الجديرة باستهواء خيال الشباب ، ليحدوني الى اختيار هذه المهنة التي اختارها هو نفسه . وقد قبلت لأن ذلك كان يرضي ابي ، ولان الفضول من ناحية اخرى كان يدفعني الى ان اراه واسمعه في دور آخر غير الذي كان يقوم به بيننا . ولم اكن افكر بأكثر من ذلك . وان ما كان يحدث في محكمة كان يبدو لي دائماً امراً طبيعياً ولا بد منه كاستعراض من استعراضات ١٤ تموز سواء بسواء ، او كحفلة لتوزيع الجوائز . كان لي عن ذلك فكرة مجردة تماماً ولم تكن لتضايقني .

« على اني لم احتفظ من ذلك اليوم الا بصورة واحدة ، هي صورة المجرم . وكنت اعتقد حقاً انه مجرم ، ولا يهمّ نوع جريمته . ولكن هذا الرجل القصير ذا الشعر الاحمر ، والذي لا يتجاوز الثلاثين وكان فقيراً ، كان يبدو شديد العزم على الاعتراف بكل شيء ، عظيم الخوف مما فعله ومما سيفعلون بـه ، حتى اني لم اكن بعد بضع دقـائق انظر الى سواه . كان يبدو كأنه بومةٌ مبهورةٌ بنورٍ قوي جداً ، ولم تكن عقدة رقبته على سواء زاوية الياقة . وكان يقرض اظافر يد واحدة هي اليمنى ... وبالاختصار ، فأني لن امضي في وصفه طويلاً ، فقد ادركت انه كان حياً .

« اما انا فقد ادركت هذه الحقيقة فجأة ، بينا كنت حتى ذلك الحين لا افكر به الا على انه من فئة « المتهمين » . وليس بوسعي ان اقول اني كنت أنسى آنذاك ابي ، ولكن كان هناك ما يضيق به صدري فينزع عني كل اهتمام الا الاهتمام بالماثل امامي ، وكنت اكاد لا اسمع شيئاً ، وانما كنت اشعر بأنهم كانوا يريدون ان يقتلوا هذا الرجل الحيّ ، وكانت غريزة قوية كالموجة تحملني الى جانبه بنوع من العمى العنيد . ولم أستيقظ حقاً الا على مطالعة ابي .

« وقد بدا ابي انساناً آخر في ثوبه هذا الاحمر ، فلا هو ذلك الرجل البسيط ولا هو الودود ، وانما كان فمه يتشدّق بعبارات ضخمة تخرج دون ما توقف كأنها أفاعٍ . وقد فهمت انه يطلب موت هذا الرجل باسم المجتمع بل انه يطلب ان تُقطَع رقبته . صحيح انه كان يقول فقط : « إن هذا الرأس يجب ان يسقط » ولكن الفرق لم يكن آخر الامر كبيراً . وقد كان هذا الأمر سواء ، ما دام قد حصل في الواقع على ذلك الرأس . وكل ما في الامر انه لم يقم هو نفسه بالعمل . وانا الذي كنت اتابع القضية حتى نهايتها احسست لهذا المسكين بشعور حميم مدوّخ لم يشعره ابي ، اطلاقاً . على انه وجب على ابي ، كما تقضي العادة ، ان يحضر ما يسمونه اللحظات الاخيرة وما ينبغي ان يُسمى حقاً بأنّه أحقر لون من الوان القتل .

« منذ تلك اللحظة لم اطق ان انظر الى دليل « شيكس » الا بنفورٍ مريع . منذ تلك اللحظة ، جعلت اهتم اهتماماً فظيعاً بالعدالة وباحكام الاعدام وبتنفيذ هذه الاحكام ، وادركت وانا مصاب بدوار ان ابي قد حضر بضع مرات أعمال القتل ، وكان ذلك في الايام التي ينهض فيها مبكراً . أجل ، كان يربط ساعته المنبهة في تلك الحالات . ولم اكن اجرؤ على ان اسأل امي في ذلك ، وانما كنت اراقبها آنذاك مراقبة أفضل فأفهم انه لم يبق بينهما شيء بعد ، وانها كانت تسوق حياة زهد . وقد ساعدني ذلك

على ان أغفر لها كما كنت اقول حينئذ . ولكني عرفت فيما بعد انه لم يكن ثمة ما يُغفر لها ، لانها كانت طوال حياتها فقيرة حتى الزواج ، ولان الفقر كان قد علّمها الخضوع .

« انت تنتظر دون ريب ان اقول لك اني هجرت المنزل بعد ذلك فوراً . لا ، فقد لبثت بضعة أشهر ، سنة تقريباً . ولكني كنت مريض القلب . وذات مساء ، سأل ابي عن ساعته المنبهة لانه كان عليه ان ينهض باكراً . فلم انم تلك الليلة. وفي اليوم التالي، كنت قد ذهبت حين عاد . ولنقل على التوّ ان ابي بحث عني طويلاً واني عُدت لرؤيته واني قلت له، دون ان اوضّح شيئاً ، انني سأقتل نفسي ان هو قسرني على العـودة . فاضطر الى القبول ، لانه كان ذا طبيعة اقرب الى الرقة ، والقى عليّ خطاباً حـول البلادة والحماقة اللتين يرتكبهما كل من اراد ان يعيش حياته (كذلك كان يفسر مسلكي فلم احاول ان أثنيه أبداً) وقـدم إليّ ألف نصيحة وتوصية وكبت الدموع الصادقة التي ترقرقت في عينيه . وبعد ذلك كنت اعـود بانتظام لرؤية امي فألتقي به . واظن ان هذه الصلات كانت تكفيه . اما انا ، فلم اكن اكنّ له اية ضغينة ، وانما بعض أسى في القلب . وحين مات ، أخذت أمي الى منزلي حتى ماتت بدورها .

« تراني قد الححت في سرد هذه البداية ، لانها كانت في الحق بداية كل شيء .وسوف امضي الآن أسرع . لقد عرفت الفقر في الثامنة عشرة بعد عيش رخيّ . وجربت الف مهنة لأكسب رغيفي فلم اصب اخفاقاً كبيراً . ولكن الحكم بالاعدام هو ما كان يهمني . كنت اريد ان اصفّي حساباً بيني وبين البومة الحمراء . من اجل ذلك اشتغلت بالسياسة كما يقولون ، كل ما في الامر اني لم أشأ ان اصاب بالطاعون . لقد حسبت ان المجتمع الذي كنت اعيش فيه هو الذي يقوم على الحكم بالاعدام واني اذ احاربه احارب القتل . لقد اعتقدت ذلك ، وقاله لي آخرون ، وكان

صحيحاً في معظمه . واذن ، فقد انضممت الى الآخرين الذين كنت احبهم والذين ما فتئت احبهم . وقد بقيت معهم طويلاً ، و ليس من بلدٍ في اوروبا الا اشتركت في صراعه . ما علينا .

« وكنت اعرف بالطبع ، اننا كنا ، نحن ايضاً ، نلفظ بعض احكام الاعدام في مناسبات . ولكن كان يُقال لي ان هذه الميتات كانت ضرورية لتحقيق عالم لن يُقتل فيه احدٌ بعد ابداً . وكان هذا صحيحاً على نحوٍ ما ، ولعلني بعد كل شيء غير جدير بأن اتماسك في حقل هذه الحقائق . فالذي كان يقيناً هو اني كنت اتردد . ولكني كنت افكر بالبومة وان هذا يمكن يستمرّ . حتى اليوم الذي شهدت فيه تنفيذ حكم بالاعدام (وكان ذلك في هنغاريا) فاعتراني ، وانا رجل ، الدوار نفسه الذي اعتراني ، اذ كنت صبياً .

« هل رأيتَ يوماً رجلاً يُعدم بالرصاص ؟ طبعاً لا ،فان ذلك يتم بدعواتٍ يُختار لها الحضور مقدماً . وهذا يعني انك اكتفيت بالصور والكتبٍ. عصابة وعمود وبضعة جنود على بُعد . كلا ! أتعرف ان مفرزة حاملي البنادق تقف ، خلافاً لما ظننت ، على بعد متر ونصف من المحكوم عليه ؟ اتعرف أن المحكوم عليه اذا خطا خطوتين الى أمام ، فان صدره يصطدم بالبنادق ؟ أتعرف ان مطلقي النار من هذه المسافة يركزون فوهات بنادقهم على منطقة القلب ، وانهم يحدثون جميعهم برصاصاتهم الكبيرة ثُقباً تدخل فيه قبضةُ يد ؟ كلا ، انك لا تعرف ذلك ، لان هذه تفاصيل لا يتحدثون عنها . ان نوم الناس اكثر قدسية من الحياة بالنسبة للمطعونين . ينبغي ألا يمنع الناس الطيبون من النوم . فان ذلك يتطلّب ذوقاً رديئاً ، والذوق هو في عدم الالحاح . وكل الناس يعرفون ذلك . امـــا انا فقد أرقْتُ منذ ذلك الحين ، وقد بقي الذوق الرديء في فمي ، فلم انقطع عن الالحاح ، أي عن التفكير فيه .

« وادركت اذ ذاك انني لم انقطع يوماً عن ان اكون مصاباً بالطاعون طوال هذه السنوات التي كنت اعتقد من اعماق روحي اني اصارع فيها الطاعون بالذات . لقد علمت اني وافقت على موت آلاف من الرجال ، بل اني سببت هذا الموت اذ وجدت الاعمال والمبادىء التي أفضت بالقوة اليه صالحة . ولم يبدُ ان ذاك قد ازعج الآخرين ، او انهم لم يكونوا يتحدثون تلقائياً بشأنه على الاقل. اما انا فكان حلقي معقوداً. كنت معهم وكنت مع ذلك وحدي . واذا اتفق لي ان اعبّر عن وساوسي ، كانوا يقولون لي ان من الواجب التفكير بما كان يدخل في الامر ، ويقدّمون لي حججاً مؤثرة غالباً ليجعلوني ابتلع ما لم اكن انجح في ابتلاعـــه . ولكني كنت اجيب ان لكبار المصابين بالطاعون ،اولئك الذين كانوا يرتدون اثواباً حمراً ، حججاً ممتازة في تلك الاحوال ، واني ان اقررت الحجج التي كان يوردها صغار المصابين بالطاعون بشأن القـــوة القاهرة والضرورات ، فلم يكن بوسعي ان ارفض حجج الكبار . فكانوا ينبهونني الى ان خير طريقة للحكم بصالح الاثواب الحمر هي في ان تخص وحدها باصدار الاحكام . ولكني كنت أقول لنفسي آنذاك بان المرء اذا خضع مرة فلا شيء يجبره على التوقف . ويخيل إلى ان التاريخ قد صوّب رأيي ، والحق هو الآن بجابب من يقتل اكثر من سواه . إنهم جميعاً في جنون القتل ، ولا يستطيعون ان يفعلوا غير ذلك .

« وايا ما كان ، فان ما كان يعنيني انا ليس هو التحكيم العقلي ، وانما البومة الحمراء ، تلك المغامرة القذرة التي تعلن فيها افواه مطعونة قذرة لرجل في السلاسل انه سيموت ، وينظمون كل شيء من اجل ان يموت بعد ليال وليال من النزاع ينتظر في اثنائها ان يُغتال مفتوح العينين . كان يعنيني ذلك الثقب في الصدر . وكنت اقول انني ، فيما يخصني على الاقل ، سأرفض ابداً ان اقرّ هذه المجزرة المريعة الكريهة . اجل ، لقد اخترت هذا

الإصرار العنيد ريثما تتضح لعيني الامور .

« ومنذ ذلك الحين لم اتغيّر . وقد طال عليّ أجل خجلي ، خجلي حتى الموت ، من انني كنت واو من بعيد ، ولو من غير ارادة مني ، قاتلاً انا ايضاً . ولاحظت على الايام ، بكل بساطة ، انه حتى الذين كانوا خيراً من سواهم لم يكونوا ليمتنعوا اليوم عن ان يقتلوا ، او ان يسمحوا بالقتل ، لأن ذلك كان في منطق الحياة التي يعيشونها ، ولأننا لانستطيع ان نأتي بأية حركة في هذا العالم دون ان نعرض الناس للموت . أجل ، ظللت على خجلي ، وتعلمت ذلك ، تعلمت اننا كنا جميعاً في الطاعون ، وفقدت الطمأنينة والسلام . وما زلت اليوم ابحث عنهما ، محاولاً ان افهم الجميع وألاّ اكون العدو المميت لأيّ منهم . وانما اعلم أن علي اعمل ما ينبغي ان اعمل كي لا اكون بعدُ مصاباً بالطاعون ، وان ّهذا هو وحده الذي يستطيع ان يجعلنا نأمل السلام ، أو موتاً شريفاً بدلاً منه . ان هذا هو الذي يمكن ان يعزي الناس ، فان لم يستطع إنقاذهم ، فهو يصيبهم بأقل شرّ ممكن بل حتى بخير قليل . ومن أجل هذا قررت ان ارفض كل ما من شأنه ان يميت او ان يبرّر الإماتة ، من قريب او بعيد ، ولأسباب سيئة او صالحة .

« ومن اجل هذا ايضاً ، لا ارى هذا الوباء يعلمني شيئاً ، إلاّ ان من الواجب محاربته الى جانبكم . انني اعرف معرفة اكيدة (نعم يا ريو ، فانا اعرف كل شيء في الحياة كما ترى) ان كل انسان يحمل في جلده الطاعون ، لأنه ليس ثمة في الدنيا من هو معصوم منه . وان على الانسان ان يراقب نفسه من غير انقطاع حتى لا يتنفس ، ذات لحظة من لحظات الشرود ، في وجه انسان آخر ، فيلصق به العدوى . فالطبيعي هو الجرثومة . اما الباقي ، الصحة والكرمة والصفاء اذا شئت ، فهي نتيجة لإرادة ، لإرادة ينبغي الا تقف قط . إن الرجل الشريف ، ذلك الذي لا يُعدي احداً تقريباً ، هو من يملك اقل وسائل الشرود واللامبالاة . ولا بدّ من إرادة وتوتّر حتى لا يشرد

المرء . اجل يا ريو ، إنه لشاق جداً ان يكون احـــدنا مصاباً بالطاعون . ولكن أشقّ من ذلك الاّ يريد ان يكونه . من أجل هـــذا ، يبدو جميع الناس متعبين ، لأن جميع الناس مصابون قليلاً بالطاعون . ولكن من اجل ذلك ، ترى بعض الذين لا يريدون ان يكونوا هكذا يُعانون تعباً مفـــرطاً لن يحررهم منه إلا الموت .

« وحتى بحين ذلك ، أعرف اني لم تبق لي قيمة بعد في هذا العالم نفسه ، واني منذ اللحظة الذي عدلت فيها عن القتل ، حكمت على نفسي بنفي نهائي . إن الذين يصنعون التاريخ هم الآخرون . وانا اعلم ايضاً أني لا استطيع في الظاهر ان احكم على هؤلاء الآخرين . تنقصني ميزة ضرورية لأكون قاتلاً عاقلاً . فليست هي اذن عنصر تفوق . ولكني الآن اوافق على ان اكون ما انا حقاً . لقد تعلمت التواضع . واقول فقط إن على هذه الارض أوبئـــة وضحايا ، وانه يجب على المرء ان يرفض ، ما وسعه ذلك ، ان يكون مع الوباء . ربما بدا لك هذا ساذجاً بعض الشيء ، ولست اعرف ان كان كذلك حقاً ، ولكني اعرف انـــه صحيح . لقد سمعت كثيراً من الحجج التي كادت تغريني ، والتي أغرت عدداً كافياً من الناس بالموافقة على القتل ، حتى اني ادركت ان مصيبة الناس انما تأتيهم مـــن انهم لا يتحدثون بلغة واضحة . ولقد صحّ عزمي اذ ذاك على ان اتكلم وأعمل بـــوضوح لأسلك الطريق السويّ . ولذلك اقول انّ هناك الأوبئة والضحايا ، ولا شيء غير ذلك . فاذا أصبحت ، فيما انا اقول ذلك ، وبأ انا نفسي ، فلن يكون هذا بموافقتي على الأقل . اني احاول ان اكون قاتلاً بريئاً . فانت ترى ان هذا ليس مطمعاً كبيراً .

وينبغي بكل تأكيد ان تكون هناك فئة ثالثة ، فئة الاطباء الحقيقيين ، ولكن الواقع اننا لا نعرف كثيراً منهم ، وان العثور عليهم شيء عسير . ومن اجل هذا عزمت على ان اقف في جانب الضحايا في كل مناسبة ، لأحدّ من

الأضرار . فبين ظهرانيهم استطيع على الأقل ان ابحث عن طريقة الوصول الى الفئة الثالثة ،اي الى السلام » ؟

واذ انتهى تارو، كان يؤرجح ساقه ويضرب السطيحة بقدمه ضرباً خفيفاً. وبعد سكوت قصير ، تحرك الطبيب في مجاسه قليلاً وسأل تارو عما اذا كانت لديه فكرة عن الطريق الذي ينبغي سلوكه للوصول الى السلام ..

— نعم ، المودّة .

وسمع في البعيد صوت جرسين لسيارتي إسعاف، فاذا الصيحات التي كانت اذ ذاك غامضة تتجمع عند حدود المدينة بالقرب من الرابية الحجرية . وفي الوقت نفسه سُمع صوت يشبه الإنفجار ، ثم عاد السكون . وعدّ ريو ومضتين من ومضات المنارة . وبدا ان النسيم يشتدّ ، وفي الوقت نفسه ، حملت زفرة قادمة من البحر رائحة ملح . ثم سمع بصورة واضحة صوت تنفّس الامواج واصطفاقها بالجرف .

وقال تارو ببساطة :

— إن ما يهمني بالاجمال هو ان اعرف كيف يصبح الانسان قديساً .

— ولكنك لا تؤمن بالله .

— من أجل هذا أسأل سؤالي . هل في وسع الانسان ان يكون قديساً من غير الله ؟ تلك هي القضية الوحيدة المحسوسة التي اعرفها اليوم .

وفجأة،انبعث شعاع عظيم من الجانب الذي اتت منه الصيحات،وبلغت مسمع الرجلين ضجة عظيمة غامضة ، تصعد نهرَ الريح . ولكن الشعاع ما لبث ان اختفى ، ولم يبق على طرف السطائح بعيداً إلا احمرار ضئيل . وانقطع انين الريح لحظة،فسمعت بوضوح صيحات رجال ، ثم صوت طلق ناري تبعته ضوضاء جمهور . وكان تارو قد نهض وأخــذ يرهف سمعه . ولكن الاصوات كلها انقطعت .

– لقد نشبت معركة اخرى على الابواب .

فقال ريو : – وقد انتهت الآن .

فتمتم تارو انها لم تنته ابداً ، وانه ستسقط ضحايا اخرى ، لأن هـذا يدخل في النظام . فأجاب الطبيب :

– هذا ممكن . ولكني ، لو تعلم ، استشعر مع المقهورين حظاً من التضامن اكبر مما استشعر مع القديسين . واحسب اني لا احب البطولة ولا القداسة . إن الذي يهمني هو ان يكون المرء انساناً .

– نعم ، نحن نبحث عن شيء واحد ، ولكني انا اقلّ منك طموحاً .

فظن ريو ان تارو كان يمزح ، وأخذ ينظر اليه . ولكنه رأى في النور الباهت الآتي من السماء وجهاً حزيناً رصيناً . وهبّت الريح من جديد ، فشعر ريو بفتورها على جلده . واهتزّ تارو قائلاً :

– اتعرف ما ينبغي لنا ان نعمل من اجل الصداقة ؟

فقال ريو : – ما تراه ؟

– الاستحمام في البحر . إن هذه لمتعة جديرة ، حتى بالنسبة لرجـل سيصبح قديساً .

كان ريو يبتسم .

– إن الاذن بالمرور الذي نملكه يسمح لنا بالذهاب إلى الشاطىء . إن من البلادة الحمقاء الا يعيش الانسان ، آخر الأمر ، إلا في الطاعون . صحيح ان على الانسان ان يقاتل دفاعاً عن الضحايا ، ولكن إذا انقطع عن ان يحب شيئاً آخر ، فماذا يجديه ان يقاتل ؟

قال ريو : – نعم . فلنذهب .

وبعد برهة ، توقفت السيارة عند حواجز المرفأ . وكان القمر قد أطلّ ،

وكانت سماء اتبنية تلقي ظلالاً باهتة في كل مكان . وكانت المدينة تتراكب خلفهما ، تنبعث منها نسمة حارّة مريضة كانت تدفعهما دفعاً نحو البحر . وابرزا اوراقهما الى حارس تفحّصها تفحصاً طويلاً بما فيه الكفاية . ومرّا سالكين طريقهما الى الرصيف عبر ركام البراميل وبين روائح الخمر والسمك. وقبل ان يبلغا البحر ، آذنتهما به رائحة اليود والطحلب . ثم سمعا صوته .

كان يئن انيناً عذباً عند كُتل الرصيف الضخمة ، حتى إذا ما ارتقياها ، بدا البحر لهما كثيفاً كأنه المخمل ، مرناً ناعماً كأنه حيوان . واقتعدا الصخور المتجهة الى العرض ، فرأيا المياه تنتفخ ثم تهبط على مهل ، وكان تنفس البحر الهاديء هذا يولّد على سطح المياه انعكاسات زيتية ثم يخفيها . ولم يكن لليل امامهما من حدود . وكان ريو يتجسس باصابعه وجه الصخور المبرود ، فيمتلىء بشعور من السعادة غريب . وكان يقرأ على وجه صديقه الهاديء الرصين ، اذ كان يواجهه ، هذه السعادة نفسها التي لم تكن لتنسى شيئاً ، حتى ولا القتل.

ونزعا ثيابهما . وكان ريو اول من غطس . وكانت المياه باردة ، ولكنها بدت له فاترة اذ صعد . وايقن بعد بضع غطسات ان البحر كان فاتراً ذلك المساء فتور بحور الخريف التي تسترد من الارض ما خزنته من حرارة طوال أشهر. وكان يسبح بانتظام . وكان خفق قدميه يخلّف وراءه غلياناً من زبد ، وكان الماء يفرّ عبر ذراعيه ليلتصق بساقيه. وسمع صفقة ثقيلة فعلم ان تارو غطس في البحر. وانقلب ريو على ظهره وجمّد نفسه مواجهاً السماء الغاصة بالنجوم والقمر . وتنفس تنفساً طويلاً ، ثم سمع ضجة ماء مصفوق تكبر شيئاً فشيئاً في سمعه ، رهيفةً صافية في سكون الليل ووحدته . كان تارو يقترب رويداً ، وما لبث تنفسه ان سُمع . وانقلب ريو على باطنه ، مستوياً بالقرب من صديقه ، وراح يسبح على الايقاع نفسه . وكان تارو يشق الموج بمقدرة اكبر من مقدرته ، فاضطر الى ان يُسرِّعَ سيره . وظلا يتقدمان بضع دقائق في ايقاع واحد ، وقوة واحدة ، منعزلين ، بعيدين عن العالم ،

متحرّرين اخيراً من المدينة ومن الطاعون . وتوقف ريو اولاً ، فعادا على مهل ، إلاّ حين دخلا في تيار مثلج ، فأسرعا في حركتهما من غير ان يقولا شيئاً ، وقد ساطتهما مفاجأة البحر هذه .

وارتديا ثيابهما ومشيا من غير ان ينبسا بحرف . ولكن كان لهما قلبٌ واحد ، وذكرى عذبة من هذه الليلة . وحين رأيا من بعيد حارس الطاعون ، كان ريو يعرف ان تارو يحدث نفسه ، مثله ، بأن الوباء قد نسيهما ، وان ذلك كان حسناً ، وانه ينبغي لهما الآن ان يستأنفا من جديد .

اجل، كان ينبغي لهما ان يستأنفا من جديد ، فان الطاعون لا ينسى احـــداً أطول مما ينبغي . ففي شهر كانون الاول، تلظى في صدور مواطنينا ، واشعل الفرن وعمّر المعسكرات بالاشباح ذوي الايدي الفارغة، ولم يكن اخيراً يتقدّم في سيره المتئد المتقطع . وكانت السلطات قد علقت اهمية على الايام الباردة لوقف هذا التقدم، ومع ذلك فقد ظل يزحف عبْرَ الايام القاسية من الفصل دون ان يَهن . وكان لا بد من الانتظار بعد . ولكن الناس ، لفرط انتظارهم باتوا لا ينتظرون ، وكانت مدينتنا كلها تعيش من غير مستقبل.

اما الطبيب ، فلم تخلّف لحظة السلام والصداقة الخاطفة التي اعطيت له ايّ غد . كانوا قد فتحوا مستشفى آخر ، ولم يكن ريو ليواجه الا المرضى . على انه لاحظ ان المرضى كانوا ، في هذه المرحلة من الوباء الذي يتخذ فيه الطاعون اكثر فأكثر الشكل الرئوي، يساعدون الطبيب على نحوٍ ما. فقد كانوا بدلاً من الاستسلام للذهول والحماقات الاولى ، يبدون وكأنهم يعرفون مصالحهم معرفة ادق ، فإذا هم يطالبون من تلقاء انفسهم بما يمكن ان يكون خيراً لهم . كانوا لا يكفّون عن طلب الشرب ، وكانوا جميعهم يرغبون في الحرارة . وبالرغم من ان التعب كان هو هو بالنسبة للطبيب ، فقد كان يشعر بأنه أقل وحدة ، في هذه المناسبات .

وحوالي اواخر كانون الاول، تلقى ريو من قاضي التحقيق السيد اوتون، الذي كان ما يزال في معسكره، رسالة تقول ان مدة حجره قد انقضت، ولكن الإدارة لم تعثر على تاريخ دخوله ، فهو لذلك محجور عليه بعدُ خطأ . وقد

قامت زوجته ، التي خرجت منذ حين ، بالاحتجاج اللازم في الولاية بعد ان استُقبلت استقبالاً سيئاً ، فأجيبت بأنه ليس في الامر أيّ خطأ . وعهد ريو الى رامبير بالتوسط في الامر ، وبعد بضعة ايام رأى السيد اوتون يدخل عليه . والواقع أنه كان ثمة خطأ ، وقد غاظ ذلك ريو بعض الشيء . ولكن السيد اوتون ، الذي لحق به بعض الهزال ، رفع يداً مرتخية وقال وهو يزن كلماته : « ان جميع الناس معرضون للخطأ » . ففكر الطبيب بأن هناك شيئاً ما قد تغيّر . وقال له :

ـــ ما تنوي ان تفعل يا سيدي القاضي ؟ ان ملفاتك تنتظرك .

فقال القاضي : ـــ كلا ... اودّ أن آخذ إجازة .

ـــ الحق معك . ينبغي ان تستريح .

ـــ لا ، ليس من اجل ذلك . وانما اود ان أعود الى المعسكر .

فدهش ريو :

ـــ ولكنك خارج منه !

ـــ لقد اسأت التعبير . قيل لي إن في هذا المعسكر متطوّعين من موظفي الولاية .

وادار القاضي عينيه في محجريهما وحاول ان يسوّي احد سالفيه :

ـــ احسبك فهمت. سيكون لي عمل يشغلني ، ثم اني سأشعر شعوراً أخف بأني قد فارقت ابني الصغير ، ولعل هذا قول بليد .

كان ريو ينظر اليه . لم يكن ممكناً ان تشعّ عيناه القاسيتان المسطحتان بعذوبة مفاجئة . ولكنهما فقدتا صفاءهما المعدني فغشيتهما غشاوة. قال ريو :

ـــ طبعاً سأهتم بالامر ، ما دامت هذه رغبتك .

واهتم الطبيب بالامر فعلاً ، واستعادت حياة المدينة المطعونة جريها حتى

عيد الميلاد . وظلّ تارّو ينقل هدوءه الفعّال الى كل مكان . واسرّ رامبير للطبيب بأنه كان قد نظّم ، بفضل الحارسين الشابين ، طريقة للمراسلة السرية مع زوجته . وكان يتلقى رسائلها بين فترة وأخرى . وعرض على ريو ان يشركه في الافادة من طريقته فقبل ريو . وكتب للمرة الاولى منذ اشهر طويلة ، ولكنه عانى في الكتابة اكبر الصعوبات . كانت ثمة لغةٌ قد فقدها . وذهبت الرسالة وتأخر الجواب في الوصول . واما كوتار فقد كانت احـوالـه الى تحسّن ، وكانت مضارباته الصغيرة تدرّ عليه الربح فتغنيه . واما غران ، فلم تلائمه فترة الاعياد .

والحقّ ان عيد ميلاد ذلك العام كان عيد جهنم ، اكثر مما كان عيد الانجيل . لم يكن شيءٌ ليذكّر باعياد الميلاد الماضية ، لا الحوانيت الفارغة المحرومة من النور ، ولا الشوكولا المقلّدة ، ولا العلب الفارغة في الواجهات ، ولا الترامات الغاصّة بالوجوه الحزينة . ففي هذا العيد الذي كان يلتقي فيه جميع الناس ، فقراء واغنياء ، لم يبق ثمة مجال لغير المتع المنفردة المخجلة التي كان بعض المحظوظين يبتاعونها بالذهب من اعماق خلفيّة دكانٍ قذرة . وكانت الكنائس ملأى بالشكاوي بدلاً من أعمال الخير . وفي المدينة الكئيبة المجلّدة ، كان بعض الصبية يركضون غير مدركين ما كان يتهدّدهم . ولكن احداً لم يكن يجرؤ على ان يؤذنهم بمجيء رب الايام الماضية ، محملاً بالعطايا ، قديماً كالشقاء البشري ، ولكن جديداً كالأمل النضير . لم يبق في قلوب الجميع مكان الا لأمل قديم جداً وكئيب جداً ، هو نفسه ذلك الذي يمنع الناس من الذهاب الى الموت ، والذي ليس هو الاّ مجرّد إصرارٍ على الحياة .

وكان غران عشية الأمس قد اخلف الموعد ، مما اقلق ريو ، فألمّ ببيته صباح اليوم الباكر ، ولكنه لم يجده . وسرعان ما أخطر الجميع . وحوالى الحادية عشرة دخل رامبير على الطبيب في المستشفى ليخبره انه كان قد لمح غران من بعيد ، تائهاً في الشوارع ، متحلل الوجه . ثم أضاع أثره ، فانطلق الطبيب وتارو في السيارة للبحث عنه .

وعند الظهر ، خرج ريو من السيارة ، وكان الجو قارساً ، واخذ ينظر من بعيد الى غران وقد التصق بواجهة ملأى باللعب المنقوشة في الخشب نقشاً غليظاً . وكانت دموع لا تنقطع تسيل على وجه الموظف القديم . وقد تأثر ريو لهذه الدموع ، لأنه كان يفهمها ويحسها كذلك في جوف حلقه . كان هو ايضاً يتذكر خطوبة المسكين ، امام حانوت من حوانيت الميلاد المزينة ، ويذكر « جانّ » مرتدّة اليه تقول له انها مسرورة . فمن اعماق السنين البعيدة ، كان صوت جانّ يعود الآن الى غران ، في وسط هذا العالم المجنون . هذا لا ريب فيه . وإن ريو ليعرف ما كان يفكر به هذه اللحظة الرجل الشيخ الذي كان يبكي ، وهو يفكر به مثله ، يفكران بأن هذا العالم الذي لا حبّ فيه ، كان كأنه عالم ميت ، وانه لا بدّ ان تأتي ساعةٌ يتعب فيها الناس من السجون ومن العمل ومن الشجاعة ليطالبوا بوجه كائن عزيز ، وبفؤاد الحنان المفتون .

ولكن الآخر رآه في المرآة . ودون ان يكفّ عن البكاء ، انفتل واسند ظهره الى الواجهة لينظر اليه آتياً .. وليقول :

ـ آه .. يادكتور .. يادكتور ...

فهزّ ريو رأسه ليقرّه ، عاجزاً عن ان يقول كلمة . لقد كان هذا الضيق ضيقه ، وكان ما يلوي قلبه في هذه اللحظة ، ذلك الغضب العظيم الذي يستأثر بالرجل امام الألم الذي يتقاسمه جميع الناس ، وقال :

ـ نعم ياغران .

ـ بودّي لو اجد الوقت لأكتب لها رسالة .. لكي تعرف .. ولكي تستطيع ان تكون سعيدة ، دون ما حسرة او تبكيت ...

وجذب ريو غران بشيء من العنف ودفعه امامه . فاستسلم الآخر له ، وظل يتمتم اطرافاً من الجمل :

– لقد تطاول الزمن على ذلك . إن بودّ المرء ان يستسلم . ان هذا فوق طاقته . آه ، يادكتور ، انني ابدو هكذا هادئاً . ولكني كنت دائماً أحتاج الى جهود عظيمة لأكون طبيعياً فقط . اما الآن ، فإن ذلك فوق طاقتي .

وتوقف ، وجسمه كله يرتجف ، وعيناه مروّعتان . فأخذ ريو يده ، فإذا هي ملتهبة .

– ينبغي ان نعود .

ولكن غران أفلت منه وعدا بضع خطوات ، ثم توقف ، وباعد بين ذراعيه وراح يترنّح الى امام والى وراء . واستدار على نفسه ثم سقط على الرصيف المثلج ، وقد اتسخ وجهه بدموع ما تــزال تسيل . وكان المارّة ينظرون من بعيد ، وقد توقفوا فجأة لا يجروؤن بعدُ على التقدم. وكان ان اخذ ريو الرجل الشيخ بين ذراعيه .

وجعل غران ، اذ هو في سريره ، يختنق : لقد اصيبت رئتاه . وأخذ ريو يفكر . لم يكن للموظف اسرة . فما الفائدة من نقله ؟ سيداويه مع تارو وحدهما ...

كان غران مستغرقاً في جوف وسادته ، مخضرّ البشرة ، مطفأ العين . وكان يحــدّق في نار هزيلة كان تارو يوقــدها في الموقد مع حطــام صندوق . وكان يقول « إن الامور سيئة » . وكان يخرج من أعماق رئتيــه الملتهبتين فرقعة غريبة ترافق كلّ ما كان يلفظه . وامره ريو بأن يسكت وقال إنه عائدٌ إليه . فاكتسى وجه المريض ببسمة غريبة وبطيف من الحنان . وغمز بعينه جاهداً « لئن خرجت معافيً ، فَلْتُخفض القبعة يا دكتور ! » ولكنه سرعان ما خارت قواه .

وبعد ساعتين ، الفى ريو وتارو المريض منتصباً نصف انتصاب في سريره ، فذعر ريو إذ قرأ على وجهه تطور الألم الذي كان يحرقه . ولكنه كان يبدو

أكثر هدوءاً وصفاء ذهن، وقد رجاهما على الفور، بصوت أجوف غريب، ان يأتياه بالمخطوطة التي كان قد وضعها في درج . فأعطاه تارو الاوراق ، فضمها اليه دون أن ينظرها ، ثم مدّها إلى الطبيب ، مشيراً اليه بأن يقرأهـــا . كانت مخطوطة قصيرة من خمسين صفحة تقريباً . وقد قلبها الطبيب وفهم ان جميع هذه الأوراق لم تكن تحمل الا العبارة نفسها، منسوخة إلى ما لا نهاية، معدّلة طوراً إلى أحسن وطوراً إلى أسوأ . كانت الفارسة وممرات الغابة ، في شهر نوّار ، تتقابل وتتواجه بطرق مختلفة دون ما توقف . وكان في المخطوطة بعض الشروح كذلك ، وكانت أحياناً تطول كثيراً ، وبعض الفروق في النسخ . ولكن كانت يدٌ قد خطّت بعناية على آخر صفحة ، بحبر ما يزال رطباً ، هذه العبارة فقط : « عزيزتي جانّ ، اليوم هو عيد الميـــلاد ... » وفوقها كان مكتوباً ، بعناية ، النص الأخير للجملة . وقال غران « اقرأ » ، فقرأ ريو .

« ذات صبيحة جميلة من شهر نوّار ، كانت فارسة ممشوقة تعبر عـــلى فرس صهباء فاخرة ، ممرات غابة بولونيا بين الازهار ... »

وقال الشيخ بصوت محموم :

ــ هذه هي الكلمة ، اليس كذلك ؟

فلم يرفع ريو عينيه اليه ، فقال الآخر قلقاً :

ــ آه . أعرف جيداً ان كلمة « جميلة » ليست هي الكلمة الصحيحة .

فأخذ ريو يده من فوق الغطاء . ولكنه قال :

ــ دَعْ ذلك يا دكتور . لن يسمح لي الوقت ...

وارتفع صدره بمشقة ، ثم صاح فجأة :

ــ أحرقها .

فتردد الطبيب . ولكن غران اعاد أمره بلهجة مريعة وعذاب في الصوت لم يستطع ريو معهما إلا ان يقذف الاوراق في الموقد الخامد تقريباً . وسرعان ما أضاءت القاعة وادفأتها نفحة من الحرارة. وحين عاد الطبيب إلى المريض، ألفاه قد ادار ظهره ، وكان وجهه يوشك ان يمسّ الجدار . وكان تارو ينظر من النافذة ، كأنما هو غريب عن المشهد . وبعد ان حقن ريو المريض بالمصل ، قال لصديقه ان غران لن يجـاوز ليلته ، فعرض تارو ان يبقى إلى جانبه ، فقبل الطبيب .

وظلت فكرة موت غران الوشيك تلاحقه طوال الليل . ولكن ريو الفى غران صباح اليوم التالي مستوياً في سريره يتحدث مع تارو . وكانت الحمى قد زالت ، ولم تبق إلا آثار إجهاد عام .

وقال الموظف :

– آه ، يا دكتور .. لقد اخطأت . ولكنني سأستأنف من جديد . انني أتذكر كل شيء ، وسترى .

قال ريو لتارّو :

– لننتظر .

ولكن لم يتغيّر شيء حتى الظهر . وعند المساء ، كان بالامكان اعتبارُ غران ناجياً . ولم يكن ريو ليفهم شيئاً من أمر هذا الانبعاث .

وجاءوا ريو في تلك الفترة نفسها بمريضة حكم بأنها في حالة تدعو إلى اليأس، وأمر بعزلها فور وصولها إلى المستشفى . وكانت الفتاة في حالة الهذيان التام ، وكانت تبدو عليها جميع عوارض الطاعون الرئوي . ولكن الحمّى انخفضت صباح اليوم التالي . فحسب الطبيب ان ذلك لم يكن ، كما كان الشأن مع غران ، إلا هجوع المرض الصباحي ، الذي عوّدته التجربة على ان يعتبره

نذير شوئم . ومع ذلك،فان الحمّى لم ترتفع حتّى الظهر . وعند المساء زادت بضعة أعشار فقط ،حتى إذا أصبحت الفتاة ، كانت الحمى قد زايلتها تماماً . وكانت تتنفّس بحرية في سريرها ، وان كان يبدو عليها الارهـــاق . وقال مـَثَل في مستشفى الدكتور ريو لتارّو انها قد نجت مـــن المرض هازئة بجميع القواعد . وفي أثناء الاسبوع ، أربعة مرضى كانوا في مثل هذه الحالة .

وفي أواخر الاسبوع نفسه ، استقبل العجوز المبهور الطبيب وتارّو بحيوية كبيرة وقال :

ـ رجعنا ... انها تخرج من جديد .

ـ ما الذي يخرج ؟

ـ الجرذان .. الجرذان !

ولم يكن قد اكتُشف ، منذ شهر نيسان ، أيّ جرذ ميت .

قال تارو لريو : ـ هل سيبدأ الأمر من جديد ؟

وجعل العجوز يفرك يديه :

ـ أية متعة في ان يراها المرء وهي تعدو !

وكان قد رأى جرذين حيين يدخلان منزله من باب الشارع .وكان بعض الجيران قد انبأوه بان الجرذان قد ظهرت في بيوتهم هم ايضاً . وارتفعت من بعض المباني ، تلك الضجة التي نسيها الناس منذ أشهر . وتـــرقّب ريو نشر الاحصاءات العامة التي كانت تذاع في مطلع كل اسبوع ، فاذا هي تكشف عن تقهقر الوباء .

٥

بالرغم من ان مواطنينا لم يكونوا يأملون تراجع الوباء المفاجىء هذا ، فإنهم لم يعجلوا في إظهار فرحهم . فان الاشهر التي مضت وإن كانت قد عززت رغبتهم بالتحرّر ، علمتهم الحذر وعوّدتهم الا ينتظروا ان يزول الوباء قريباً . على ان هذا الحدث الجديد كانت تتداوله جميع الافواه ، وكانت القلوب كلها تضطرم بأمل عظيم مكتوم . واما ما بقي ، فقد كان كله في المحل الثاني من اهتمام الناس . وكانت ضحايا الطاعون الجديدة تشيل امام هذا الحدث الذي يتجاوز الحدّ : لقد تناقصت الارقام . ومن الآيات التي تدل على ان الناس كانوا يترقبون عهد الصحة ، دون ان يأملوا فيه كثيراً ، انهم اخذوا يتحدثون منذ تلك اللحظة عن الطريقة التي ستنظم بها الحياة مرة اخرى بعد الطاعون ، وان كان ذلك الحديث يتخذ لهجة اللامبالاة .

كانوا مجمعين على التفكير بان رغد الحياة السابقة لن يعود دفعة واحدة ، وبان الهدم ايسر من البناء . وكانوا يقدّرون فقط ان الاعاشة يمكن ان تتحسن قليلاً ، وان هذا سيتيح التحرر من الوسواس الأشد إلحاحاً . ولكن الواقع انّ املاً لا معنى له كان ينفلت ، خلف هذه الملاحظات المسكّنة ، انفلاتاً قويّاً يعيه مواطنونا احياناً فيؤكدون على عجل ان التحرر لن يتم في اليوم التالي على اي حال .

وبالفعل . فان الطاعون لم يقف في اليوم التالي ، وانما كان يضعف في الظاهر بأسرع مما كانوا يأملون . وغمرت المدينة في اوائل كانون الثاني موجة برد مالحة ، وبدا انها تتبلور في الجوّ . ومع ذلك ، فان السماء لم تكن يوماً بمثل تلك الزرقة . وطوال بضعة ايام،غمر بهاؤها المثلّج مدينتنا بأشعة غير منقطعة. وفي ذلك الهواء المنقّى ، بدا ان الطاعون أخذ طوال ثـــلاثة اسابيع ، وفي سقطات متتابعة ، يستنفد قواه في الجثث المتناقصة التي كان يصفّها . وقد فقد في مدة قصيرة من الزمن جماع القوى التي قضى اشهراً في حشدها . وإن من يراه يُعفي هكذا فرائس سهلةً كغران وفتاة مستشفى ريو ، وتشتد وطأته في بعض الأحياء يومين او ثلاثة في حين يختفي تماماً مـــن أحياء اخرى ، ويضاعف ضحاياه أيام الاثنين ، في حين يدعها تفلت كلها تقريباً ايـــام الاربعاء،إن من يراه هكذا يلهث او يسرع ،قائلٌ دون ريب انه كان ينحلّ بالعصبية والاجهاد ، وانه فيما كان يفقد سلطته على نفسه ، كان يفقد كذلك الفعالية الرياضية القديرة التي كانت تشكل قوته . وقد كان مصل كاستـــل يحظى دفعةً واحدة بسلسلة من مظاهر النجاح لم يكن يتمتع بها حتى ذلك الحين. وبدا ان كل تدبير كان يتخذه الاطباء ، فلا يؤدي من قبل إلى اية نتيجة ، كان يُثبت بكل سرعة جدواه الآن . كان يظهر ان الطاعون قد فُلّ بدوره، وان ضعفه المفاجيء قد ردّ القوة إلى الاسلحة التي كانوا يقاومونه بها حتى ذلك الحين . وإنما كان الوباء يتصلّب بين وقت وآخر ، فيحتمل في طفرة عمياء ثلاثة مرضى أو أربعة كان يُرجى شفاؤهم . وكان هؤلاء أصحاب الحظ السيء مع الطاعون ، اولئك الذين كان يقتلهم في اوج الأمل . وهذا ما حدث للقاضي اوتون الذي أخلي من معسكر المحجر ، والواقع ان تارّو قال عنه إنه لم يكن له حظّ ، من غير ان يفهم احد إن كان يقصد الموت أم حياته كقاضٍ .

ولكن الوباء كان يتراجع بالاجمال في كل مكان،وانتهى الأمر ببلاغات

الولاية، بعد ان ولّدت في البدء املاً حيياً خفياً، إلى تعزيز الاعتقاد في نفوس الجمهور بأن النصر قد تأمن ، وبأن الوباء كان يتخلى عن مراكزه . والحق انه كان صعباً الإقرار بأن في الامر نصراً . وانما كان الناس مضطرين الى التثبت من ان الوباء يمضي كما جاء . فانّ الخطة التي كان يُجابَهُ بها لم تتغير : كانت دون ما جدوى بالامس ، فاذا هي اليوم فعالة في الظاهر . وانما كان الناس يشعرون بأن الوباء قد استنفد طاقته او انه يتراجع بعد ان بلغ جميع اهدافه . لقد انتهى دوره بالاجمال .

ومع ذلك يخال ان شيئاً ما لم يتغير في المدينة . كانت الشوارع ساكنة في النهار ، اما في المساء فقد كانت تغصّ بالجمع نفسه حيث كانت تغلب السترات والغلالات . وظلت المقاهي ودور السينما تقوم بدورها . ولكن من ينظر الى الامور عن كثب ، يلاحظ ان الوجوه كانت اشدّ انبساطاً ، وانها كانت تبتسم احياناً . وكانت تلك مناسبةً للملاحظة انه لم يكن هناك من يبتسم من قبل. والواقع ان الغلالة الكثيفة التي تحيط بالمدينة منذ بضعة اشهر قد انشقت ، وكانت انباء الراديو ايام الاثنين تتيح لكل انسان ان يرى انّ هذا الشق يتسع ،وانه سيُسمح له اخيراً بأن يتنفس . على ان ذلك ظلّ عزاء سلبياً لم يتخذ لنفسه تعبيراً صريحاً . ولكن بينا كان الناس من قبل لا يكادون يصدقون ان قطاراً ما قد ذهب او باخرة قد وصلت ،او انه سيُسمح للسيارات بأن تسير من جديد، فان اعلان مثل هذه الانباء في منتصف كانون الثاني ما كان ليحدث اي دهشة . كان هذا قليلاً دون ريب . ولكنّ هذه المفارقة الخفيفة تعبر في الواقع عن التقدم الهائل الذي احرزه مواطنونا في طريق الامل . وفي وسعنا القول من جهة اخرى ان سيادة الطاعون الحقيقية قد انتهت منذ اللحظة التي أصبح فيها ادنى حظٍّ من الامل ممكناً في نظر الشعب.

على ان ذلك لم يمنع مواطنينا من ان يتصرفوا ، طوال شهر كانون الثاني ، بصورة متناقضة . لقد كانوا يمرّون في مسالك تراوح بين الهيجان والانحطاط .

من ذلك انه سُجلت بعض محاولات جديدة للفرار ، في الوقت الذي كانت الارقام فيه مطمئنة . وقد اثار ذلك دهشة السلطات ومراكز الحراسة نفسها ، باعتبار ان معظم هذه المحاولات قد نجحت. ولكن الحقيقة ان الاشخاص الذين كانوا يفرّون في تلك اللحظة انما كانوا يستجيبون لمشاعر طبيعية . فقد جذّر الطاعون في نفوس بعضهم شكاً عميقاً لم تكن لهم حيلة في التخلص منه ، فاذا الامل لا يلقى عندهم اية حظوة ، واذا هم ماضون في حياتهم وفقاً لقوانين الطاعون بالرغم من ان زمن هذا الطاعون قد انقضى. لقد كانوا مسبوقين بالحوادث . اما الآخرون ، فكان الامر عندهم على النقيض ، وقد كان معظمهم من اولئك الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الحين مفصولين عن الاشخاص الذين كانوا يحبونهم ، فاذا ريح الأمل التي هبت بعد ذلك العهد من السجن والانحلال تُلهب حمى ونفاد صبر حرماهم كل سيطرة على انفسهم . وكان نوع من الذعر يستأثر بهم كلما فكروا بانهم ربما ماتوا ، بالرغم من اقتراب الهدف ، وبأنهم لن يروا بعد الكائن الذي يحبونه وانّ هذه الآلام الطويلة لن تُعوض عليهم . لقد دأبوا في الاشهر الاولى على الانتظار ، رغم السجن والنفي ، فاذا اول نسمة من الامل تكفي لهدم ما لم يستطع الخوف واليأس ان يُلحقا به اقل اذًى . وسرعان ما هرعوا كالمجانين لتجاوز الطاعون ، غير قادرين على مماشاته حتى آخر لحظة .

ومن جهة اخرى ، ظهرت في الوقت نفسه امارات تفاؤل تلقائية . فسُجل هبوط محسوس في الاسعار ، وهذه حركة لاسبيل الى تعليلها من وجهة النظر الاقتصادية البحت . فان الصعوبات القائمة ظلت كما هي ، وبقيت الشكليات عند ابواب المحجر على حالها ، ولم تتحسن الاعاشة أي أي تحسن . وإذن ، فقد كانت تلك الحركة ظاهرة معنوية بحتاً ، كما لو ان تقهقر الطاعون احدث تقهقراً في كل شيء . وفي الوقت نفسه غمر التفاؤل اولئك الذين كانوا يعيشون من قبلُ جماعات فاضطرتهم الحمى الى

الانفصال ، وبدأت اعادة تنظيم ديريْ المدينة . واستؤنفت الطقوس الدينية . وكذلك كان شأن الرجال العسكريين الذين جُمعوا من جديد في الثكنات التي كانت لاتزال فارغة ، فعادوا الى حياة جندية طبيعية ، ولا ريب في ان هذه الوقائع الصغيرة كانت لها دلالتها الكبيرة .

وقد عاش الناس في هذه الحركة الخفية حتى الخامس والعشرين من كانون الثاني . وفي هذا الاسبوع هبطت الارقام هبوطاً عظمياً ، حتى ان الولاية اعلنت بعد استشارة المجلس الطبي بان الوباء يمكن اعتباره قد زال . وقد اضاف البلاغ الى ذلك بان ابواب المدينة ستظل مقفلة اسبوعين آخرين ، وان التدابير الوقائية قائمة مدة شهر ، وذلك حيطة وحذراً لا بدّ أن يُقرّها الناس . وخلال هذه الحقبة ، عند أدنى إشارة بأن الوباء يمكن ان يعود ، « لا بدّ من ان يُحافظ على « الوضع القائم » والتدابير المعروفة » .

بيد ان السكان اجمعوا على اعتبار هذه الاضافات شروطاً شكلية ، بدليل ان المدينة امتلأت في مساء الخامس والعشرين من كانون الثاني بحيوية فرحة وجذل عام شاركت فيه الولاية بان أمرت باعادة الاضاءة كما كانت في عهد الصحة . فكان مواطنونا يتدفقون صاخبين ضاحكين الى الشوارع المضاءة تحت سماء باردة نقية .

صحيح أن مصاريع كثير من البيوت ظلت مقفلة ، وأن عدداً من الأسر أمضت في الصمت تلك الليلة التي ملأتها أسرٌ اخرى بالصراخ . ومع ذلك فان العزاء كان عميقاً في نفوس كثيرين من هؤلأ الاشخاص الذين كانوا يحدّون على موتاهم ، إما لأن خوفهم من ان يفقدوا أقرباء آخرين كان قد هدأ ، وإما لأن شعور الحفاظ على انفسهم كفّ عن ان يكون في خطر . ولكن الأسر التي ظلت غريبة على هذه الفرحة العامة كانت ، دون نزاع ، هي تلك التي كان لديها ، في ذلك الوقت ، مريض يصارع الطاعون في مستشفى ، والتي كانت في المحاجر او في بيوتها تترقب ان يتخلى عنها الوباء

حقاً ، كما تخلى عن سواها . كانت تلك الأسر تحتفظ دون شك بالامل ، ولكنها كانت تجعله مؤونة مدّخرة تمتنع عن التزود منها قبل ان يحقّ لها ذلك بالفعل . وهذا الانتظار ، وهذا السهر الصامت اللذان كانا يقومان في منتصف الطريق بين الاحتضار والفرح ، كان يبدو لها اشدّ قسوة ، وسط التهليل العام .

على ان هذه الإستثناءات لم تكن لتحرم الآخرين فرحتهم . صحيح أن الطاعون لم يكن قد انتهى بعد ، وكان عليه ان يبرهن عن ذلك . ولكن الجميع أخذوا يتخيلون ، قبل بضعة اسابيع ، القطر تسير وهي تصفر على سكك لا نهاية لها ، والسفن تمخر البحار المشرقة . وسوف تصبح الافكار غداً أهدأ ، وتولد الشكوك من جديد. اما الآن فان المدينة كلها تهتزّ ، وتترك هذه الأمكنة المغلقة المظلمة الجامدة التي القت فيها من قبل جذورها الحجرية ، واخذت اخيراً تمشي بحملها من الاحياء . وفي ذلك المساء كان تارو وريو ورامبير والآخرون يمشون وسط الجموع ويشعرون هم ايضاً انهم لا يمسون الارض لفرط فرحهم . لقد ظلّ تارو وريو بعد وقت طويل من مغادرتهما الطرق يسمعان هذا الفرح يتبعهما ، وفي اللحظة التي كانا يمرّون فيها أمام نوافذ مغلقة المصاريع ، في ممرات ضيقة ولسبب من تعبهما نفسه ، لم يكونا يستطيعان فصل هذا العذاب الذي كان يمتدّ خلف المصاريع عن الفرح الذي كان يملأ الشوارع على بعد يسير . لقد كان للخلاص الذي يقترب وجه تمتزج فيه الدموع والضحكات .

وتوقف تارو في لحظة تفاقمت فيها الضوضاء قوة وفرحاً ، فرأى طيفاً يجري بخفّة على الرصيف المظلم . انه قطة ، القطة الاولى التي تُرى منذ الربيع . وجمدت لحظات وسط ملتقى الطرق ، مترددة ، ثم لحست رجلها وأمرّتها سريعاً على أُذنها اليمنى ، ثم استعادت جريها الصامت واختفت في الليل . وابتسم تارو . سيكون العجوز القصير مسروراً هو ايضاً .

ولكن في اللحظة التي كان الطاعون يعود فيها الى حجره المجهول الذي خرج منه صامتاً ، كان في المدينة واحدٌ على الاقل يقذفه هذا الرحيل في وجوم شديد . انه كوتار ، على ما تقول مذكرات تارو .

والحق يقال ان المذكرات غدت غريبة ، بما فيه الكفاية ، منذ ان بدأت الارقام تهبط . لقد اصبح الخط فيها عسير القراءة ، وكانت تقفز غالباً من موضوع الى آخر ، ولعل ذلك بسبب من التعب . ثم ان هذه المذكرات خلت للمرة الاولى من طابع التجرّد ، وأحلّت محله اعتبارات شخصية . من ذلك هذا التقرير الصغير عن العجوز صديق القطط الذي نجده وسط مقاطع طويلة تتعلق بكوتار. وفيه يقول تارو ان الطاعون لم يُنقص قط من اعتباره لهذه الشخص الذي كان يستأثر باهتمامه بعد الوباء كما استأثر باهتمامه قبله ، كما كفّ مع الأسف عن ان يهمه ، بالرغم من ان حسن التفاته ، هو تارو ، لم يكن مشكوكاً فيه. ذلك انه قد سعى الى رؤيته. وبعدمرور بضعة ايام على تلك الامسية ، امسية ٢٥ كانون الثاني ، وقف في زاوية من الشارع الصغير ، وكانت القطط هناك تتدفأ في حرارة الشمس ، امينةً على الموعد . ولكن المصاريع ظلت في الساعة المعتادة مقفلة بعناد . وفي الايام التالية ، لم يرها تارو مفتوحة قط ، فاستنتج من ذلك ان الشيخ الصغير قد مات او انه مغتاظ . فاذا كان مغتاظاً فذلك يعني انه كان موقناً بأنه على حق ، وان الطاعون قد آذاه ، ولكن ان كان قد مات ، فينبغي ان يتساءل هل كان قديساً ، كما قام التساؤل بشأن العجوز المبهور . ولم يكن تارو يعتقد ذلك ، ولكن يظن ان في حالة الشيخ « دلالة » .

وفي ذلك تلاحظ المذكرات : « ربمـــا لم يكن بالامكان الوصول الا الى تقريبات بشأن القداسة . ففي هـــذه الحالة ، ينبغي الاكتفاء « بشيطانية » متواضعة محسنة » .

وكان في المذكرات كذلك ملاحظات عـــديدة متفرقة غالباً ممزوجة بآراء تتعلق بكوتار ، وبعضها يمتّ الى غران ، وقد نَقَـهَ الآن واستعاد عمله كما لو ان شيئاً لم يحدث ، وبعضها الآخر يتحدّث عن ام ريو. فقد كانت الاحاديث التي اتاحتها سكني تارو وأمّ ريو وتصرفات هذه المرأة العجوز ، وابتسامتها وملاحظتها على الطاعون، كل ذلك كان مسجّلاً بدقة .وكان تارو يلح خصوصاً في وصف زهد مدام ريو ، وطريقتها في ان تعبّر عن كل شيء بابسط العبارات ، وما كانت تظهره من تعلق خاص بنافذة تطل على الشارع الهادىء، كانت تجلس خلفها كل مساء، مستقيمة بعض الشيء، ساكنة اليدين، متنبهة النظر حتى يغمر الشفق القاعة، جاعلاً منها طيفاً اسود في الضياء الأشهب الذي كان يسودّ شيئاً فشيئاً حتى يذيب الشبح الجامد .كما كان يتحدث عن خفتها في التنقل بين غرفة واخرى ، وعن طيبتها التي لم تعطِ براهين دقيقة عنها امام تارو ، وان كان يستشفها من خلال ماكانت تعمله او تقوله ، واخيراً عن تلك الميزة التي كانت تنعم بها : كانت تعرف كل شيء دون ان تفكر قط ، وكان بوسعها ان تجاري بذلك القدر الغظيم من السكوت والظلّ أي ضياء ، ولو كان ضياء الطاعون . وهنا كان خطّ تارو ينمّ عن دلالات التواء عجيبة . فقد كانت السطور التالية عسيرة القراءة ، وكانت الكلمات الاخيرة هي الاولى التي تحمل طابعاً شخصياً ، كما لو انها شاءت ان تعطي دليلاً آخر على الالتواء « كذلك كانت امي ، كنت احبّ فيها الامحاء نفسه ، وهي التي كنت اودّ دائماً ان ألحق بها . منذ ثمانية اعوام ، لم اكن استطيع ان اقول انها قد ماتت ، وانما هي امحت اكثر من العادة ، وحين

عدت لم تكن هناك بعد » .

ولكن آن الحديث عن كوتار . فمنذ بدأت الارقام تنخفض ، زار ريو عدة مرات ملتمساً مختلف المعاذير . ولكنه في الحق كان يطلب كل مرة تشخيصات عن سير الوباء. «اتظن انه قد يقف هكذا فجأة دون سابق انذار ؟» وكان على شك من هذه النقطة او كان على الاقل يظهر ذلك . ولكن الأسئلة المتجدّدة التي كان يطرحها كانت تشير ، على ما يبدو ، الى اعتقاد اقلّ قوة وثباتاً . وعند منتصف كانون الثاني ، اجابه ريو بطريقة متفائلة، وبدلاً من ان تسر هذه الاجوبة كوتار ، كانت تنتزع منه كل مرة ارجاعاً مختلفة وفق الايام تُراوح على كل حال بين المزاج السيء والإحباط. ورأى الطبيب نفسه مدعواً بعد ذلك الى ان يقول له بان من الافضل ، بالرغم من ان دلائل الاحصاءات كانت مطمئنة ، الا يُنادي بالنصر بعد .

فقال كوتار ملاحظاً :

ـ تقصد ان تقول اننا لا نعرف شيئاً ، فقد يعود الوباء بين يوم وآخر ؟

ـ نعم ، كما ان من الممكن ان تسرع حركة الشفاء .

هذا الشاك الذي كان يقلق جميع الناس ، كان يؤاسي كوتار بصورة ظاهرة ، وقد عقد امام تارو احاديث طويلة مع تجار حيّه كان يحاول ان يذيع فيها آراء ريو . ولم يجد في ذلك كبير مشقة ، ذلك ان الريبة عادت الى بعض الاذهان ، بعد حمّى الانتصارات الاولى ، وظلت قائمة حتى بعد الهيجان الذي احدثه بيان الولاية . وكان كوتار يجد الاطمئنان امام مشهد هذا القلق ، كما كان يجد التثبيط أحياناً اخرى . وقد قال لتارو : « نعم ، سيفتحون الابواب آخر الأمر ، وسترى أنهم سيتخلّون جميعهم عني ! »

وقد لاحظ جميع الناس ، حتى ٢٥ كانون الاول ، اضطرابه وتبدّل مزاجه . فبينما كان يقضي اياماً بطولها وهو يحاول ان يتصالح مع حيّه

ومعارفه ، اذا به فجأة يقاطعهم ، فينسحب اذ ذاك من العالم ، في الظاهر على الاقل ، ويأخذ يعيش عيشة وحشية متوحدة بين ليلة وضحاها . فلا يُرى بعدُ في المطعم ولا في المسرح ولا في المقاهي التي كان يحبها . ومع ذلك ، فلم يَبْدُ انه كان يستعيد الحياة المتحفّظة الغامضة التي كان يعيشها قبل الوباء. كان يعيش منعزلاً تماماً في شقته ويستقدم طعامه من مطعم مجاور . وفي المساء فقط كان يخرج بصورة خاطفة ، مبتاعاً ما كان بحاجة اليه ، خارجاً من الحوانيت ليدلف في شوارع موحشة . فاذا اتفق لتارّو ان يلتقي به، عجز عن ان ينتزع منه الا تمتمات . ثم كان يجده الناس قد أصبح ، دون ما فترة انتقال ،انساناً اجتماعياً ، يتحدث عن الطاعون فيفيض ، ويسأل كلاً رأيه ، ويغرق من جديد ، اذا حان المساء ، في أمواج الجموع .

ويوم إذاعة بيان الولاية ، اختفى كوتار تماماً . وبعد يومين التقى به تارو تائهاً في الشوارع ، فسأله كوتار ان يصطحبه حتى الضاحية ، ولكن تارو تردّد بسبب من تعب شديد اصابه في يومه ذاك . غير ان الآخر ألحّ، وكان يبدو شديد الانفعال ، يأتي حركات غير منتظمة ويتحدث سريعاً وبصوت مرتفع . وسأل صاحبه ان كان يعتقد حقاً ان بيان الولاية يضع حدّاً للطاعون . وبالطبع كان تارو يعتقد ان تصريحاً حكومياً لم يكن كافياً بذاته لوقف وباء،ولكن كان بالإمكان التفكير تفكيراً معقولاً بان الحمّى على وشك الزوال ، الا اذا حدث ما لم يكن متوقعاً . فقال كوتار :

– نعم ، الا اذا حدث ما لم يكن متوقعاً . وهناك دائماً ما لا يتوقع .

فنبهه تارو الى ان الولاية كانت قد توقعت ، بشكل ما ، ما لم يكن متوقعاً ، اذ ارجأت فتح الابواب اسبوعين . فقال كوتار وهو ما زال على انفعاله وحزنه :

– ونعم ما فعلت ، لأنها توشك ان تكون قد تكلّمت هباءً ،اذا نظرنا

الى سير الاشياء على ما هو عليه الآن .

وقد أجاب تارو بأن الامر ممكن ، ولكنه كان يرى مع ذلك وجوب مواجهة فتح الابواب قريباً والعودة الى الحياة الطبيعية . وقال له كوتار :

– لنقرّ ذلك فرضاً ، ولكن ماذا تعني بالحياة الطبيعية ؟

فابتسم تارو وقال – : افلام جديدة في السينما .

ولكن كوتار لم يبتسم . كان يريد ان يعرف اذا كان ممكناً التفكير بان الطاعون لن يغير شيئاً في المدينة ، وان كل شيء سيعود كما كان من قبل، اي كما لو ان شيئاً لم يحدث . وكان تارو يعتقد ان الطاعون سيغيّر المدينة ولا يغيرها ، وان اقوى رغبة من رغبات مواطنينا هي بالطبع ان يعملوا كما لوأن شيئاً لم يحدث ، ومن ثم ، فان شيئاً لم يتغير من ناحية ، ولكن ليس بالامكان من ناحية اخرى نسيان كل شيء ، حتى بالارادة الضرورية ، فلا بدّ للطاعون من ان يخلّف آثاره ، في القلوب على الأقل . وصرح الملاّك الصغير بأن القلب لا يهمه ، وانه كان آخر ما يهمّ به . إن ما كان يعنيه ، هو ان يعرف اذا كان النظام نفسه لن يتغير ، واذا كانت جميع الدوائر مثلاً ستسير كما في السابق . فكان على تارو ان يقرّ بأنه لا يعرف من ذلك شيئاً . كان يجب ، في رأيه ، الافتراض بان جميع هذه الدوائر ، التي اختل نظامها في اثناء الطاعون ، ستجد بعض المشقة في السير من جديد . ومن الممكن الاعتقاد كذلك أن كميات من المشكلات الجديدة ستطرح ، فتجعل من الضروري على الاقل تنظيم الدوائر القديمة تنظيماً جديداً . وقال كوتار :

– آه . هذا ممكن في الحق . إن على الناس جميعاً ان يبدأوا من جديد .

وكان المتنزهان قد بلغا بيت كوتار ، وكان هذا قد انتعش ونزع الى التفاؤل ، وراح يتمثل المدينة وقد استعادت حياتها ، ماحية ماضيها لتنطلق من الصفر من جديد . وقال تارو :

– حسناً . لعلّ الامور تصلح بالنسبة اليك ايضاً . انها، بشكل ما ، حياة جديدة تبدأ .

وكانا امام الباب ، فشدّ كل منهما على يد الآخر ، وقال كوتار وقد ازداد انفعاله :

– انك على حق . الانطلاق من الصفر من جديد سيكون أمراً جيّداً .

ولكن سرعان ما انبثق من ظلام الرواق رجلان . وكاد تارو لا يسمع صاحبه يسأل عما عسى هذان الطيران يريدان . والواقع أن هذين الطايرين ، اللذين كانا يرتديان ثياب الأحد، قد سألا كوتار اذا كان يدعى حقاً كوتار ، فاذا هذا الأخير يطلق صيحة غريبة ثم يستدير فجأة على نفسه ويغرق في الليل دون ان يتاح للآخرين ، ولا لتارو ، ان يأتوا بأية حركة . حتى اذا ذهبت الفجاءة ، سأل تارو الرجلين ماذا يبغيان ، فقالا باهجة متأدبة متحفظة بأنهما يطلبان بعض المعلومات ، ثم مضيا في الاتجاه الذي أخذه كوتار دون ان يلويا .

وما ان دخل تارو بيته ، حتى سجل هذه الحادثة ، ثم نوّه بتعبه ، وكان الخط ينم عن ذلك بما فيه الكفاية. وأضاف بأن عليه بعدُ اعمالاً كثيرة، وان هذا، مع ذلك، لا يبرّر الا يستعدّ المرء، وتساءل عما اذا كان حقاً مستعدّاً . وكان جوابه الذي تنتهي به مذكراته ، ان هناك دائماً ساعة من الليل او النهار يكون المرء فيها جباناً ، وانه لم يكن يخاف الا هذه الساعة .

وعاد الدكتور ريو الى بيته في مساء اليوم التالي، اي قبل بضعة أيام من فتح الابواب ، وهو يتساءل عما اذا كان سيجد البرقية التي كان ينتظرها . وبالرغم من ان تلك الأيام كانت في مثل إرهاق ايام الطاعون وهو في إبانه، فان ترقب التحرير النهائي قد أزال كل ما كان يشعر به من تعب . انه الآن يأمل ، وانه بذلك لسعيد. فليس بالامكان دائماً ان يوتّر الانسان ارادته ولا ان يتصلّب دائماً، وانه لمن السعادة ان يحل اخيراً هذه الحزمة من القوى التي خفرها من اجل الصراع . فاذا كانت البرقية المنتظرة هي ايضاً مطمئنة ، فان بوسع ريو ان يبدأ من جديد صراع ، وكان رأيه ان يبدأ الناس جميعهم من جديد .

وألمّ بحجرة البواب . فاذا البواب الجديد ملتصق بالزجاج يبسم له . واذ صعد ريو السلّم ، كانت صورة البواب ، وقد اصفر وجهه لفرط التعب والحرمان ، لا تزال في مخيلته .

اجل ، سيستأنف من جديد حين ينتهي التجريد ، وبقليل من الحظ . . . ولكنه فتح الباب في اللحظة نفسها ، فأقبلت امه للقائه وانبأته ان حالة السيد تارو سيئة، فقد نهض صباحاً ، ولكنه لم يستطع الخروج فعاد الى سريره . وهذا ما اقلق السيدة ريو . ولكن ابنها قال لها :

ـ قد لا يكون الامر ذا بال .

وكان تارو متمدداً على طوله ، وكان رأسه الثقيل يحفر الوسادة ، وصدره العارم يرتسم تحت كثافة اللحاف . وكانت به حمى، وكان رأسه

يصدعه . وقال لريو إنها عوارض غامضة ربما كانت عوارض الطاعون أيضاً . وبعد ان فحصه الطبيب قال :

– كلا ، ليس من شيء واضح بعد .

ولكن العطش كان يلتهم تارّو . وفي الرواق، قال الطبيب لأمه ان هذا قد يكون بدء الطاعون . فنبرت تقول :

– اوه . . . هذا ليس ممكناً الآن !

ثم اضافت على التوّ :

– لنحتفظ به يا برنار .

فجعل ريو يفكر ثم قال :

– لا يحق لي ذلك . ولكن الابواب ستفتح عما قريب . وأحسب أن هذا هو اول حق كنت آخذه لنفسي لو لم تكوني هنا .

قالت :– احتفظ بنا يا برنار، نحن الاثنين . انت تعلم اني قد لُقِّحت مرة اخرى .

فقال الطبيب ان تارو قد لُقح هو ايضاً ، ولكنه ربما ادى به التعب الى اهمال آخر حقنة من المصل ونسيان بعض الاحتياطات .

ودخل ريو الى مكتبه ، واذ عاد الى الحجرة ، رأى تارو انه كان يحمل قناني كبيرة من المصل فقال :

– انه الطاعون اذن !

– كلا . . . وانما أعمد الى ذلك على سبيل الاحطياط .

فكان جواب تارو ان مد ذراعه وخضع للحقنة التي لا تنتهي والتي كان

هو نفسه قد مارسها على سواه من المرضى . وقال ريو وهو ينظر الى وجه تارو :

ـ سنرى هذا المساء .

ـ والعزل، يا ريو ؟

ـ ليس مؤكداً على الاطلاق انك مصاب بالطاعون .

فجهد تارو في الابتسام .

ـ انها المرة الاولى التي أرى فيها من يُحقن بالمصل ولا يُؤمر بالعزل .

فانفتل ريو :

ـ سنعنى بك ، امي وانا . وخير لك ان تبقى هنا .

فصمت تارو ، وجعل الطبيب ، فيما هو يصفّ القناني ، ينتظر ان يتكلم ليعود الى الالتفات . وتوجه اخيراً الى السرير ، وكان المريض ينظر اليه بوجه تعب ولكن بعينين رماديتين هادئتين . وابتسم له ريو .

ـ نم ان استطعت . اني عائدٌ اليك عما قليل .

وحين بلغ الباب سمع صوت تارو يناديه . فانفتل اليه . ولكن تارو كان على ما يظهر يقاوم التعبير عما كان يود قوله . . . وتمتم اخيراً :

ـ ريو . . . يجب ان تقول لي كل شيء . انني بحاجة الى ذلك .

ـ أعِدُك بذلك .

فكسا الآخر وجهه الكثيف ببسمة :

ـ شكراً . ليست بي رغبةٌ في الموت ، وسأصارع . ولكن اذا خسرت المعركة ، فأود ان انتهي نهاية شريفة .

فانحنى ريو وضغط على كتفه وقال :

ـ لا . ان على من يريد ان يكون قديساً ان يعيش . صارع .

وفي اثناء النهار خفّت حدّة البرد قليلاً ، ولكنها خلّفت بعد الظهر وابلاً من المطر والبَرَد . وعند الشفق انقشعت السماء قليلاً فاصبح البرْد اشد نفاذاً . وعاد ريو الى بيته عند المساء ، فدخل غرفة صديقه دون ان يخلع سترته . وكانت امه تسرد . وبدا كأن تارو لم يغير وضعه قط ، ولكن شفتيه المبيضّتين بالحمى كانتا تترجمان عن الصراع الذي كان يعانيه . وقال الطبيب :

— واذن ؟

فهز تارو كتفيه العريضتين قليلاً خارج السرير وقال :

— واذن فاني أخسر المعركة .

فانحنى الطبيب فوقه . فاذا دمامل قد انعقدت تحت الجلد اللاهب ، واذا صدره وكأنه يُصدي بجميع اصوات مصهرٍ حديدي تحت الارض . كانت تظهر على تارو بشكل غريب سلسلتا العوارض . وقال ريو وهو ينهض ان المصل لم يُتَح له بَعْدُ ان يؤتي كل جدواه . ولكن موجة من حمى اغرقت حلق تارو اذ حاول ان ينطق بضع كلمات .

وبعد العشاء ، أقبل ريو وأمه يجلسان بالقرب من المريض . وقد بدأ ليله في الصراع ، وكان ريو يعلم أن هذه المعركة القاسية مع ملاك الطاعون قائمة حتى الفجر . ولم تكن كتفا تارو العريضتان وصدره الواسع خير سلاحه ، بل هذا الدم الذي جعله ريو يتفجر منذ حين تحت إبرته ، وما كان في هذا الدم مما هو أعمق من الروح وما كان كل علم يعجز عن إظهاره . وكان عليه هو فقط ان ينظر الى صديقه وهو يصارع . ان ما سيعمله ، من شق الدمامل وحقن الادوية المقوية ، اتاحت له بضعة اشهر من الاخفاق المكرر ان يقدُر جدواها . والحق ان مهمته الوحيدة كانت في ان يتيح الفرص لهذا القدر الذي لا يتحرك غالباً إلاّ اذا اثير . وكان ينبغي للقدر ان يتحرك . ذلك ان ريو كان يجد نفسه أمام وجه للطاعون كان يقلقه . وهكذا جهد الطاعون مرة اخرى

في ان يضلل الخطط التي نُصِبَتْ ضده ، فظهر في امكنة لم يكن منتَظراً فيها ليختفي من أمكنة كان يبدو انه مقيم فيها منذ حين . مرة اخرى ، كان يجهد في ان يثير الدهشة .

وكان تارّو يصارع بلا حراك . وهو طوال الليل لم يجابه هجمات المرض بأي ردّ فعل ، وكان قصاراه ان يقاتل بصمته وكثافته . ثم إنه لم يتكلم مرة واحدة كذلك ، معترفاً هكذا ، على طريقته ، بأن الشرود بات غير ممكن عنده . وكان ريو يتابع مراحل القتال في عيني صديقه ، المفتوحتين تارة ، المغلقتين تارة اخرى ، وجفناهما يشتدان حيناً على كرة العين وحيناً آخر ينبسطان ، ونظرهما محدّد في شيء من الأشياء او مرتدّ الى الطبيب وأمه . وكلما كان الطبيب يُلاقي هذا المنظر ، كان تارّو يبذل جهداً كبيراً ليبتسم .

وذات لحظة ، سُمع وقع أقدام مسرعة في الشارع ، كأنها تفر أمام هدير متباعد جعل يقترب شيئاً فشيئاً ، حتى ملأ الشارع بتدفقه : لقد عاد المطر الى الهطول ممتزجاً ببرَد كان يصفق الارصفة. وتموجت البُسط الكبيرة امام النوافذ ، وكان ريو في ظلام الغرفة قد صرف المطر ذهنَه قليلاً ، فعاد ينظر الى تارّو وقد انعكس عليه ضوء السرير . وكانت امه تسرد ، رافعةً رأسها بين الفينة والفينة لتنظر الى المريض باهتمام . وكان الطبيب قد قام حتى الآن بكل ما كان عليه ان يقوم به. وبعد المطر ، تكاثف الصمت في الغرفة ممتلئاً بصخب اصمّ لحرب لا تُرى . وخيل للطبيب ، وقد تشنج بالارق ، انه يسمع عَبْرَ الصمت ذلك الصفير الرقيق المنتظم الذي رافقه طوال مدة الوباء . وأومأ الى أمه يدعوها الى ان تنام ، فهزّت برأسها رفضاً ، وشعّت عيناها ، ثم جعلت تتفحص عند طرف صنارتيها عقدةً لم تكن واثقة منها . ونهض ريو ليسقي المريض ، ثم عاد الى مجلسه .

وانتهز بعض المارة هدأة المطر ، فأخذوا يحثون خطاهم على الرصيف . وكانت خطواتهم تتباعد ويخف صوتها . واعترف الطبيب للمرة الأولى ان تلك

الليلة التي تكاثر فيها المتنزهون المتأخّرون والتي حُرمت من أجراس سيارات الإسعاف ، كانت شبيهة بالليالي الماضية . كانت ليلة متحررة من الطاعون ، وخيل اليه ان المرض الذي طرده البرد والانوار والجموع قد أفلت من أعماق المدينة المظلمة ، والتجأ الى هذه الغرفة الحارة ليقوم بهجومه الأخير على جسم تارّو الساكن . ولم يكن الوباء يخالط بعدُ سماء المدينة ، ولكنه كان يصفر برقة في جو الغرفة الثقيل . وهذا الصفير هو الذي كان يسمعه ريو منذ ساعات . وكان لا بد له من ان ينتظر ان يتوقف الوباء هنا ، وان يعترف الطاعون هنا ايضاً بانه قد هُزم .

وقبيل الفجر ، مال ريو على أمه :

– ينبغي لكِ ان تنامي لتستطيعي ان تحلّي محلي في الساعة الثامنة . اقطري لنفسك قبل ان تنامي .

ونهضت مدام ريو وتوجهت الى السرير بعد ان نحت صوفها جانباً . وكان تارو مغمضاً عينيه منذ حين ، وكان العرق يعقد شعره على جبينه . وزفرت مدام ريو ففتح المريض عينيه ، فرأى الوجه الرقيق مائلاً عليه ، فاذا بسمته المجهدة تظهر مرة اخرى تحت امواج الحمى المتحركة . ولكن ما لبثت العينان ان أُغلقتا . وقام ريو ، وقد أضحى وحده ، فجلس على المقعد الذي غادرته امه . وكان الطريق قد خرس ، فساد السكون ، وبدأ بَرد الصباح ينفذ الى القاعة .

وهوّم النوم على الطبيب ، ولكن اول مركبة من مركبات الفجر أيقظته ، فارتعش ونظر الى تارو فأدرك ان هدأةً قد استولت عليه فنام هو ايضاً . وكانت عجلات المركبة الخشبية الحديدية لا تزال تجري بعيداً ، وكان النهار عند النافذة اسودَ بعد . وحين دنا الطبيب من السرير نظر اليه تارو بعينين لا تعبير فيهما ، كما لو انه ما زال في عالم النوم . فسأله ريو :

– لقد نمت ، أليس كذلك ؟

– نعم .

– وهل تتنفس خيراً من ذي قبل ؟

– بعض الشيء . هل يعني هذا شيئاً ؟

فصمت ريو ، وبعد لحظة قال :

– لا يا تارو . ان هذا لا يعني شيئاً . فانت تعرف مثلي الهدأة الصباحية .

فأقرّه تارو ثم قال :

– شكراً ، أجبني دائماً بصدق .

وكان ريو قد جلس عند أسفل السرير ، فشعر بساقي المريض طويلتين قاسيتين كأنهما اطراف ميت . وكان تارو يتنفس بحظ اكبر من القوة . ثم قال بصوت مختنق :

– ستعود الحمّى ، أليس كذلك يا ريو ؟

– نعم ، ولكننا سنتثبّت عند الظهر .

فأغمض تارو عينيه ، كأنما يستجمع قواه . وكانت تقرأ على تقاسيمه سيماء تعب . كان ينتظر صعود الحمّى التي كانت تتحرك في مكان ما من اعماقه . وحين فتح عينيه ، كانت نظرته كامدة ، ولم تُشعّ الاّ حين رأى ريو منحنياً فوقه يقول له :

– اشرب .

فشرب الآخر ، وترك رأسه يسقط من جديد وهو يقول :

– كم انّ هذا طويل !

فتناول ريو ذراعه ، ولكن تارو ظلّ جامداً منصرف البصر . وفجأة تموّجت الحمّى حتى جبينه، كما لو أنها حطمت سداً داخلياً. وحين عاد نظر تارو الى الطبيب ، أخذ هذا يشجعه بوجهه المتوتّر . وحاول تارو ان يرسم بسمة اخرى، ولكنها لم تستطع ان تتعدى فكيْه المشدودين وشفتيه الملتحمتين بزبد مبيضّ. ولكن العينين ظلتا في الوجه المتوتر تشعّان باشعاع الشجاعة كلّه.

وفي الساعة السابعة ، دخلت مدام ريو الحجرة ، فمضى الطبيب الى مكتبه ليخابر المستشفى ويطلب من يحلّ في ذلك اليوم محله . وقد عزم كذلك على تأجيل استشاراته وتمدّد برهة على ديوان مكتبه، ولكنه سرعان ما نهض وعاد الى الغرفة . وكان تارو لافتاً رأسه الى مدام ريو ، ينظر الى الطيف الصغير المتراكم بالقرب منه ، على كرسي ، معقود اليدين على الفخذين . وكان يتأملها بقوة وإحداد حتى ان مدام ريو وضعت إصبعاً على شفتيها ثم نهضت لتطفيء مصباح السرير. ولكن النهار كان يتسرب سريعاً عبر الستائر ، وخرجت قسمات المريض من الظلام، فلاحظت مدام ريو أنه ما زال ينظر اليها . فمالت عليه ، وسوّت وسادته ، وحين استقامت وضعت يدها لحظة على الشعر المبلل المعقود . فسمعت اذ ذاك صوتاً بعيداً يشكرها ويقول لها إن كل شيء هو الآن على مايرام . وحين عادت الى مجلسها ، كان تارو قد أغمض عينيه ، وبدا ان وجهه المجهد عاد بالرغم من الفم المشدود يبتسم .

وعند الظهر ، بلغت الحمى ذروتها . وكان نوع من السعال الاحشائي يهزّ جسم المريض الذي بدأ اذ ذاك يبصق دماً . وكانت الغدد قد كفّت عن الانتفاخ ،وكانت لا تزال هناك قاسية كأنها الحلزون، مشدودة في جوف المفاصل،وقد رأى ريو ان شقّها مستحيل. وفي فترات الحمى والسعال، كان تارو لاينفكّ ينظر الى صديقيه بين الفينة والأخرى.ولكن عينيه كانتا تزدادان انغلاقاً ، فيشتد بهوت الضياء الذي كان يضيء وجهه . وكانت العاصفة التي تهزّ هذا الجسم بانتفاضات متشنجة ترُسل اليه شعاعات تقلّ شيئاً فشيئاً ، فينهار تارو رويداً رويداً في اعماق هذه الزوبعة . ولم يكن امام ريو بعدُ

الا قناع جامد انطفأت عليه البسمة. هذا الشكل الانساني الذي كان شديد القرب اليه ، تثقبه الآن ضربات الحَرْبات ، ويحرقه ألم فوق طاقة الانسان ، وتهزّه جميع رياح البغض السماوية ، فيغرق تحت ناظريه في مياه الطاعون ، ولا يجد أية حيلة لمدافعة غرقه. كان عليه ان يظل على الشاطيء، فارغ اليدين، مهتز القلب بدون أسلحة ولا استنجاد ضد هذه الكارثة . وكان لا بدّ اخيراً لدموع العجز من ان تسيل فتمنع ريو من رؤية تارو وهو ينقلب فجأة الى الجدار ، ويلفظ انفاسه في شكوى جوفاء، كما لو ان حبلاً رئيسياً قد انقطع في مكان ما من جسمه .

ولم تكن الليلة التالية ليلة الصراع ، وانما كانت ليلة الصمت. ففي هذه الغرفة المنعزلة عن العالم، وفوق هذا الجسم الميت الذي لا يزال يحتفظ بلباسه ، شعر ريو بالهدوء الغريب الذي سبق له في ليالٍ كثيرة ماضية ان تبع الهجمات على الابواب ، عند السطائح فوق الطاعون . في ذلك العهد، بدأ يفكر بهذا الصمت الذي كان يرتفع من الأسرّة التي ترك فيها اناساً يموتون . لقد كان دائماً تلك الهدأة نفسها ، تلك الفترة الخالدة ذاتها ، تلك السكينة التي تعقب المعارك ، كان صمت الهزيمة . اما هذا الصمت الذي يكفن الآن صديقه ، فقد كان من شدة الالتحام، وكان من شدّة الانطباق مع صمت شوارع المدينة المحرّرة من الطاعون ، حتى ان ريو كان يشعر شعوراً قوياً بان الأمر ، هذه المرة، هو أمر الهزيمة النهائية، الهزيمة التي تنهي الحروب وتجعل من السلام نفسه عذاباً لا شفاء منه . ولم يكن الطبيب يعرف اخيراً ما اذا كان تارو قد لقي السلام ، ولكنه كان يعتقد، في تلك اللحظة على الاقل، انه لن يكون له هو نفسه بعد الآن اي سلام ممكن، كما انه لاهدنة لأمّ ثكلتْ ولدها ، او لرجل كفن صديقه .

وفي الخارج ، كان الليل البارد نفسه ، والنجوم المتجمدة في سماء صافية مثلوجة . وفي الغرفة المظلمة نصف ظلام ، كان البرد يثقل على الزجاج

كأنما هو انفاس ليلة قطبية . وكانت مدام ريو جالسة بالقرب من السرير جلستها العائلية وقد اضاء جانبها الايمن نور مصباح السرير. وفي وسط القاعة، كان ريو بعيداً عن النور يترقب في مقعده . وكانت تراوده فكرة زوجته ، ولكنه كان يُبعدها كل مرة .

وعند مطلع الليل ، كانت أعقاب المارّة تصفق الطريق في الليل البارد ، وكانت مدام ريو قد قالت :

– هل دبرت كل شيء ؟

– نعم . لقد تلفنت .

ثم استأنفا سهرتهما الصامتة : وكانت مدام ريو تتطلع الى ابنها الفينة بعد الفينة ، وكان هو يبتسم كلما كان يفجأ احدى هذه النظرات . وكانت اصوات الليل المألوفة تتعاقب في الشارع. وبالرغم من ان الاذن لم يكن قد صدر بعد،فقد كانت كثير من السيارات تجري في الطريق . وكانت تمتص الأرصفة بسرعة ثم تختفي وتظهر بعد ذلك . وكانت اصوات ترتفع ، ونداءات ، ويعود السكون ، ثم وقع خطى حصان ، وتراماان يئنّان عند منعطف ، وضجيج لا يبين . ثم انفاس الليل من جديد .

– برنار ؟

– نعم .

– ألست تعباً ؟

– لا .

وكان يعرف ما كانت تفكر به أمه لحظتذاك وانها تحبه . ولكنه كان يعرف كذلك انه ليس أمراً كبيراً ان يحبّ احدنا كائناً، او ان حباً ما على الأقل تنقصه دائماً القوة ليجد التعبير الذاتي عن نفسه . وهكذا سيظل هو وامه

يتحابّان دائماً في الصمت . وسوف تموت بدورها ، او هو ، دون ان يتمكنا طوال حياتهما من ان يمضيا الى ابعد من ذلك في البوْح بحنانهما. بالطريقة نفسها كان قد عاش بالقرب من تارو ، وقد مات تارو ذلك المساء دون ان يتاح لصداقتهما حقاً ان تُعاش. لقد خسر تارو المعركة كما كان يقول ، ولكن هو ، ريو ، ماذا تُراه قد ربح ؟ لقد ربح فقط انه عرف الطاعون وانه يتذكره ، أنه عرف الصداقة وأنه يتذكرها وانه عرف الحنان وانه لا بدّ ان يتذكره يوماً . إنّ كل ما يستطيع الانسان ان يربحه في معركة الطاعون والحياة هو المعرفة والتذكر . ولعلّ هذا هو ما كان تارو يعنيه بربح المعركة .

ومن جديد مرّت سيارة ، فتحركت مدام ريو قليلاً على كرسيها . وابتسم لها ريو . وقالت له انها لم تكن تعبة ثم أضافت :

– ينبغي لك ان تذهب فتستريح هناك في الجبل .

– طبعاً يا امي .

نعم ، سيستريح هناك . ولمَ لا ؟ سيكون ذلك ذريعة للتذكّر . ولكن ان كان هذا هو ربح المعركة ، فما اقسى ان يعيش الانسان فقط مع ما يعرف وما يتذكر ، محروماً مما يرجو ويأمل ! لا ريب ان تارو قد عاش كذلك ، وكان مدركاً عقم حياةٍ لا أوهام فيها ولا آمال . ليس هناك من سلام دون أمل ، وإن تارو الذي كان ينكر على الناس حق إصدار الحكم على احد ، والذي كان يعرف مع ذلك انّ احداً لم يكن يملك الامتناع عن اصدار الحكم على سواه ، وان الضحايا ربما كانوا احياناً هم الجلادين ، إن تارو هذا قد عاش في التناقض والتمزّق ، انه لم يعرف الأمل قط . أتراه من اجل هذا كان يلتمس ان يكون قديساً ، وكان يبحث عن السلام في خدمة الناس ؟ ان ريو لا يعرف في الحق شيئاً من ذلك . وكان هذا قليل الاهمية . انه سيحتفظ من صور تارو بتلك التي تمثل رجلاً يأخذ

مقود سيارته بملء يديه ليقودها ، او بتلك التي تمثل ذلك الجسم الكثيف الممدد الآن بلا حراك . حرارة حياة وصورة موت ، تلك هي المعرفة .

ولا ريب ان هذا هو الذي جعل الدكتور ريو يتلقى في الصباح بهدوء كبير نبأ موت زوجته . كان في مكتبه ، فاقبلت أمه تكاد تعدو حاملةً له برقية ، ثم خرجت لتعطي الساعي حلوانه . وحين عادت ، كان ابنها يُمسك بيده البرقية المفتوحة . فنظرت اليه ، ولكنه كان يتأمل بعناد ، عَبْرَ النافذة ، صباحاً رائعاً ينهض على المرفأ . وقالت مدام ريو .

– برنار !

فتفحصها الطبيب بشرود ..

وسألته :

– البرقية ؟

فقال الطبيب معترفاً :

– ما كنت أتوقعه . منذ ثمانية ايام .

فصرفت مدام ريو نظرها نحو النافذة ، وصمت الطبيب . ثم قال لأمه ألاّ تبكي ، وانه كان يتوقع ذلك ، وان هذا ، بالرغم من كل شيء ، شاقّ . وكان يعلم ، اذ كان يقول ذلك ، ان ألمه لم يكن مفاجئاً . فانه الألم نفسه يستمرّ منذ اشهر ومنذ يومين .

واخيراً فُتحت ابواب المدينة فجر يوم جميل من ايام شباط ، فحيّاها الشعب والصحف والاذاعة وبلاغات الولاية . ويتبقى إذن على الـــراوي ان يؤرخ ساعات الفرح التي تلت فتح هذه الابواب . بالرغم من انه كان هو نفسه من الذين لم تكن لهم حرية التدخل كلياً في الموضوع .

كانت قد اتخذت الاستعدادات لحفلات تقام في النهار والليل . وفي الوقت نفسه ، بدأت القطارات ترسل دخانها في المحطات ، بينما كانت بواخر آتية من البحار البعيدة تلقي مراسيها في مرفأنا ، مسجلة بذلك ان هذا اليوم كان بالنسبة لجميع الذين كانوا يئنون من الفراق يوم اللقاء الكبير .

ومن السهل ان يتصور احدنا هنا ما يمكن ان تصبح عليه عاطفة الفراق التي سكنت في قلوب كثير من مواطنينا . ولم تكن القطارات التي دخلت مدينتنا في أثناء النهار بأقل حملاً من التي خرجت منها . وكان كل انسان قد حجز مقعده لذلك اليوم ، في خلال اسبوعيْ الترقّب ، وكله خشية من ان يلغى قرار الولاية في آخر لحظة . وبعض المسافرين الذين كانوا يقتربون من المدينة لم يكونوا قد تحرروا بعد من خوفهم ، ذلك أنهم إن كانوا يعرفون بصورة عامة مصير الذين كانوا يمسونهم من قرب ، فإنهم يجهلون كل شيء عن الآخرين وعن المدينة نفسها التي كانوا يعيرونها وجهاً مخيفاً . ولكن هذا كـــان يصحّ على الذين لم تكن العاطفة قد أحرقتهم في مدى هذه الفترة كلها .

والحق ان أصحاب الهوى كانوا مستسلمين لفكرتهم الراسخة . وقد تبدّل في نظرهم شيء واحد : إن هذا الزمن الذي كانوا ، في اثناء أشهر نفيهم ، يودّون استعجاله ويتهافتون على الإسراع به ، يتمنّون الآن بالعكس ان يبطىء وان يعلّقوه. ما ان بدأ القطار يستعدّ للوقوف. إن الإحساس بجميع هذه الأشهر الضائعة على حبهم، إحساساً غامضاً وقوياً في وقت واحد في نفوسهم ، كان يجعلهم يتطلبون نوعاً من التعويض كان زمن الفرحة بواسطته ينقضي بابطأ مرتين من زمن الترقب . وإن الذين كانوا ينتظرونهم في غرفة او على الرصيف، كرامبير الذي أُخبرتْ زوجته منذ اسابيع فقامت بما يلزم لتصل في الوقت المعين ، كانوا يستشعرون نفاد الصبر نفسه والاضطراب ذاته . ذلك ان هذا الحب او هـــذا الحنان اللذين أحالتهما أشهر الطاعون الى التجريد ، كان رامبير يترقب بارتعاش ان يقارنهما بكائن اللّحم والدم الذي كان عمادهما .

لقد ودّ لو انه يعود ذلك الشخص الذي كان في اوائل الطاعون يريد أن يعدو دفعة واحدة حتى خارج المدينة ويهرع الى لقاء من كان يحبها. ولكنه كان يعلم ان ذلك بات غير ممكن . لقد تغير ، وقد زوّده الطاعون بشرود كان يجهد بكل قواه في إنكاره ، ولكنه كان يظل قائماً في نفسه كأنه ضيق أصمّ . كان يحسّ بنحو ما ، ان الطاعون قد انتهى نهاية مبالغاً في قسوتها ، ولم يكن يملك اذ ذاك حضور فكره . كانت السعادة تَصِل مسرعة ، وكانت الحادثة تمضي اسرع من الانتظار ، وكان رامبير يدرك ان كل شيء سيُرَدّ اليه مرة واحدة، وان الفرح حرق لا يتذوق نفسه .

والواقع ان الجميع كانوا مثله ، بأقدار متفاوتة من الوعي ، وينبغي الحديث عنهم جميعاً . لقد كانوا ، على ذلك الرصيف مـــن المحطة الذي يبدأون عنده حياتهم من جديد ، ما يزالون يستشعرون تضامنهم اذ يتبادلون النظرات والبسمات. ولكن ما ان رأوا دخان القطار حتى انطفأ فجأة احساسهم

بالنفي تحت وابل من الفرح الغامض المدوِّخ. وحين توقف القطار، انتهت في لحظة فراقاتٌ تطاول عليها الزمان، ومعظمها بدأ على هذا الرصيف نفسه، فإذا الاذرعة تتشابك بحرص جذِل، فوق اجساد كانت قد نسيت أشكالها الحية. ولم يُتح الوقت لرامبير لكي ينظر الى هذا الطيف الراكض اليه، فسرعان ما ارتمى على صدره. وأمسكها بملء ذراعيه، جاذباً اليه رأساً لم يكن يرى منه إلا الشعر المألوف، وترك لدمعه ان يسيل دون ان يدري أمن سعادة حاضرة ام من ألم طال العهد بكبته، وكان موقناً على الاقل ان هذه الدموع ستمنعه من ان يتحقق ما اذا كان هذا الوجه المختبىء بين كتفه وعنقه هو الوجه الذي طالما حلم به، ام انه، على العكس، وجه أجنبية. سوف يعلم فيما بعد اذا كان شكه حقيقياً. اما الآن، فهو يريد ان يعمل ما كان يعمله جميع الذين يبدو انهم واثقون من ان الطاعون يمكنه ان يأتي ويذهب دون ان تتغير من جراء ذلك قلوب الناس.

وعند ذاك عاد الجميع الى بيوتهم، يضمّ بعضهم بعضاً، عُمياً عن باقي العالم، منتصرين ظاهراً على الطاعون، ناسين كل شقاء، وكل اولئك الذين أتوا هم ايضاً في القطار نفسه فلم يجدوا احداً، واذا هم مستعدون لان يتلقوا في بيوتهم توكيداً لمخاوفهم التي ولّدها في قلوبهم من قبل صمت طويل. وبالنسبة لهؤلاء الذين لم يكن من رفيق لهم الآن غير ألمهم النضِر ولآخرين كانوا مستسلمين في تلك اللحظة لذكرى كائن قد مضى عن هذه الدنيا، كان الأمر مختلفاً جداً، وكان احساس الفراق قد بلغ لديهم كنهه. بالنسبة لهؤلاء جميعاً، امهات وازواجاً وعشّاقاً فقدوا كل فرح مع الكائن الذي هو الآن ضائع في حفرة مجهولة، او ذائب في ركام من الرماد، كانت القضية دائماً قضية الطاعون.

ولكن من ذا الذي كان يفكر باحاسيس الوحدة هذه ؟

عند الظهر ، كانت الشمس قد انتصرت على النسمات الباردة التي كانت تقاوم في الجو منذ الصباح ، فكانت تصب على المدينة أشعةً ثابتة في موجات غير متقطعة ، كان النهار في وقفة . وكانت مدافع الاقوياء ، في قمم التلال ، ترعد دون ما انقطاع في السماء الثابتة . وارتمت المـــدينة كلها خارجاً لتحتفل بهذه الساعة المضغوطة التي ينتهي بها زمن الآلام والتي يوشك فيها زمن النسيان على البدء .

كانوا يرقصون في جميع الساحات . وكان السير في الطرق قد تضاعف بقوة بين ليلة وضحاها ، وكانت السيارات ، وقد تكاثر عددها ، تجد بعض الصعوبة في الجري عبر الشوارع الغاصّة . ودقّت أجراس المدينة أعنف الدقّ طوال بعد الظهر ، فكانت تملأ بأصدائها سماء زرقاء ومذهّبة . والواقع ان صلوات الشكر والحمد قد تليت في الكنائس ، ولكن أمكنة اللهو والمتع كانت غاصّة في الوقت نفسه حتى لتكاد تنفجر ، وكانت المقاهي توزع آخر ما تملكه من الكحول دون ان تهتم بالمستقبل . وكان جمعٌ من الناس يتزاحمون على مشاربها وكلهم مهتاج ، وبينهم عدد من الازواج المتعانقين الذين لم يكونوا يتورّعون عن الظهور امام الناس كذلك . وكانوا جميعهم يصيحون او يضحكون. انهم ينفقون في هذا اليوم الذي يشبه يوم بعثهم مؤونة الحياة التي ادخروها طوال تلك الاشهر المـــاضية التي أنقص فيها كلٌّ منهم نشاطه . وغداً ستبدأ الحياة بالذات ، بما فيها من احتراسات . ولا بأس الآن في ان يتآخى ويتكاتف اشخاص ينتمون الى مختلف الأصول . فها ان فرحة التحرر تحقق ، ولو لبضع ساعات ، المساواة التي لم يحققها حضور الموت بالفعل .

ولكن هذا الفيض التافه لم يكن ليعبر عن كل شيء ، فقد كان الذين تغص بهم الشوارع عند المساء ، حوالي رامبير ، يخفون غالباً سعادات ارهف وأدق تحت قناع من الهدوء . والواقع ان عدداً كبيراً من الأسَر والازواج لم

يكونوا يتلبسون إلاّ مظاهر المتنزهين المسالمين . ولكنهم كانوا في الحقيقة يحجّون حجاً ادقّ الى الاماكن التي تعذبوا فيها . كانوا يحرصون على ان يطلعوا القادمين الجدد على مظاهر الطاعون ، خافيةً كانت او ظاهرة ، وآثار قصته . وكان بعضهم يكتفي ،في بعض الحالات ،بأن يلعب دور الدليل لمن سبق أن رأى اشياء كثيرة ، ولمن عاصر الطاعون ، وكان الحديث يدور حول الخطر ، دون وصف الخوف . وهذه المتع كانت غير ضارّة . ولكن كانت هناك رحلات اكثر ارتعاشاً ، كأن يقول حبيب لرفيقته ، وقد استسلم لضيق الذكرى اللذيذ : « في ذلك العهد ، اشتهيتك في هذا المكان ، ولم تكوني هنا ». وكان بامكان سيّاح الهوى هؤلاء ان يعرف بعضهم بعضاً اذ ذاك : كانوا يشكلون جزائر صغيرة للهمس والمسارّة وسط الصخب الذي يسيرون فيه . لقد كانوا هم الذين يذيعون نبأ الخلاص الحقيقي خيراً مما كانت تذيعه الفرق الموسيقية في مفارق الطرق . ذلك ان هؤلاء الازواج المسحورين ، المشدودين بقوّة ، البخلاء بالكلمات ، كانوا يؤكدون ، وسط ذلك الصخب بكل ما كانت تنطوي عليه السعادة من انتصار وظلم ، ان الطاعون قد انتهى وان عهد الإرهاب قد انقضى . كانوا ينكرون بكل هدوء ، في وجه كلّ بديهيّة ، ان نكون قد عرفنا يوماً هــذا العالم المجنون الذي يبدو فيه قتل انسان امراً طبيعياً وعادياً كقتل الذباب ، كما كانوا ينكرون هذه الوحشية المحدّدة جيّداً ، وهذا الهذيان المحسوب ، وهذا السجن الذي كان يحمل معه حرية فظيعة تجاه كل ما لم يكن الحاضر ، ورائحة الموت تلك التي كانت تشل بالدهشة جميع الذين لم تكن تقتلهم ، وكانوا ينكرون اخيراً اننا كنا ذلك الشعب المذهول الــذي كان قسم منه يُركَم كل يوم في فوهة فرن فيتبخر دخاناً كثيفاً ، بينا يظل القسم الآخر مقيداً بسلاسل العجز والخوف يترقب دوره .

وأياً ما كان ، فان هذا هو الذي كان يتفجر في عيني الدكتور ريو الذي كان يسير وحده في اتجاه الضاحية ، وسط الاجراس وطلقات المدفع

والموسيقى والاصوات المصمّة . وكانت مهنته ما تزال قائمة ، فليس من هدنة للمرضى . وفي النور الجميل الرقيق الذي كان يهبط نحو المدينة ، كانت ترتفع روائح اللحم المشوي والخمر الممزوج بالأنيسون . وكانت سحن جذلة تنقلب حوله باتجاه السماء ، وكان رجال ونساء يتعلقون بعضهم ببعض ملتهبة وجوههم ، ثائرة رغباتهم بعصبية وصراخ . اجل . لقد انتهى الطاعون مع الرعب ، وكانت هذه الاذرع التي تتشابك تعبر في الحق عن ان الطاعون كان نفياً وتفريقاً ، بمعنى الكلمة العميق .

ولأول مرة ، كان بوسع ريو ان يسمّي هذا الطابع العائلي الذي سبق له طوال أشهر ان قرأه على جميع وجوه المارّة . كان حسبه الآن ان ينظر حوله ، فيرى جميع هؤلاء الرجال الذين بلغوا نهاية الطاعون ، مع الشقاء والحرمان ، وهم يتلبسون لباس الدور الذي كانوا يلعبونه منذ وقت طويل ، ثوب مهاجرين كانت وجوههم من قبل ، وثيابهم الان ، تنم عن الغياب والـــوطن البعيد . فمنذ اللحظة التي اغلق فيها الطاعون ابواب المدينة ، لم يعيشوا بعد إلاّ في الفراق ، وعُزلوا عن هذه الحرارة الانسانية التي تنسي كل شيء . لقد كان هوءلاء الرجال والنساء ، في جميع اركان المدينة ، على تباين بينهم في الدرجات ، ينشدون اتحاداً لم يكن في نظر الجميع ذا طبيعة واحدة ، ولكنه كان مستحيلاً بالنسبة الى الجميع . وكان معظمهم قد نادوا بكل قواهم غائباً بعيداً ، وهفوا الى دفء جسم او الى الحنان او الى العادة . وكان بعضهم ، من غير ان يعرفوا ، يتألمون أن يُوضعوا خارج صداقة الناس ، وان يكونوا غير قادرين بعد على ان ينضموا اليهم بوسائل الصداقة العادية التي هي الرسائل والقطارات والبواخر . وكان بعضهم ، وهم الأقلون ، كتارو مثلاً ، قد تمنوا الاتحاد بشيء ما لم يكونوا يستطيعون تعريفه ، وان كان يبدو لهم انه الخير الوحيد المرغوب فيه . وكانوا احياناً يدعونه السلام ، بسبب انهم لم يجدوا اسماً آخر له .

ويمضي ريو في سيره، والجموع تكثف حوله ما أمعن في السير، وتتضخم الضوضاء فيخيل اليه ان الضواحي التي كان يقصدها تتراجع بالنسبة نفسها. ثم اخذ رويداً رويداً يذوب في هذا الجسم العظيم الذي كان يفهم شيئاً فشيئاً صرخته، هذه الصرخة التي كانت صرخته هو بالذات، ولو بصورة جزئية. اجل. لقد تألموا جميعاً في وقت واحد، سواء في أجسامهم ام في نفوسهم، من ان عطلة ما كانت مستحيلة، ومن ان نفيهم كان لا دواء له، ومن ان عطشهم لم يكن قط ليروى. ووسط هذا الركام من الأموات، وأجراس سيارات الاسعاف، وانذارات ما تواضع الناس على تسميته بالقدر، وسير الخوف العنيد وتمرد قلوبهم الطاغي، لم تنِ ضجة عظيمة تتصاعد وتنذر هذه الكائنات المذعورة، قائلة ان عليهم ان يلتمسوا من جديد وطنهم الحقيقي. وكان الوطن الحقيقي لهم جميعاً قائماً فيما وراء جدران هذه المدينة المختنقة. كان في تلك الأدغال المعطرة على الروابي، في البحر، في البلدان الحرّة وفي ثقل الحب. وهم انما كانوا يرغبون في العودة الى هذا الوطن الحقيقي، الى السعادة، منصرفين بنفور عن كل شيء آخر.

اما ما يمكن ان يطويه هذا النفي وهذه الرغبة في الاتحاد من معنى، فلم يكن ريو ليدرك منه شيئاً. كان دائباً على السير، يزحمه الناس من كل مكان وينادونه، حتى اقترب شيئاً فشيئاً من الشوارع الأقل ازدحاماً، وكان يفكر أنه لم يكن مهمّاً ان يكون لهذه الأشياء معنى او لا يكون، وانما كان يجب الوقوف فقط على الجواب الذي أعطي لأمل الناس.

لقد كان هو يعرف بعد الآن هذا الجواب، وكان يراه رؤيةً أفضل في الشوارع الاولى من الضواحي المقفرة تقريباً. فاما الذين كانوا قد تمنوا فقط العودة الى بيوتهم بالقرب من حبهم، عارفين قدر انفسهم، فقد كوفئوا احياناً. ولا شك في ان بعضاً منهم ظلوا يمشون في المدينة وحيدين، محرومين من الكائن الذي كانوا ينتظرونه. وسعداء ما زالوا اولئك الذين لم يفرّق بينهم مرتين،

كبعض أولئك الذين لم يستطيعوا قبل الوباء ان يشيدوا حبهم دفعة واحدة ، فظلوا يلاحقون ملاحقة عمياء ، وطوال سنوات ، الانسجام الصعب الذي ينتهي بان يشدّ حبيبين عدوين احدهما الى الآخر . كان هؤلاء أخفاء العقل، كريو نفسه ، اذ اعتمدوا على الزمن ، ففرق بينهم الى الابد . ولكنّ آخرين كرامبير الذي غادره الطبيب صباح اليوم نفسه وهو يقول له : « تذرّع بالشجاعة ، فقد آن ان تكون على حق » ، كانوا قد التقوا دون ما تردد بالغائب الذي كانوا يحسبون انهم فقدوه . إن هؤلاء سيكونون سعداء ، لفترة من الزمن على الأقل . إنهم يعرفون الآن انه إذا كان ثمة شيء يمكن ان يُتمنى دائماً ، ويُحصل عليه احياناً ، فذلك هو الحنان البشريّ .

وعلى العكس من ذلك ، لم يكن ثمة جواب لجميع الذين توجهوا ، من فوق الانسان، الى شيء لم يكونوا حتى ليتصوروه. ويبدو ان تارو كان قد بلغ هذا السلام الشاق الذي تحدث عنه ، ولكنه لم يجده إلا في الموت ، في الوقت الذي لم يكن ليجديه فيه نفعاً . واما اولئك الآخرون الذين كان ريو يراهم على عتبات البيوت ، في الأشعة المائلة ، متعانقين بكل قواهم ، متبادلين النظرات بولع ، فهم اذا حصلوا على ما كانوا يريدونه ، فذلك لأنهم كانوا قد طلبوا الشيء الوحيد الذي يتعلق بهم . وكان ريو يفكر ، وهو ينعطف في شارع غران وكوتار ، ان من العدل ان يأتي الفرح ، بين وقت وآخر على الأقل ، فيكافيء الذين يكتفون بالانسان وبحبه المسكين والفظيع .

هذه القصة تلامس الآن نهايتها. وقد آن للدكتور برنار ريو ان يعترف بأنه مؤلفها . ولكنه يود قبل ان يخط آخر احداثها ان يبرر على الأقل تدخله ، وان يفهم القارىء أنه حرص على أن يتخذ لهجة الشاهد المتجرّد . وقد أتاحت له مهنته ، طوال مدة الطاعون ، أن يرى معظم مواطنيه ، وأن يقف على عواطفهم . فقد كان اذن في موضع يمكنه من ان ينقل ما رآه وما سمعه . ولكنه انما شاء ان يفعل ذلك بالاعتدال المرغوب فيه . وهو قد جهد بصورة عامة في الا ينقل من الأشياء اكثر مما استطاع ان يرى ، وألا يعزو الى رفاقه في الطاعون افكاراً لم يكونوا مجبرين بالإجمال على ان يفكروا بها ، وان يستعمل فحسب النصوص التي وضعها القدر او المصيبة بين يديه .

وحيث انه قد دعي الى الشهادة ، بمناسبة لون من الوان الجريمة ، فقد كان على بعض التحفظ ، كما يليق بالشاهد الصادق الطوية . ولكنه في الوقت نفسه ، وفقاً لشريعة القلب النبيل ، أخذ بناصر الضحية ، وشاء ان ينضمّ الى الرجال ، مواطنيه ، في الأمور اليقينية وحـــدها التي يشتركون بها ، والتي هي الحب والعذاب والنفي . وهكذا لم يدع لوناً واحداً من قلق مواطنيه لم يقاسمهم إياه ، ولم يكن ثمة موقف إلا كان موقفه .

وحتى يكون شاهداً اميناً ، كان ينبغي له ان ينقل خصوصاً الأفعال والوثائق وما يتناقله الناس . اما ما كان عنده من قول ، وأما ترقبه وتجاربه ، فقد كان عليه ان يصمت عنها . وهو اذا لجأ اليها ساعة ، فذلك ليفهم او

يُفهم مواطنيه ، وليعطي شكلاً واضحاً في حدود الامكان لما كان غالب الاحيان يستشعره بغموض. والحق يقال ان هذا الجهد العقلي لم يشقّ عليه قط. فحين كان يشعر بالميل الى مزج مساراته الخاصة بأصوات الألوف من المصابين بالطاعون ، فقد كان يقفه دون ذلك تفكيره بانه لم يكن ثمة ألم من هذه الآلام إلا وكان الجميع يتقاسمونه ، وانّ عالماً يكون فيه الألم متوحداً غالب الاحيان هذا التوحّد، هو عالم فاضل . من أجل هذا كان عليه ان يتكلم باسم الجميع .

على أنه كان هناك واحدٌ من مواطنينا على الأقل لم يكن الدكتور ريو يستطيع التكلم باسمه . إنه ذلك الذي قال له تارو وهو يتحدث عنه : « ان جريمته الحقيقية الوحيدة هي انه قد أقر في قلبه ما كان يسبب موت أولاد ورجال . إنني أفهم الباقي ، اما هذا فاني مجبر على ان أغفره له » . ومن العدل ان تنتهي هذه القصة به ، هو الذي كان له قلبٌ جاهل ، اي متوحد .

حين خرج الدكتور ريو من شوارع العيد الصاخبة ، وفي اللحظة التي كان ينعطف فيها الى شارع غران وكوتار ، أوقفه حاجز من الشرطة . ولم يكن يتوقع ذلك . وكانت اصوات العيد البعيدة الصاخبة تطبع الحيّ بطابع الصمت ، فكان يتمثله خالياً مثلما هو ابكم . وأخرج بطاقته ، فقال له الشرطي :

— غير ممكن يا دكتور . هناك مجنون يطلق الرصاص على الجمهور . ولكن إبق هنا ، فقد نحتاج اليك .

وفي تلك اللحظة ، رأى ريو غران قادماً اليه . وكان غران لا يعرف شيئاً هو ايضاً . وقد مُنع من العبور ، وكان قد علم ان طلقات نارية تنبعث من بيته . وكانت الواجهة في الواقع تُرى من بعيد تذهّبها آخر أشعة لشمس لا حـــرارة لها . وكان يبرز حولها عراءٌ واسع يمتد حتى الرصيف المقابل . وفي وسط الطريق ، كانت ترى بوضوح قبعة وطرفٌ من قماش قذر .

وكان بوسع ريو وغران ان يريا، بعيداً جداً في الطرف الآخر من الطريق، صفاً من الشرطة موازياً للصف الذي كان يمنعهما من ان يتقدما ، وكان بعض سكان الحيّ يروحون خلفه ويجيئون على عجل . واذ حدقا جيداً ، رأيا كذلك رجال شرطة معسكرين عند ابواب البنايات التي تواجه البيت والمسدسات في ايديهم . وكانت جميع مصاريع البيت مغلقة ، الا في الطابق الثاني حيث كان يبدو مصراعٌ واحدٌ منتزعاً نصف انتزاع . وكان السكون تاماً في الطريق . وإنما كانت تُسمع بعض الحان من موسيقى آتية من وسط المدينة .

وبعد لحظة ، انفجرت من احدى البنايات المواجهة للبيت، طلقتا مسدس وقفزت بضع شظايا من المصراع المنتزع ، ثم عاد السكون . وقد بدا ذلك ، على البعد ، وعقب صخب النهار ، شيئاً غير واقعي في نظر ريو .

وفجأة قال غران وهو شديد الهياج :

— إنها نافذة كوتار . ولكن كوتار كان قد اختفى . . .

وسأل ريو الشرطي : — لماذا يُطلقون النار ؟

— إنهم يسلّونه . وهم ينتظرون سيارة تحمل العدة اللازمة ، لأنه يطلق على الذين يحاولون ان يدخلوا من باب البيت .وقد أصيب احد رجال الشرطة.

— ولماذا أطلق هو النار ؟

— لا ندري . كان الناس يتسلّون في الطريق .وحين أُطلقت اول طلقة من المسدس لم يفهموا . ولدى الطلقة الثانية ندّت بعض الصرخات ، وجُرح احدهم ، ففر الجميع . ماذا تريد . . إنه مجنون !

وفي السكون العائد ، بدا على الدقائق انها تتباطأ . وفجأة رؤي في الجهة الثانية من الشارع كلبٌ يخرج ، هو الاول الذي يراه ريو منذ وقت طويل ، كلب طويل الشعر متدلي الأذنين قذر لا بد ان اصحابه أخفوه حتى ذلك

الحين ، وكان يطفر ازاء الجدران . واذ وصل بالقرب من الباب ، تردد ثم جلس على مؤخرته وانقلب ليأكل براغيثه . ونادته عدة صفرات أتت من رجال الشرطة ، فنصب رأسه ثم عزم على اجتياز الطريق ، ومضى يشم القبعة. وفي اللحظة نفسها ، انطلقت رصاصة من الطابق الثاني ، فالتفت الكلب وراح يحرك رجليه بعنف ثم انكفأ اخيراً على جانبه تهزه انتفاضات طويلة . وجواباً على ذلك أُطلقت خمس طلقات او ست من الأبواب المواجهة فزادت في اهتراء المصراع ، ثم عاد السكون من جديد . وكانت الشمس قد دارت قليلاً ، وبدأ الظل يقترب من نافذة كوتار . وأنّت في الطريق خلف الطبيب فرامل بطيئة فقال الشرطي :

— هؤلاء هم .

وخرج خلف ظهورهم عددٌ من رجال الشرطة ، حاملين حبالاً وسلماً وعلبتين مستطيلتين محزومتين بكتّان مزيّت. ودلفوا الى طريق يكتنف هدْفة البيوت ، مقابل بناية غران . وبعد لحظة لوحظت ، اكثر مما رؤيت ، ضوضاء عند ابواب هذه البيوت . ثم كان انتظار . اما الكلب فلم يكن بعد ليتحرك ، وانما كان غارقاً في بركة سوداء .

وفجأة انهمرت طلقات بندقية سريعة من نوافذ البيوت التي كان يحتلها رجال الشرطة . وكان المصراع يتناثر خلال هذه الطلقات ، فيكشف عن مساحة سوداء لم يكن ريو وغران من مكانهما يميزان فيها اي شيء . وحين توقف الإطلاق ، انفجرت بندقية ثانية سريعة الطلقات من ركن آخر من بيت آخر أبعد . ولا بدّ أن الرصاص كان يدخل في مربّع النافذة ، اذ ان احداها اطارت شظيّة قرميد . وفي اللحظة نفسها ، اجتاز ثلاثة شرطيين الشارع ركضاً واختفوا في المدخل . وبعد هنيهة اسرع ثلاثة آخرون وانقطع الاطلاق ، وسادت فترة انتظار اخرى . ثم انبعث انفجاران آخران في البيت ، وتصاعدت ضوضاء رؤي بعدها رجلٌ صغير محمولاً اكثر منه مدفوعاً يخرج من البيت

وهو لا يني يصيح ، واذا بجميع مصاريع الشارع تُفتح ، كأنما تم فتحها بمعجزة ، وتطل منها رؤوس فضولية ، بينا كان حشد من الناس يخرج من البيوت ويتدافع خلف الحواجز . وذات لحظة ، رؤي الرجل الصغير وسط الشارع ، وقد استقرت قدماه اخيراً على الارض ، ويداه مشدودتان الى الخلف . وكان يصيح . واقترب منه شرطي فضربه مرتين بجمع قبضته ضرباً قوياً محكماً . وتمتم غران :

– انه كوتار . لقد جُنّ .

وكان كوتار قد هوى الى الارض . ورؤي الشرطي يقذف قدمه بكل قوة في الركام الذي تجمّع على الارض . ثم تحرك حشد مختلط متوجهاً نحو الطبيب وصديقه القديم .

وقال الشرطي :

– انفرطوا وابتعدوا من هنا .

وصرف ريو عينيه حين ألمّ به الحشد .

وذهب غران والطبيب بعد ان امحى الشفق . ومن جديد غصّت هذه الشوارع بدمدمة جمهور مبتهج ، كما لو ان الحادث قد هزّ الخدر الذي كان الحي مستنيماً فيه . وعند عتبة البيت ، ودّع غران الطبيب. كان ذاهباً ليعمل . ولكنه اذ همّ بالصعود قال له إنه كتب الى جان وانه الآن مسرور . ثم إنه قد أعاد عبارته ، وقال : « لقد حذفتُ جميع النعوت » .

ثم رفع قبعته في تحية احتفالية ، وعلى شفتيه بسمة خبيثة . ولكن ريو كان يفكر بكوتار ، وظل صوت القبضات التي سحقت وجهه يلاحقه فيما كان متوجهاً الى بيت الشيخ المبهور . لعله كان أقسى ان يفكر برجل مجرم من ان

يفكر برجل ميت .

وحين وصل ريو الى بيت مريضه الشيخ . كان الليل قد التهم السماء كلها . وكان بالامكان الاستماع من الغرفة الى ضجيج الحرية من بعيد ، وكان الشيخ دائباً على نقل الحمّص من وعاء الى آخر . وقد قال :

— إن لهم الحق في ان يتسلّوا ، فان بناء عالم يتطلب طرفاً من كل شيء . وزميلك يا دكتور ، ما تراه يفعل ؟

وبلغت مسمعيهما انفجارات أخرى ، ولكنها كانت سلميّة : فان صبية كانوا يطلقون صواريخهم . وقال الطبيب وهو يجس الصدر الذي كان يعلو بالشخير :

— لقد مات .

فقال الشيخ بدهشة — : آه !

واضاف ريو : — مات بالطاعون .

وبعد برهة قال الشيخ :

— نعم ، إن خير الناس يذهبون . هذه هي الحياة . ولكنه كان رجلاً يعرف ما يريد .

فقال الطبيب وهو يعيد سماعته الى المحفظة :

— لماذا تقول ذلك ؟

— لم يكن يتكلم ليقول لا شيء . اياً ما كان ، فقد كان يروق لي . هكذا الحياة . الآخرون يقولون : « انه الطاعون ، لقد بلينا بالطاعون » . وقد كادوا يطالبون بأن يمنحوا أوسمة من اجل شيء بسيط . ولكن ماذا يعني الطاعون ؟ انها الحياة ، وهذا كل شيء .

– تطهّرْ بالبخار كالعادة وبصورة منتظمة .

– اوه ! لا تخش شيئاً . لا يزال امامي وقت طويل ، وسأرى الجميع يموتون . انني انا ، اعرف ان اعيش .

فأجابته من بعيد أصوات فرح . وتوقف الطبيب في وسط الغرفة وسأله :

– هل يزعجك ان اصعد الى السطيحة ؟

– كلا . إنلك تريد ان تراهم من فوق ، أليس كذلك ؟ كما تشاء . ولكنهم هم هم دائماً لا يتغيرون .

وتوجه ريو نحو الدرج .

– قل لي يا دكتور ، أصحيح انهم سيشيدون نصباً لموتى الطاعون ؟

– هذا ما تقوله الصحف . مسلة او لوحة تذكاريّة .

– كنت على يقين من ذلك . وستلقى الخطب .

وجعل الشيخ يضحك ضحكة مخنوقة .

– انني اسمعهم من هنا يقولون : « امواتنا . . . » ثم يذهبون لتناول الفطور .

وكان ريو يرقى الدرج . وكانت السماء الكبيرة الباردة تومض فوق البيوت ، وبالقرب من الروابي كانت النجوم تصلُب كأنها الصوان . لم تكن هذه الليلة شديدة الاختلاف عن الليلة التي اتى فيها مع تارو فصعدا الى هذه السطيحة لينسيا الطاعون.ولكن البحر اليوم اشد صخباً مما كان ذلك اليوم عند اقدام الصخور . وكان الهواء خفيفاً جامداً محرراً من الأنفاس المالحة التي كانت تحملها ريح الخريف الدافئة . على ان صخب المدينة ما انفك يصفق أقدام السطائح بضجة موج هادر . ولكن هذه الليلة كانت ليلة الخلاص ،

لا ليلة التمرّد . وفي البعيد كانت ثمة الــوان حمر تعيّن مواضع الشوارع والامكنة المنيرة . وفي الليل المحرَّر الآن، أصبحت الرغبة لا يحدها قيد ولا حاجز ، وهذا الذي كان يبلغ مسمع ريو ، انما هو هديرها .

وارتفعت من الميناء المظلمة الصواريخ الاولى للاحتفالات الرسمية . فحيّتها المدينة بصرخات طويلة صماء. لقد نُسي كوتار وتارو وجميع الرجال والنساء الذين أحبهم ريو وفقدهم امواتاً او مجرمين، جميعهم قد نُسوا . لقد كان الشيخ على حق ، فان الناس هم هم لا يتغيرون . ولكن في ذلك تكمن قوتهم وبراءتهم ، ومن هذه الزاوية كان ريو يشعر أنه ينضمّ اليهم، من فوق كل ألم . وفي وسط الصراخ الذي كان يزداد قوة وامتداداً وينتشر حتى السطيحة، وبينما كانت حزمات النور المتعددة الألوان ترتفع في السماء، عزم الدكتور ريو على ان يكتب القصة التي تنتهي هنا ، كي لا يكون من اولئك الذين يصمتون ، وليشهد في صالح هؤلاء المصابين بالطاعون ، وليترك على الاقل ذكرى الظلم والعنف اللذين تكبدوهما، وليقول بكل بساطة ما يتعلّمه الناس في اثناء الاوبئة ، وان ما يستحق الإعجاب والتمجيد في البشر اكثر مما يستحق الاحتقار والزراية .

ولكنه كان يدرك في الوقت نفسه ان هذه القصة لا يمكنها ان تكون قصة النصر النهائي . إنها لا يمكن ان تكــون الا الشاهد على ما كان ينبغي انجــازه ، وعلى ما يجب ان ينجزه ، بعد ، دون ريب ، جميع الرجال الذين ان كانوا يعجزون عن ان يكونوا قديسين ويرفضون قبول الاوبئة ، فهم يجهدون مع ذلك ، ضد الرعب وســلاحه الذي لا يتعب ، بالرغم من تمزقهم الشخصي – يجهدون من اجل ان يكونوا أطباء .

والواقع ان ريو ، اذ كان يستمع الى صيحات الفرح والجذل التي كانت تتصاعد من المدينة ، كان يتذكر ان هذا الجذل كان دائماً مهدداً . ذلك انه

كان يعرف ما كان هذا الجمهور الفَرِح يجهله، وأن بامكان المرء ان يقرأ في الكتب ان قُصيمة الطاعون لا تموت ولا تختفي قط ، وانها تستطيع ان تظل عشرات السنوات نائمة في الأثاث والملابس ، وانها تترقب بصبر في الغرف والأقبية والمحافظ والمناديل والاوراق التي لا حاجة لها ، وانّ يوماً قد يأتي يوقظ فيه الطاعون جرذانه ، مصيبةً للناس وتعليماً لهم ، ويرسلها تمــوت في مدينة سعيدة .